



الحياة الإجتماعية في مصر القديمة

تأليف : سير و. م. فلندرز بتري

ترجمة : حسن محمد جوهر

عبد المنعم عبد الحليم



المكتبة المصرية العامة والخاصة

الحياة الاجتماعية في مصر القديمة

تأليف: سير و. م. فلندرز پيتري

ترجمه وعلو عليه ورفدم له

عبد المنعم عبد الحكيم

حسن محمد جوم

المفتش بوزارة التربية و التعليم

وكيل وزارة التربية و التعليم السابق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

تقديم

لقد نشر هذا الكتاب أول مرة في عام ١٩٢٣م ، فنفذت طبعته في أقل من سنة ، فأعيد طبعه للمرة الثانية عام ١٩٢٤م ، وصدرت آخر طبعة له عام ١٩٣٢م .

وعلى الرغم مما قام به علماء الآثار المصرية من كشف بعد هذا التاريخ أماطت اللثام عن كثير من نواحي الحياة المصرية ، فإنه مازال من أهم المصادر عن حياة المصريين القدماء وأصدقها .

ولا تعزى أهمية هذا الكتاب الى غزارة مادته وصحتها فحسب، ولكنها تعزى أيضا الى صدق فرائسة مؤلفه ، وصدق حكمه على الأشياء . ولا غرو فالسير فلندرز بترى يعد بحق في طليعة علماء الآثار الراسخين في العلم ، الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من ميولهم الشخصية ، ومن عقد البيئنة والجنس والدين ، ودونوا الحقائق العلمية مجردة من الغرض ، ومن غير تحريف فيها ،

ولا تشويه لها ؛ فجاءت كتبه صورة صادقة للحقائق التاريخية الثابتة ؛ فهو مثلاً عندما يكتب عما أشاعه المؤرخون المفرضون عن السخرة فى مصر القديمة ، يردّها الى أسبابها الطبيعية الحكيمة . .

ولقد تعرضت حياة الشعب المصرى فى الأزمان الغابرة لكثير من المسخ والتشويه على يد المؤرخين الاجانب قديما وحديثا . وأولهم الرحاله اليونانى هيروdot ، الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ابان محنة من أشد المحن التى ابتليت بها ، ألا وهى الاحتلال الفارسى ، الذى أثر تأثيرا سيئا فى أخلاق المصريين آنذاك . شأن كل احتلال أجنبى ، فخدعته ظواهر الأمور ، فأخذ بها ، وكتب عنهم ما أزرى بهم ، وخط من شأن حضارتهم ، حتى خيل لمن قرءوا ما كتبه عنهم أنهم قوم بدائيون يعبدون التماسيح والعجول والقطط .

وقد ظلت هذه الصورة المشوهة والروايات الكاذبة التى أذاعها هيروdot وغيره من الجهالة المفرضين يرددوها الناس مئات السنين .

وعلة هذا كله أن اللغة المصرية القديمة ، المرجع الحق لتاريخ مصر الفرعونية وحضارتها العريقة ، ظلت سرا خفيا حتى جاءت الحملة الفرنسية مصر فى يولية سنة ١٧٩٨ م (فى محرم سنة ١٢١٣ هـ) وأصدر العلماء الفرنسيون الذين جاءوا معها كتاب وصف مصر ، ذلك الكتاب الجليل الشامل ، وحل أحدهم ، وهو العالم الأثرى شمبليون رموزها (١) !

فما ان ذاع هذا الكشف العظيم حتى هرع العلماء الى مصر ، وانكبوا على دراسة تاريخها الفرعونى ، وحياة سكانها فى ذلك العهد المجيد ، مما دونه المصريون أنفسهم ، منقوشا على معابدهم

(١) الفير يرجع الى اللغة الهيروغليفية .

وحيطان مقابرهم . وكانت النتيجة اللازمة لهذه الدراسات أن عرف
الناس في شتى أنحاء العالم أن حضارة مصر أروع حضارة عرفها
الإنسان ، وأنها المعين الذي منه نهلت أثينا وعبت روما .

ولكن مما يؤسف له كثيرا أنه جاء في أثر العلماء الأعلام الذين
جاءوا مصر من بلادهم ، وانقطعوا لدراسة آثارها ، جاءت فئة نهضة،
كان همهم الأول سرقة الآثار وتهريبها إلى بلادهم لبيعها لمتاحفها
وجمعياتها العلمية ، ولم يصدهم خلق عن انتزاع بعض الأحجار
المنقوشة من أماكنها في جدران بعض المعابد أو حيطان بعض
المقابر (١) .

وحتى العلماء الأعلام الذين جاءوا مصر ، وكان هدفهم دراسة
آثارها دراسة علمية ، لم يكونوا كلهم يسرون على نظام مرسوم ،
ونسق في التنقيب معلوم ، الأمر الذي أدى في كثير من الأحيان
إلى الأضرار ببعض الآثار .

وهنا يبرز فضل الأستاذ العالم فلندرز بترى على الآثار المصرية،
فقد كان في طليعة العلماء الذين لم يتبعوا في التنقيب عنها الطرق
العلمية المنظمة فحسب ، بل كان المعلم الأول لها ، وكان لآرائه
فيها الفضل الأكبر في إرساء فن البحث والتنقيب عن الآثار على
أسس علمية سليمة .

ومن أجل هذا كله وقع اختيارنا على هذا الكتاب القيم لترجمته
إلى اللغة العربية . ولقد لقينا في ترجمته نصبا ، لأن في بعض
عباراته اختصارا يوشك أن يخل بمعناها ، وفيه إشارات لبعض
حقائق تاريخية غير مذكورة فيه ، اعتمادا على أن القارئ ملم بالتاريخ

(١) ولنضرب لذلك مثلا : الصورة المنقوشة التي تمثل زوجة ملك بنت، وكانت
في الأصل جزءا من جدران معبد الملكة حتشيسوت في الدير البحري ، ولقد نقل
بعضهم مقبرة كاملة مثل مقبرة متن التي نقلت إلى متحف برلين .

المصرى ، ولهذا بسطنا بعض العبارات المجملة ، وفسرنا كثيرا من الفقرات الغامضة ، واستبدلنا الحقائق التي عرفت بعد تأليف الكتاب بالمعلومات المذكورة فى الكتاب والتي ظهر عدم صحتها ، وأضفنا كثيرا من الحواشى والتذييلات التى توضح غامضا أو تجلى حقيقة ، ولم نشأ أن ننسبها الى أنفسنا لأننا لم نجد داعيا لذلك ، لأن الكتاب خلو منها ، فجميع الحواشى من تأليفنا .

هذا وقد أضفنا نبئا بالترتيب الزمنى للوك مصر العظام ، والذين ورد ذكرهم فى الكتاب بخاصة ، ليستطيع القارئ أن يرجع اليه كلما اقتضى الأمر ذلك ، كما زودنا الترجمة بخرائط ورسوم توضيحية خلا الكتاب منها .

والله ولى التوفيق .

المترجمان

ثبت بالترتيب الزمني للحولت مصر المشهورين

تمهيد

لقد استقى المؤرخون علمهم عن العصر التاريخي لمصر ،
وهو العصر الذي يبدأ بتدوين المصريين لأعمالهم وشتى نواحي
حياتهم ، من مصادر عدة ، أهمها ما خلفوه من آثار ، وما على بعضها
من نقوش ، سواء أكانت كتابات أو صورا ، وما تركه المؤرخون
القدامى من مؤلفات ، وأشهرهم المؤرخ المشهور مانيشون (١) الذي

(١) هومانيشون السمنودي ، كان كاهنا في مدينة هليوبوليس في عهد
بطليموس الاول وبطليموس الثاني ، وقد كلفه الملك الأخير بكتابة تاريخ جامع
لمصر ، فكتبه في ثلاثة أجزاء .
ومما يؤسف له كثيرا أن هذا الكتاب القيم فقد ، ولم يبق منه إلا ما اقتبسناه
منه المؤرخون ، الذين جاءوا بعده ، ونسبوه اليه .

ألف كتاباً عن تاريخ مصر في جميع العصور ، تحدث فيه عن الأسرات التي حكمت مصر ، وأحصاها قبلت إحدى وثلاثين ! وقد أخذ عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده .

ولقد قسم المؤرخون الأسرات أقساماً عدة ، يشمل كل قسم منها الأسرات المتواليه ، التي تتسم بطابع خاص ، والتي لها صفات مشتركة ، ولتاريخها صبغة مميزة .

أما عصر ما قبل الأسرات ، ويطلق عليه عصر ما قبل التاريخ ، فقد اعتمد علماء الآثار في تحديد حقبة على الآلات والأدوات والأواني التي خلفها سكان مصر في ذلك العصر الواسع في القدم ، وقسموه وفقاً لهذا ثلاث حقوب :

- (أ) الحقبة الباليوليتية : أي عصر الحجر المنحوت نحتاً ساذجاً .
- (ب) الحقبة النيوليتية : أي عصر الحجر المصقول بعد النحت .
- (ج) الحقبة الانبوليتية : أي عصر استعمال الحجر والنحاس في صنع الآلات .

ولقد ابتدع فلندرز بترى طريقة لترتيب ذلك العصر ، وهي الطريقة التي تعرف بالتوقيت المتتابع (١) ، والتي سهلت على العلماء معرفة المراحل الحضارية التي مرت بها مصر إبانته .

(١) تعتمد هذه الطريقة على دراسة الأواني المصنوعة من الفخار التي عثر عليها في المقابر المصرية التي ترجع إلى ذلك العصر العتيق ، ومقارن تقادده بخاصه ، وترتيبها تبعاً لتطور صناعة مقاضها أو تبعاً لالوانها ودرجات صقلها ، وعلى تطور =

وببدأ العصر التاريخي بابتداع المصريين للكتابة واستعمالها ،
وهو عهد يتلو بعضها بعضا :

١ - العهد العتيق ، ويشمل الأسرتين الأولى والثانية :

(أ) الأسرة الأولى (٤٧٧٢ ق.م - ٤٥١٤ ق.م)

• وأعظم ملوكها مينا (نارمر) •

(ب) الأسرة الثانية (٤٥١٤ ق.م - ٤٢١٢ ق.م) •

• وأشهر ملوكها برايب سن •

وأهم حوادث ذلك العهد توحيد القطرين (الوجهين) البحري
والقبلي ، وبناء مدينة منف واتخاذها عاصمة للبلاد •

٢ - عهد الدولة القديمة :

وفي عهدها أصبحت مصر دولة قوية ، متينة البنيان ، كثيرة
الموارد ، واسعة الثراء استطاع ملوكها بناء الأهرامات الضخمة ،

= الآثار الأخرى كالأواني المصنوعة من الحجر والآلات المتخذة من الطران ، وقد
قام بترى بترتيب ٩٠٠ مقبرة ترتبها زمنيا ، ثم قسمها فترات ثلاثا ، كل فترة
تمتاز بأواניהها الفخارية بصفات خاصة وترك ١٩ مقبرة من (١ - ١٩) يضاف عليها
ماسمى أن يعثر عليه من مقابر أقدم •

واليك هذه الفترات :

- (١) من ٢٠ - ٣٩ وقد أطلق عليها عصر ما قبل الأسرات القديم •
- (٢) من ٤٠ - ٥٩ وقد أطلق عليها عصر ما قبل الأسرات المتوسط •
- (٣) من ٦٠ - ٨٠ وقد أطلق عليها عصر ما قبل الأسرات الحديث •

ويطلق المؤرخون على ذلك العهد المجيد بعهد بناء الأهرام •

ويشمل الأسرات الآتية :

(أ) الأسرة الثالثة (٤٢١٢ ق م - ٣٩٩٨ ق م) •

وأشهر ملوكها زوسر باني الهرم المدرج ، وأشهر شخصية
في عهدها امحتب المهندس ، والطيب ، مصمم ذلك الهرم •

(ب) الأسرة الرابعة (٣٩٩٨ ق م - ٣٧٢١ ق م) •

وأعظم ملوكها سنفر و خوفو باني الهرم الأكبر ، وخفرع
باني الهرم الثاني ، ومنقرع باني الهرم الثالث والملكة خنت كاوس
بانية الهرم الرابع •

(ج) الأسرة الخامسة (٣٧٢١ ق م - ٣٥٠٣ ق م) •

وأشهر ملوكها أوسركاف وساحورع •

(د) الأسرة السادسة (٣٥٠٣ ق م - ٣٣٣٥ ق م) •

وأشهر ملوكها بيبى الأول وبيبي الثاني •

٣ - عصر الاضمحلال الأول أو الفوضى :

(٣٣٣٥ ق م - ٣٠٠٥ ق م) •

ويشمل الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشر ، وفيه قام
المصريون بثورة عارمة ضد الملوك تعد أقدم ثورة اجتماعية في

التاريخ ، وقد تمزقت في آثائه البلاد وصارت امارات ، وغزا الدلتا
الأسسيويون من الشرق واللييون من الغرب ، ولهذا أصبح من
الصعب عمل قوائم بأسماء الأسرتين السابعة والثامنة ، أما الأسرتان
التاسعة والعاشر فقد حكم ملوكهما من أهناسيا ، وكان يطلق
على بعضهم اسم خيتي •

٤ - الدولة الوسطى :

بعد عصرها من أزهى العصور المصرية القديمة ، فقد ازدهر فيه
الفن والأدب •

وقد انتشر النظام الاقطاعي في آثائه •

وتشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة •

(أ) الأسرة الحادية عشرة (٣٠٠٥ ق م - ٢٩٦٢ ق م) •
وأشهر ملوكها متوختب •

(ب) الأسرة الثانية عشرة (٢٩٦٢ ق م - ٢٥٦٥ ق م) •
وأشهر ملوكها أمنمحات (١) الأول ، وسنوسرت الأول

(١) يكتب هذا الاسم في الكتب التاريخية المختلفة في صور ثلاث : أمنمحات ،
أمنمحت ، وأمنمحات •

وامنمحات الثانى ، وسنوسرت الثالث (سيزوستريس) وامنمحات
الثالث ♦

٥ - عصر الاضمحلال الثانى :

ويشمل الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة
(٢٥٦٥ ق م - ١٩٢٨ ق م) وفى أثناءه تمزقت البلاد مرة
أخرى ، وتنازعها الأمراء والملوك الصغار ، وكان ملوك الأسرة
الثالثة عشرة من طيبة ، وملوك الأسرة الرابعة عشرة من الدلتا ،
وقد أدى ذلك الانقسام ؛ وما أصاب البلاد نتيجة له من ضعف
الى تمكين الهكسوس من غزوها ♦

٦ - عصر الهكسوس :

ويشمل الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة
(١٩٢٨ ق م - ١٧٣٨ ق م) وأشهر ملوكها خيان وأيبى
(أبو فيس) ♦

أما الأسرة السابعة عشر (١٧٣٨ ق م - ١٥١٧ ق م)
فقد كان ملوكها يحكمون من طيبة ويسيطرون على مصر
العليا على حين كان الهكسوس يحكمون مصر السفلى (الدلتا)
وكان الصراع على أشده بينهما ♦
وأشهر ملوك مصر العليا آنذاك سكتزع وكامس ♦

٧ - عصر الدولة الحديثة (١) :

في أول عهده طرد الهكسوس من مصر ، وأصبحت مصر قوة عظمى ، غزا ملوكها العظام أقطار آسيا الغربية ، وصارت مصر بذلك امبراطورية عظيمة ، مترامية الأطراف (٢) وأقدم امبراطورية في التاريخ •

وتشمل الأسر الآتية :

(أ) الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٧ ق م - ١٣٢٠ ق م) •
وأشهر ملوكها :

أحمس الأول وتحوتمس الأول ، والملكة حتشبسوت ،
وتحوتمس الثالث وامنمحتب الثالث وأختاتون ، وتوت عنخ آمون
وحور محب •

(ب) الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ق م - ١٢٠٠ ق م) •
وأشهر ملوكها سيتي الأول ورمسيس الثاني ومنفتاح •

(ج) الأسرة العشرين (١٢٠٠ ق م - ١٠٨٥ ق م) •
وأشهر ملوكها رمسيس الثالث •

(١) يرى بعض المؤرخين أن الأسرة السابعة عشرة من أسرات الدولة الحديثة .

(٢) بالغ بعض المؤرخين في اتساعها حتى جعلوها تشمل شمالي أفريقيا ومعظم جنوبي أوروبا وغربي آسيا •

٨ - العصر المتأخر :

وفى أثنائه دب الضعف والوهن فى الامبراطورية المصرية ،
وفقدت مصر أملاكها فى الشام ؟ وعادت الى الانقسام مرة أخرى ،
فحكم الوجه القبلى كهنة آمون ، وحكم الوجه البحرى ملوك
آخرون !

ويشمل الأسر الآتية :

- (أ) الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ ق م - ٩٥٢ ق م)
- (ب) الأسرة الثانية والعشرين (٩٥٢ ق م - ٧٤٩ ق م)
• وملوكها لبيون ، وأشهرهم شيشنق الأول .

- (ج) الأسرة الثالثة والعشرين ! (٧٤٩ - ٧٢١ ق م) وأشهر
•ملوكها بعنخى الأول

- (د) الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢١ - ٧١٥ ق م)
•وأشهر ملوكها بوكوريس

- (هـ) الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٥ ق م - ٦٧٢ ق م)
•وأشهر ملوكها سبাকা

- (و) الأسرة السادسة والعشرين (٦٧٢ ق م - ٥٢٥ ق م)

وكان عهدها عهد نهضة شاملة ، ازدهرت فيه الفنون ،
ونشطت التجارة ، ولكن كان ملوكها يعتمدون على المرتزقة

الأجانب ! وأشهرهم اسمائيك الأول وينخاو وابريز وأمازيس
الثاني (أحمس) •

٩ - غزو الفرس للبلاد (٥٢٥ ق م) :

وبذلك بدأ الاحتلال الأجنبي لمصر لأول مرة في التاريخ •
ويشمل الأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥ ق م - ٤٠٤ ق م)
وأشهر ملوكها قمبيز ودارا •

١٠ - عهد الأسرة الثامنة والعشرين

والثاسعة والعشرين والثلاثين

(٤٠٤ ق م - ٣٤١ ق م) وفيه استقلت مصر بعد
طردها للفرسيين ، وكان ملوكها مصريين وأشهرهم لقطانب •

١١ - العهد الفارسي الثاني :

وفيه غلب الفرس المصريين ، وأعادوا سيطرتهم عليها
(٣٤١ ق م - ٣٣٢ ق م) •
ويشمل الأسرة الحادية والثلاثين •

١٢ - النسخ المنقوبي لمصر :

وفيه طرد الاسكندر الأكبر الفرس من مصر عام ٣٣٢ ق م •

١٣ - البطالة (٣٢٣ ق م - ٣٠ ق م) :

ازدهرت البلاد في عهدهم ، ولكنها لم تلبث أن تدهورت في
أواخره .

• وأشهر ملوكهم

بطليموس الأول (سوتر) وبطليموس الثاني (فيلادلفوس ،
وبطليموس الثالث (ايوارجيتس) وبطليموس الحادي عشر
(الزمار) وكليوباتره .

١٤ - العصر الروماني (٣٠ ق م - ٦٤٠ م) :

صارت في أثنائه مصر ولاية رومانية ، وقد طال أمده ،
وقاست مصر فيه من الظلم والقسوة والأضطهاد ألوانا .

وأشهر براطرة الرومان في ذلك العصر اكتافيوس وتراجان
وهادريان وماركو أوريليس ودقلديانوس ، وقسطنطين ،
وجستيان وهرقل .

١٥ - العصر الاسلامي :

فتح العرب مصر بقيادة عمر بن العاص سنة ٦٤٠ م .

تعريف بالمؤلف

هو السير وليام فليندرز پترى ، ولد سنة ١٨٥٣ م ببلدة تشارلتون بانجلترا ، ونشأ فيها وشغف فى ربيع حياته بالآثار القديمة ، فعكف على دراسته منطقة ستون هنج الأثرية ، فى سهل سلسبرى بانجلترا ، وألف عنها كتاباً نشر فى سنة ١٨٨٠ م .

وجاء مصر فى السنة نفسها ، وبدأ فيها سلسلة من الأبحاث والحفائر ، استهلها بأهرام الجيزة ، ثم انتقل الى الدلتا ؛ ولم يلبث أن كشف عن معبد تانيس الكبير فى سنة ١٨٨٤ م ثم كشف عن مدينة تقراطيس الاغريقية فى غربى الدلتا ، وعن مدينة دفنى فى جنوب بحيرة المنزله .

وفى عام ١٨٨٨ م انتقل الى الفيوم ، وبدأ حفائره فيها ، فكشف مداخل أهرام هواره واللاهون واللثت ، ثم كشف معبد ميدوم سنة ١٨٩١ م .

وزاعت أخبار كشوفه ، فشرقت شهرته وغربت ، وعين أستاذا لعلم الآثار المصرية بجامعة لندن سنة ١٨٩٣ م . وفى سنة ١٨٩٤ م أسس جمعية الأبحاث المصرية ، التى عنت بدراسة الآثار المصرية

والكشف عنها ! وكان أهم عمل قامت به الكشف عن آثار مدينة منف •

وفي سنة ١٩٢٣ م أنعم عليه بلقب سير •

وفي سنة ١٩٢٣ م استقال من الجامعة ، وسافر الى فلسطين حيث عكف على الحفر والتنقيب فيها •

وتوفي في مدينة القدس في سنة ١٩٤٢ م •

ويعد السير فلندرزبترى في طليعة علماء الآثار الراسخين في العلم الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من عقد اليشة الجنس والدين عندما يكتبون عن أقوام لا يمتون اليهم بصلة ما ، كما ذكر ذلك في التقديم •

وقد ألف سير فلندرزبترى عشرات الكتب عن المصريين القدماء ، وعن آثارهم كما نشر عنهم مقالات كثيرة في المجلات التاريخية والأثرية وفي الصحف •

واليك أهم مؤلفاته عن مصر وآثارها الخالدة •

- (1) History of Egypt.
- (2) Religion and Conscience in Ancient Egypt (1889).
- (3) Religion of Ancient Egypt.
- (4) Arts and Crafts in Ancient Egypt (1909).
- (5) The Pyramids and Temples of Giza (1898).
- (6) Egyptian Science (1939).
- (7) Egyptian Architecture (1938).
- (8) Pre-historic Egypt (1920).
- (9) Syria and Egypt (1896).

مقدمة المؤلف

يعتبر هذا الكتاب « الحياة الاجتماعية في مصر القديمة » موجزا لسفر أضخم وأشمل انترك في اعداده نخبة من مشاهير العلماء والمؤرخين عنوانه : Descriptive Sociology of Egypt ولقد راعت فيه ربط الحقائق الماضية المجردة بأملة من حياة سكان مصر الحاليين ، الذين لم تتغير حياتهم الاجتماعية كثيرا ، كما اعتمدت على كثير من المصادر اليونانية والرومانية ، لا لأنها تمثل عصر هاما من عصور التاريخ المصرى فحسب ، ولكن للشبه الشديد بين المصريين القدماء وبين المصريين فى عهدهما ! على الرغم من انتشار المسيحية فى العهد الرومانى !

وفىما يختص بالفصول الأخيرة من هذا الكتاب فأتى عالجت فيها الفنون والصناعات من حيث تأثيرها بالعوامل الاجتماعية • أما تاريخهما فسوف أفرد له كتاباً مستقلاً (١) •

(١) توجد قائمة للمراجع اكبر فى كتاب Descriptive Sociology of Egypt
مطرح منها من يريد المزيد •

هذا ولم أكتب أسماء المراجع في آخر هذا الكتاب لأنها
مذكورة بالتفصيل في كتاب :

« Descriptive Sociology of Egypt »

وأملى كبير في أن أقوم بإصدار كتاب عن :

« The Religious Life in Ancient Egypt »

في القريب العاجل •

مراجع الكتاب (١)

- (1) Breasted : Ancient Records (B.A.R.).
- (2) Breasted : Book of the Dead (B.D.).
- (3) Breasted : Development of Religion (B.D.R.).
- (4) Beadnell : Egyptian Oasis (B.E.O.).
- (5) Carnarvon and Carter : Five Years (C.C.F.Y.).
- (6) Davis : Tell el Amarna (D.A.).
- (7) Garstang : El Arabah (G.A.).
- (8) Petrie : Abydos (P.A.B.).
- (9) » : Diospolis Parva (P.D.P.).
- (10) » : Gizeh and Rifeh (P.G.R.).
- (11) » : Hawara and Biahmu (P.H.B.).
- (12) » : Hyksos and Israelite Cities (P.H.T.).
- (13) » : Heliopolis and Kafr Amarna (RPHKA).
- (14) » : Labyrinth (P.L.).

Descriptive Sociology

(١) توجد قائمة للمراجع أكبر في كتاب

فلمرجع اليها من يريد المزيد .

- (15) Petrie : Medum (P.M.).
(16) Pliny : Natural History (P.N.H.).
(17) Petrie : Sinai (P.S.).
(18) » : Tell el Amarna (P.T.A.).
(19) Ouibell : Hierakonopolis (Q.H.).
(20) » : Tomb of Hesy (Q.T.H.).)

ملاحظة :

حافظنا في المتن على المختصرات الموضوعة بين قوسين ، ولم نترجم حروفها الى العربية .

الفصل الأول

نشأة المجتمع المصري

نشأة المجتمع المصرى وتطوره

ان نظام المجتمع البشرى معقد جد التعقيد ، ومن أجل ذلك فان دراسته ليست بالأمر السهل الميسور . وانك لتجد فى كل طبقة من طبقات المجتمع فى القطر الواحد وفى الزمن الواحد اختلافات عديدة أو لعل تلك الفوارق الحالية فى طبقة ما تبلغ فى كثرتها الفوارق التى سادت تلك الطبقة خلال الأجيال الماضية . وان تلك الاختلافات تتجاوز حدود التصور والادراك حينما نحاول دراسة المجتمع فى أقطار شتى ، ذات ظروف مناخية متباينة ، تسكنها سلالات بشرية مختلفة تتبع أساليب معيشة مختلفة وتسود فيها مذاهب دينية متعددة . وغاية ما يمكننا عمله هو دراسة العوامل التى تهىء الظروف لنمو الجماعات البشرية وتكاثرها ، ثم محاولة تتبع الاستكشافات والابتكارات ، التى بدونها لايتاح لتلك الجماعات فرصة التكاثر والتقدم . وليس من المبالغة فى شىء اذا قلنا أن

المبتكر لشيء جديد أحد بنىة المجتمع البشرى ، وذلك أن كل خطوة فى ميدان الابتكار أو الاختراع لها أثر فعال فى تقدم المجتمعات البشرية واستمرارها وتوثيق ما بينها من روابط .

ولقد رأينا ذلك فى العصر الحاضر حينما حدث ذلك الانقلاب العظيم فى حياتنا الاجتماعية نتيجة لذيوع استخدام الآلات فى المصانع . وقد أحدث استخدام الكهرباء وانتشار الاحتراق الداخلى لتسيير السيارات تطورا بعيد المدى فى الروابط القائمة بين المدن من ناحية ومناطق الريف من ناحية أخرى .

ولهذا فأننا حين نستعرض الظروف الاجتماعية المتعاقبة فى مصر القديمة فسوف نحاول أن تبين التغيرات التى حدثت فى مجال الابتكارات والمعرفة مما كان سببا فى تكوين مظاهر الحياة الاجتماعية فى تلك البلاد .

احوال قبائل الصيادين

ان أولى المراحل التى نعرفها عن حياة المصريين أنهم كانوا قوماً يشتغلون بالصيد . فقد كان النيل يضرر واديه المنخفض بالمياه . وكانت بعض الأمطار تسقط على الهضاب المجاورة وكانت تعيش هناك أنواع من الغزلان والثيران البرية والفيلة وكثير من أنواع الحيوانات الأخرى التى لا توجد اليوم الا فى أواسط أفريقيا .

ولم يكن للسكان يد من احترام الصيد لتعذر احترام الرعى لأن العشب لم يكن من الوفرة بحيث يسمح بتربية الحيوان بطريقة عملية مجدية ولكن من الجائز أن يكون الانسان حيث قد استطاع تربية بعض الأغنام وبذل عناية خاصة في اعداد المراعى لها • وان أول ركن تقوم عليه مهنة الصيد هو احتفاظ القبيلة لنفسها بحقوق خاصة على مساحة معينة من الأرض • بحيث لا تعتدى على تلك الحقوق قبائل أخرى •

ولقد استمرت الحروب بين القبائل للظفر بمواطن الصيد ومناطق جمع الثمار للحصول على اللحوم والفاكهة والحبوب والجذور والعشب •

وكانت كل قبيلة تتخذ نظاما اجتماعيا يهيئ لها أسباب الدفاع عن تلك الحقوق • واتنا لنشاهد هذا النظام الاجتماعى ذاته فى دنيا الحيوان • فالماشية والكلاب البرية تدافع عن حدود مواطنها • وقد لوحظ أخيرا أن الطيور تتخذ فى كل موسم مواطن معينة تدفع عنها كل دخيل واغل وعلى الأخص فى فترة التزاوج • وهذه الظاهرة تشاهد فى عالم النبات أيضا فان بعض النبات ينشر أوراقا عريضة تمتد على مساحات واسعة كي يطرد أى نبات طفيلى ينمو على مقربة منه •

وهناك بعض شعوب كالاسكيمو والعرب يعملون على تجنب

هذا اللون من المنافسة والتصارع وذلك بنهضة ظروفهم للمعيشة في أوطان قاحلة تدرأ التطفل وتصد الدخلاء . ومثل هؤلاء الأقوام كمثل بعض أنواع الزهور التي هيأت ظروفها بحيث تزدهر في موسم الشتاء البارد للاستفادة من الضوء الساطع والهواء الكافي قبل أن تورق أشجار الغابة وتلقى بظلالها عليها (١) .

على أن استغلال الأرض استغلالا خالصا للحصول على موارد القوت يتطلب وجود قبيلة متماسكة العرى للدفاع عنها وحمايتها من الدخلاء . ومن أجل ذلك كانت الحاجة ماسة الى وجود رئيس (شيخ) يقبض على زمام تلك القبيلة . وان آخر مخلفات ذلك النظام يتجلى في بعض المناطق بآسيا الوسطى . وكذلك في مواطن حفظ الحيوان البرى (٢) ولا تزال نجد الى اليوم أقواما يأخذون

(١) في الجهات الشمالية مساحات من الغابات النفضية . وهذه الغابات ذات أشجار تسقط أوراقها في فصل الشتاء البارد فينتاح وقتئذ لبعض الأزهار البرية التي تنمو وسط تلك الغابات فرصة الاستفادة من ضوء الشمس والهواء .

(٢) في بعض جهات العالم مثل كينيا واتحاد جنوبي أفريقيا مناطق معينة يأوى اليها أنواع من الحيوانات البرية النادرة . وتسن حكومات تلك البلاد قوانين تحظر على الناس دخول تلك المناطق الا بتصريح خاص ، ومنع الصيد فيها الا برخصة معتمدة وتسمى «مناطق حفظ الحيوان البرى» والفرص من وجوها المحافظة على تلك الحيوانات من الانقراض اذا أبيع الصيد فيها بدون قيد . والمؤلف هنا يعمل على الربط بين منع القبيلة للدخلاء من انتهاك حرمة أراضيها ومنع بعض الحكومات الصيادين وغيرهم من التسرب الى المناطق المحظورة دخولها بقية المحافظة على ما فيها من الحيوان البرى النادر .

بنظام القبيلة البدائي ويعيشون بعقلية سكان العصر الحجري القديم .
وكثيرا ما تقتصر أعمالهم على جمع الثمار البرية أو صيد
الحيوان (١) .

وعندما قل سقوط المطر في شمالي أفريقيا وقلت موارد مياه
النيل انحسر الماء عن مسطحات غرينية تصالح للزراعة وقل عدد
الحيوان فوق الهضاب . وقد أغار على مصر وقتئذ أقوام من الغرب
أدخلوا حرفة الزراعة في البلاد وقضوا على عادة أكل لحوم
البشر (٢) التي كانت متبعة قبل فدومهم . وقد نسب المصريون
هذه التغيرات للاله أوزوريس وأتباعه من الآلهة .

(١) لعل المؤلف يقصد بعض قبائل سكان استراليا الأصليين وجزيرة غينيا
الحديثة وبعض قبائل حوض الكنجو وقبائل البوشمان والهونتوت .

(٢) يشير المؤلف الى رأى ينادى به بعض علماء الآثار بأن الاله أوزوريس لم
يكن مصري الاصل بل هو اله لیبى من آلهة الزراعة والحصاد انتقلت عبادته الى
مصر في فجر تاريخها مع الليبيين الذين هزوا مصر في ذلك العهد البعيد . أما
عادة أكل لحوم البشر فلم تكن موجودة في مصر منذ بزوغ فجر الحضارة المصرية
ولكن يبدو أنها كانت موجودة بين الاقوام البدائيين الذين سكنوا هضاب وادي
النيل في عصر ما قبل التاريخ بدليل الاشارة اليها في نصوص الاهرام (وهي كتابات
دينية دونت داخل اهرام ملوك الاسر من الخامسة والسادسة ولكنها تسجل حوادث
وعقائد وعادات ترجع الى ما قبل ذلك بألاف السنين) . فقد جاء في الفصل ١٧٣ -
١٧٤ من هذه النصوص ما يلى : «أن الملك يأكل الناس ويعيش على الآلهة
فالكبار منهم غذاؤه في الصباح والمتوسطون حجما وجنته في المساء وصغارهم أكلته
بالليل» ولاشك أن هذه العادة اندثرت من مصر منذ فجر التاريخ ولكن ظل صداها
يتردد في نفوس الناس حتى دونت ضمن نصوص الاهرام

Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt,
pp. 127-129.

هذا وكان المصريون القنماء يعتقدون ان الذى علم أجسادهم المدنية ودرهم
على الزراعة ونهاهم عن اكل لحوم البشر هو الاله أوزوريس .

دور الخنطة في نشأة المدن

وان الانتاج المنتظم للغذاء عن طريق الزراعة قد أمد الزراعة في مصر بمقادير وفيرة من الحبوب مكنتهم من اختزان ما زاد عن حاجاتهم منها . وهذا الفائض المدخر من الغلال امدهم برأس مال زودهم بأسباب القوة التي كانت من عوامل التمهيد لظهور « حكومات المدن » . وقد لوحظ أن هناك تشابها عجيبا في طوع المسافات التي تفصل بين حواضر المقاطعات في كل من افليم الدلتا وبلاد ما بين النهرين فيبلغ متوسطه في الأولى واحدا وعشرين ميلا وفي الثانية عشرين ميلا . والظاهر أن هناك عاملا طبيعيا يحتمل أن يكون قد تحكم في تحديد تلك المسافات من شأنه أن جعل المخازن الرئيسية لمحاصيل المقاطعة مراكز لدوائر لاتزيد أنصاف أقطارها على عشرة أميال وهي أطول مسافة يمكن نقل المحاصيل خلالها من غير أن تتكلف نفقات كثيرة تبهط أثمانها وبذلك أصبحت مراكز المقاطعات هي مخازن الغلال الرئيسية التي تحفظ بها المحاصيل الفائضة المدخرة والتي بدورها ساعدت على نشأة المدن المستقلة . وكانت وسائل التبادل هي التي تحدد مساحة كل من تلك المقاطعات . وسنرى أن هذا المبدأ يصدق كذلك في عصور لاحقة . وفي خلال الحقبة التي نحن بصددنا نجد أن الغلال المخزونة تمثل رأس المال الأوحيد الذي يمكن استخدامه في

المعاملات المشتركة • وفى تنفيذ المشروعات التى ليس فى مقدور قرية واحدة النهوض بها •

وقد كان من المستحيل على احدى هذه المدن أن تسيطر على البلاد كلها فى الوقت الذى تشعر فيه أن الخطة أساسا لمبادلاتها • فلا مصر ولا اليونان ولا ايطاليا استطاعت توحيد مقاطعاتها حتى حان الوقت الذى شاع فيه استعمال المعادن فأمكن جمعها لاستخدامها فى دفع الأجور ونفقات مختلف الخدمات • ولم يكن من الميسور نقل الخطة من جهة الى أخرى وفاء للضرائب المقررة ثم ارسالها بالتالى عبر المسافات الطويلة لدفع الأجور وغيرها لأن أكداش الخطة كانت كبيرة الحجم ثقيلة الوزن معرضة للتلف والفساد • ولما توفر لدى مصر قدر كاف من معدن النحاس كما تدل على ذلك الأدوات النحاسية الكبيرة التى كانت مستعملة فى نهاية عصر ما قبل التاريخ صار توحيد الدولة مستطاعا •

تداول العملة المعدنية

بين مختلف البلاد

وكانت السلع وغيرها تدفع أثمانها بالنحاس منذ ذلك العهد حتى عصر البطالة حين استبدلت بها عملة أخرى أخف حملا وأعلى ثمنا •

وهكذا كان الحال فى أقطار أخرى • بيد أن ايطاليا قد

حافظت على ذلك التقليد البالى وهو استخدام النحاس فى عمليات البيع والشراء حتى بعد ذبوع عملة الفضة والذهب بوقت طويل .

ولقد كان استعمال الفضة أساسا للتبادل فى المرحلة الطبيعية البانية لأنه مورد دائم ولأنه أخف وزنا وأسهل تداولا فى جمع الضرائب ودفع الأجور والمرتببات فى مساحات واسعة . بيد أن الفضة لم تكن كثيرة الاستعمال فى مصر اذ كان يؤتى بها من أقطار بعيدة (١) ومع ذلك فقد أصبح استعمال مخلوط الفضة والذهب (٢) شائعا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة . ومن ثم نرى ذلك التوسع العظيم فى أملاك مصر . فقد أمكن جبي الضرائب معدنا نفيسا أتاح للدولة امداد جيشها بكافة حاجاته بطريقة منتظمة .

أما فى أرض الجزيرة فأتينا نرى نقطة التحول نحو استعمال الفضة قد سجلت على مسلة مانىشتوسو (وهذا التحول يعاصر

(١) لم تكثر الفضة فى مصر الا فى العصور المتأخرة من التاريخ المصرى القديم عندما بدأت جماعات الافريق تستوطن البلاد . وقد عثر فى عهد الاسرتين ٢١ و ٢٢ على مقبرة للملك بسوسنس الأول والملك ششنق الثانى بها تابوتان كاملان وكثير من الاوانى مصنوعة من الفضة وهى محفوظة بالتحف المصرى بالعمارة ٢ شرقا بالدور الثانى . وقبل ذلك العهد كان العثور على الفضة فى المقابر نىئا نادرا وليس أدل على ندرة الفضة من أن قيمتها فى عهد الدولة القديمة كانت تعادل نصف قيمة الذهب .

(٢) كان هذا المخلوط يعرف عند المصريين القدماء باسم «جمع» وهو المعروف باسم Electrum وقد استخداه ملوك الأسرة (١٨) فى كسوسة قمم المسلات حتى اذا ما سقطت عليها أشعة الشمس أرسلت أشعة نير أرجاء المعبد وبهر القادمين لزيارته . انظر Budge, Cleopatra's Needle, p. 37.

الأسرة التاسعة في مصر) عندما قدرت قيمة الأراضي الزراعية بالحنطة والفضة على السواء . ثم أخذت الوحدة المعدنية محل محل وحدة الحنطة شيئاً فشيئاً . ولم يمض بعد ذلك قرن من الزمان حتى تحققت لأرض الجزيرة أول وحدة كبرى على يد الملك « نارام سين » (١) .

وفي بلاد اليونان مكنت الفضة أثينا من توحيد الولايات الاغريقية تحت زعامتها . وكان الرصيد المشترك لتلك الولايات يحفظ في مدينة (ديلوس (٢) وكان ذلك الرصيد كافياً لدفع عجلة الحياة في بلاد اليونان . بيد أن هذه الدولة لم تجرؤ على الاحتكاك بدولة الفرس التي كانت تعتمد على وصيد من الذهب . وعندما بدأ فيليب المقدوني في اصدار عملة ذهبية أصبح لليونان

(١) «نارام سين» هو الابن الثالث للملك سرجون الاول المشهور مؤسس امبراطورية آكاد (التي كانت تشغل الجزء الجنوبي من أرض الجزيرة) . وقد حكم نارام سين من ٢٧٩٥ الى ٢٧٣٩ ق.م وقاد حملة ضد حلف مكون من ١٧ ملكا من ملوك الحيثيين وهزمهم جميعا . ثم رد الآريين عن حدود بلاده الشمالية . وقد كشفت أعمال الحفر التي قام بها دى ورجان في مدينة السوس بإيران عن لوحة لهذا الملك تمثله رجلا مفتول المضلات مسلحا بالقوس والسهم يطلا بقدميه اجسام من ظفر بهم من امداله الذين يتوسلون اليه ويسترحمون . وصور بين الامعاء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتضر . ولهذه اللوحة أهمية فنية لأنها تنبئ عن وجود فن ناضج في طريقه نحو الازدهار .

(٢) « ديلوس » جزيرة في بحر أيجه ضمن مجموعة الجزائر التي كانت قديما باسم «الكيكلا» وجزيرة ديلوس هي اصغر هذه الجزائر جميعا وفي مصر سيادة الافريق كان بها معبد مشهور للاله أبولو .

تبعا لذلك رأس مال جار أمكن استخدامه في مهاجمة فارس .
وكانت وحدة مملكة الدولة العظيمة (١) التي تعد أقوى دول
العالم حتى ذلك التاريخ والتي امتدت حدودها من البلقان الى
لاهور تعتمد على رصيد ضخيم من الذهب بلغ المخزون المركزى
منه مائتى طن ويقدر الآن بشمائية وعشرين مليوناً من الجنيهات
الاسترلينية ، وهو رأس مال ضخم بالنسبة للعالم القديم . وقد كان
رأس المال هذا خمسة أضعاف احتياطي ألمانيا من الذهب فى
(سنة ١٩٢٣ (٢)) وكان ذلك الرصيد يحفظ فى برج يوليوس .
وقد شد هذا الرصيد أزر الشعب الاغريقى ومكن له من السيطرة
على الممالك التى ظهرت فيما بعد وادماجها فى العالم الاغريقى والتى
كانت مساحة كل منها على حدة تربو على مساحة اليونان قبل عهد
الاسكندر بمائة سنة وكذلك الحال بالنسبة لنمو قوة الدولة
الرومانية فقد اتسعت أملاكها عندما اتخذت عملة الفضة ثم الذهب
أساساً لمعاملاتها ، وحينما كانت انجلترا تعتمد على عملة فضية كان
فى مقدورها الابقاء على كيانها فحسب . وما أن أخذت العملة
الذهبية تؤتى ثمارها هناك حتى أخذت هذه الدولة بعد انتصارها فى
موقعة سلويس Sluys (٣) تفتح عهداً جديداً من التوسع

(١) يقصد المؤلف دولة الاسكندر الاكبر .

(٢) ذلك تقدير المؤلف .

(٣) معركة «سلويس» معركة بحرية حدثت قرب ميناء سلويس بالساحل الفرنسى
فى منتصف صيف سنة ١٣٤٠م بين الانجليز والفرنسيين . وهى اول نصر بحرى
للتاريخ الانجليزى كله وكانت فاتحة حرب المائة عام .

الاستعماري الذي نجده عقب محاولة غزو فرنسا قد اتخذ في النهاية وجهة السيطرة على أقطار فيما وراء البحار . وهاتحن أولاً نخطي خطوة أخسرى الى الأمام آخر الأمر ذلك أن التجارة العالمية يكاد لا يتيسر نقل أثمانها ذهباً الى جهات العالم المختلفة ؟ وبذلك استخدم الورق في المعاملات على نظام الاصدار وهكذا استطاع الانسان اليوم الاهتداء الى نظام التبادل بالصكوك ، وهو أسهل تبادلاً وأحف وزناً في شئون التعامل . واذن فأساس الوحدة السياسية وانتشار التجارة يتوقفان أولاً وقبل كل شيء على سهولة نقل القيم المدفوعة ، فالخطة تكفي للتعامل داخل حدود المدينة الواحدة ، والنحاس يفي بحاجات مجموعة صغيرة من المدن ، والفضة لقطر قائم بذاته ، والذهب لامبراطورية تضم أكثر من قطر واحد . أما الورق فمجاله العلاقات المتبادلة بين شتى أقطار العالم .

ان الملك الواسع الذي تنقصه دعائم القوة المرتكزة على رأس المال انما يعتمد في حفظ كيانه على السطوة والجبروت فحسب . وهذا النوع من الدول قد يخرج الى حيز الوجود حيناً . ومثال ذلك دولة « الهون (١) » أو دولة « المغول » ولكنه لا يلبث قليلاً حتى تتداعي أركانه وتتوارى سطوته وجبروته . ومهما يكن من الأمر لا يمكن لدولة ثابتة الأركان متماسكة الأجزاء تجبى نوعاً من

(١) مجموعة كبيرة من قبائل التتر انصفت بالقسوة والوحشية لا دفقت من آسيا في القرن الرابع الميلادي واكتسحت امامها قبائل القوط سكان شرقها اوربا .

العملة وتنفقها أن يمتد نفوذها الى أبعد من حدود تداول تلك
العملة .

مصر في عصر استخدام الحنطة

ولنعد الآن الى بحث حالة المجتمع في مصر في عصر ما قبل
التاريخ حينما كان التعامل يجرى على قاعدة استخدام الحنطة . لقد
كان حاكم كل مقاطعة وقتئذ يستولى على نصيب من الضرائب من
المخزن المركزي لتلك المقاطعة . غير أنه عندما اتحدت عدة مدن
وأصبحت آفاق حدودها أكثر اتساعا كان على حاكم تلك الولاية
الكبيرة أن يتقل بين ربوعها للحصول على الضرائب المفروضة على
كل مركز من مراكزها . وكان هذا الاجراء يشبه ما كان يمارسه
أى رئيس من رؤساء عشائر « الكلت (١) » اذ كان يحصل على
الأتاوة المطلوبة مواداً غذائية متناسب مع مساحة كل ضيعة من ضياع
أتباعه وكان يرتحل الى تلك الضياع ويبقى فى كل منها أياما
معدودات وفى انجلترا استمرت تلك الطريقة فى جمع الأتاوات
المحلية الى عصر السكسونيين والنورمانديين . وكان ذلك راجعا
الى ندرة المعادن النفيسة حينئذ . ومن أجل ذلك كان البلاط الملكى
الانجليزى ينتقل من مكان الى آخر وعلى الأخص بين لندن

(١) كانت قبائل الكلت تسكن وسط فرنسا وجنوبيها وكذلك فى بعض المناطق
الغربية من فرنسا والجزر البريطانية وهى سلالات مختلفة تتكلم اللغة الكلتية .

وونشستر وجلوستر خلال العام الواحد حتى لا يأتى على موارد
اقليم واحد وحتى يتحاشى ضرورة نقل المؤن المجبسة من الأهلين
لمسافات طويلة . ومن الجائز جدا أن تلك الحال كانت فى مصر ؟
وكانت أساس نشأة ذلك التقليد المعروف « بالهبات الملكية » التى
كان يقدمها الفرعون (١) لأحياء ذكرى بعض الموتى من النبلاء
وأفراد الأسرة المالكة عند وفاتهم . كما كان يفرض قدرا معينا من
ايجار أملاكه مقوما بالحنطة والمواد الغذائية لكون قربانا للراجلين
من أسلافه وأجداده (٢) وأما قرأ فى احدى العبارات المدونة على
مقبرة من أقدم المقابر وهى مقبرة « متن (Meten) » (٣) « تنازل
الملك عن ملكية احدى الضياع الى « متن » وتنازله عن اثنتى عشرة
منحة عقارية لتقديم القرابين الجنائزية الى روح ذلك النيل . ولم
يعثر على أى أثر من آثار المصور التاريخية يشير الى منح هبة من
الأرض الى فرد أو أفراد مدى الحياة ثم استرداد الدولة لها بعد
ذلك . واذن فلا داعى لأن نفترض وجود ذلك فى عصور ما قبل

(١) كان الأموات يدنون على أبواب مقابرهم صيفا جنائزية تبدأ جميعها
بكلمة « قربان من الملك » (حتب دى نيسوت) .

(٢) ومثال ذلك ماورد فى قصة الساحر « د دى » من أن الملك « خوفو » وهب
لروح الملك « نب كا » قربانا مكونا من ألف رغيف ومائة جرة من الشراب .

(٣) متن (Meten) موطف كبير عاش فى أواخر الأسرة الثالثة وبداية
الأسرة الرابعة وكان للكشف عن مقبرته أهمية كبيرة فى معرفة نظام الوراثة فى ذلك
العهد وفى معرفة الكثير من الألقاب والوظائف . وقد نقلت مقبرته بأكملها الى
متحف برلين أيام الفوضى التى تعرضت لها الآثار المصرية فى القرن الماضى .

التاريخ • على أنه لما كانت الأرض تعتبر في الأصل ملكا للملك جاز لنا أن نفترض أنه في الوقت الذي ساد فيه النظام القبلى فى مصر كان شيخ القبيلة يمنح فردا أو أفراداً مساحة من الأرض على أن تعاد الى الأملاك العامة للقبيلة فى حالة الوفاة بدون ورثة • والظاهر أنه لم يكن هناك نظام أقطاعى على الأرض يستتبع التزامات خاصة وإنما كان على من يستغل الأرض أن يؤدي مختلف الرسوم والضرائب المقررة الا اذا كانت الأرض معفاة من ذلك بصفة خاصة لوقفها على أحد المعابد •

التغيرات فى عصر النحاس :

وعندما أهل عصر الأسرات فى مصر - وكان ذلك عقب بدء استعمال النحاس على نطاق واسع - قامت الدولة باعداد جهاز كبير من الموظفين كان يتزايد على مر الأيام ، وكان أولئك الموظفون موزعين فى شتى أرجاء البلاد ، يستخدمون معدن النحاس فى معاملاتهم وكان كل مصرى يود لو يعمل للحصول على هذا المعدن لصنع الأدوات اللازمة له • وما جاء عصر الأسرة الثالثة حتى ظهر منصب المشرف على الفيضان • وفى عهد الأسرة الرابعة نجد قائمة بأسماء عدد من المقاطعات منقوشة على خاتم أحد الموظفين وكان يشرف على أعمال مختلفة فيها ثم كان بعد ذلك مناصب قادة القلاع ومدبرو مصالح الداخلية وغير ذلك من الوظائف • وقد

أعقب ذلك زيادة سريعة في عدد كبار الموظفين • حتى جاء عهد استقرار الدولة العظيم تحت حكم الملك « خوفو » ، وحيثئذ نجد أن ممتلكات الكهنة قد نقصت وشئون الدولة قد نظمت وفق أساليب جديدة استمر العمل على هديها منذ ذلك التاريخ •

وسوف ندرس في هذه المناسبة حالة الطوائف المختلفة التي تألفت منها طبقات المجتمع المتعددة وعلاقة كل منها بالأخرى مرجئين الحديث عن واجباتها في شيء من التفصيل الى فصول لاحقة •

مركز الملك

لقد كان الملك في مصر أكثر من كونه مجرد حاكم شرعى للبلاد فقد كان يعد نفسه السيد لكافة الدويلات التي انضوت فيما مضى تحت لواء حكومة مركزية واحدة تحت امره الملك مينا • لذلك نجد الملك قد اكتسب كافة الألقاب والامتيازات التي كان ينعم بها حكام تلك الدويلات (١) فيما مضى • وعلى هذا فقد كان

(١) كانت مصر مقسمة في فجر التاريخ مقاطعات وكان لكل مقاطعة اله حاس عبده وشعار يمثلها وكانت هذه المقاطعات مستقلة في بادئ الأمر ، وبعد مضي زمن قامت حركة اتحاد في البلاد ، وذلك حينما تجمعت مقاطعات الوجه البحرى في مملكتين الأولى في الغرب وعاصمتها « بحت » بالقرب من دمنهور الحالية • والثانية في الشرق وعاصمتها « بوسير » بالقرب من سمندود الحالية • وبعد فترة من الزمن اندمجت هاتان المملكتان في مملكة واحدة شملت الوجه البحرى وأصبحت عاصمتها « بحدت » وكان الهما حور (حورس) • وفي الوقت الذى اتحدت فيه

الملك يحمل القايا. رسمية (١) كانت لحكام تلك الولايات • وعدا

الدلتا قامت مملكة أخرى في الوجه القبلى مؤلفة من اتحاد مقاطعاته وانخذب عاصمتها بلدة « نقادة » الحالية الواقعة بالقرب من « قفط » وكان الهيا « ست » • ثم قامت مملكة الشمال (في الدلتا) بعزو مملكة الجنوب (بالصعيد) وأمكنها توحيد القطرين وأصبح العاصمة في « بوسير » .

== ولكن بعد فترة من الزمن ثار أهالى الوجه القبلى برعامة «نقادة» وانقسمت مري الاتحاد . ثم ظهرت قوة «بحدت» عاصمة مملكة «حور» في الشمال من جديد وتمكنت من احتياغ مملكة «ست» في الوجه القبلى وتوحيد القطرين وانخذب العاصمة في مدينة هليوبوليس (عين شمس الحالية) حتى تكون في مركز متوسط من القطرين وكان ذلك عام ١٢٤١ ق.م. وكانت شارة هذه المملكة المتحدة «قرص الشمس الناشر جناحيه» الذى يشاهده الزائر في كنز من الآثار المصرية .

وبعد مضي فترة من الزمن ضعفت مملكة هليوبوليس فانقسمت البلاد مرة أخرى مملكتين احدهما في الوجه البحرى وعاصمتها «بوتو» (المروفة الآن بثل الفراعين في شمال دموق والأخرى في الوجه القبلى وعاصمتها « نخن ») وهى المروفة الآن بالكوم الأحمر على شاطئ النيل الغربى في مواجهة «ادفو» • وقد تم توحيد البلاد للمرة الثالثة والأخيرة على يد الملك «ميناء» ملك الجنوب وأنشأ عاصمة الدولة المتحدة عند رأس الدلتا وسماها «العلمة البيضاء» وهى التى عرفت فيما بعد باسم « منف » أو « منفيس » وتوجد أطلالها الآن على مقربة من «السرخس» جنوب أهرام الجيزة .

وبالرغم من أن أهالى القطرين اندمجوا تماما بعد ذلك واختفت معالم ذلك الانقسام الا أن ذكر مملكتى الشمال والجنوب ظل يرد على الآثار المصرية حتى آخر عصور التاريخ المصرى . فكان الملك يسمى ملك الوجهين القبلى والبحرى وكان «بيت المال» يسمى «البيت المزدوج» وهكذا ..

(١) الألقاب الرسمية الخمسة للفرعون هى :

(أ) «حور» وكان يطلق على الملك بمجرد اعتلائه العرش ومعناه أنه صورة حية من الاله : «حور» (حورس) تعيش على وجه الأرض . وكان هذا اللقب ينقش داخل مستطيل يمثل واجهة القصر الملكى وعلى قمته صورة الصقر الذى يرمز به للاله حور • =

ذلك فقد خلع الملك على نفسه ألقابا للوظائف الدينية التي كان يتولاها أولئك الحكام .

على أن الوظائف الدينية التي كان يتقلدها ملك مصر لم تسجل تسجيلًا وافيا حتى يمكن تتبع أسسها الأصلية . فقد كان الملك يؤدي صلواته اليومية بوصفه الكاهن الأعظم للبلاد . وكانت كافة الهيئات الجنائزية والقرايين تقدم باسمه من الناحية الشكلية . وكان المصريون كما هو الحال عند كثير من الشعوب القديمة يعتبرون أن رخاء البلاد ورفاهيتها تتوقف إلى حد كبير على حيوية الملك ونشاطه . ومن هنا فقط يمكننا أن ندرك سر ذلك النظام الصارم الذي قام على أساسه تحديد المواقيت اليومية لكل ما كان يؤديه الملك من أعمال . وقد جعله هذا النظام أشبه بعبد لوظيفته .

== (ب) «نبتي» أي التاجان الأبيض والأحمر وكان يمثل بنسر وصل (ثعبان) يرتكز كل منهما على سلة رمزا للملكية . ويمثل هذان الحيوانان رمزين لعبودي مدينة «نخب» في الوجه القبلي و «بوتو» في الوجه البحري .

(ج) «نسوت بيتي» ومعناه ملك الوجهين القبلي والبحري ويمثل بنباب «البوص رمز الوجه القبلي» والنحلة «رمز الوجه البحري» . وكان هذا اللقب يطلق على الملك في اليوم الذي يتوج فيه .

(د) «حورنب» ومعناه في الأصل «حورس الذهبي» ثم تطور فيما بعد فأصبح مدلوله في العصر المتأخر وعصر البطالة «حورنبتي» أي حورس المنتصر . وهو يشير بذلك إلى انتصار «حورس» على عدوه «ست» الذي كان يقطن بلدة «نوبت» وهي «البلات» الحالية بالقرب من «قنط» كما ورد في قصة «إيزيس وأوزوريس» .

(هـ) واللقب الأخير هو «سا . رع» ومعناه «ابن الشمس» وكان يليه اسم الملك نفسه داخل خرطوش .

وهناك مسألة أخرى كانت مثار دهشة عظيمة للاغريق تلك
هى خضوع الملك التام للقانون .

ويروى المؤرخ ديودورس الصقلى (١) أن ملوك مصر لم
يحكموا البلاد حكما أوتوقراطيا مطلقا كغيرهم من الحكام فى الدول
الأخرى ولم يحيا حياتهم طليقة من كل ضابط أو قيد ، وإنما
كانوا يراعون حرمة القانون فى كافة تصرفاتهم سواء أكان ذلك
خاصا بأمور الحكم أو بشئونهم الخاصة . وعندما بدأ الملوك الأقوياء
فى توحيد البلاد فى فجر التاريخ المصرى كانت الدويلات المتشعبة
فى أرجاء الوادى تخضع لهم بشروط تعتبر ملزمة للملوك وعليهم
احترامها . ومن هنا جاءت فكرة تقييد سلطة الملك خلال العصر
التاريخى .

ومن هذا نرى أن تقييد سلطات الملك فى مصر جاء نتيجة
تلك التقاليد القديمة التى آلت اليه باستيلائه على مختلف الدويلات
التي كانت قائمة فى مصر من ناحية ولشخصيته المقدسة كرمز لحياة
مصر من ناحية أخرى .

(١) «ديودورس الصقلى» مؤرخ روماني ولد فى جزيرة صقلية وزار مصر
حوالى عام ٥٩ ق-م أيام حكم البطالمة لها . وكتب كتابا من أربعين جزءا فى
تاريخ العالم خصص جزءا منها لمصر . وقد ضاعت أغلب هذه الكتب ولم يبق
منها الا ستة أجزاء .

الوزير

فى عهد الأسرة الأولى كان الوزير (١) وهو رئيس الأداة الادارية يسمى حامل أختام الملك .

وفى عصر الأسرة الثالثة أصبح منصب قاضى القضاة « سبختى (٢) » أكبر مناصب الدولة . ولبت الوزير يحتفظ بلقب قاضى القضاة حتى زوال الملكية فى البلاد . وكان الوزير قطب الرعى فى الشئون الرسمية تاهضا بأمور الادارة والقضاء معا ويشلقى التقارير التى ترد من مختلف المقاطعات وستحدث عنه بتفصيل فى الفصل الخاص بالادارة .

وكانت باكورة الأعمال اليومية التى يزاولها الملك الاطلاع على الرسائل الواردة من أنحاء البلاد . ومن الواضح أن ماكان لديه من تبعات دينية وأعمال أخرى متعددة فى حياته اليومية قد

(١) لم تكن وظيفة الوزير بمعناها الصحيح معروفة فى مصر قبل بداية الأسرة الرابعة إذ أن أول وزير معروف يرجع الى عصر الملك «سنفرو» وهو «نفر ماعت» حفيد الملك «سنفرو» كما يقول بعض المؤرخين (انظر كتاب مصر ، لدرينون ورجمة عباس بيومى ص ١٦٤) . أو «كانفر» ابن «سنفرو» كما يقول البعض الآخر (انظر سليم حسن ، فى الجزء الثانى ، ص ١٤) . هذا ويعتقد بعض المؤرخين «كادوارد ماير» أن وظيفة الوزير كانت موجودة فى عهد الأسرات الأولى ويعتمدون فى ذلك على الكتابة التى وردت على لوحة الملك «نارمر» (الذى يرجع أنه منسا) فوق رسم شخص يشبع الفرعون ويرتدى بجلد نفهد . وهذه الكتابة تقرأ «نبت» وهو لفظ معناها وزير ولكن ذلك غير مؤكد ولا يمكن الاعتماد عليه بصفة قاطعة .

(٢) «سبختى Sebekhti » أو «ساب سبختى» .

حال بينه وبين التفرغ الكافى لإدارة شئون الدولة • ومن أجل ذلك كانت وظيفة الوزير على أعظم جانب من الأهمية • وعندما وجهت الدولة عناية كبرى الى بلاد النوبة أصبحت الحاجة ماسة الى وجود منصب وزير ثان للجنوب • ولما حكمت الجنوب الكاهنات العظيمات (١) فى مدينة « طية » ورث مساعد وهن الكبار بطبيعة الحال منصب وزير الجنوب •

توارث الحرف

واذا نحن درسنا شئون الطبقات المختلفة للمجتمع فى مصر القديمة نلاحظ وجود نسبة كبيرة من الوظائف والمناصب والمهن انحدرت الى أصحابها عن طريق الوراثة وهو أمر جد طبيعى • ونشاهد مثل هذه الظاهرة فى إنجلترا وغيرها من الأقطار وذلك

فى عهد الأسرة الثانية والمشرىين الليبية الأصل لجأ الملوك الى حيلة بارعة للسيطرة على الأملاك الواسعة التابعة لمعابد الاله «آمون رع» الاله طيبة فعمدوا ابناءهم رؤساء لكهنة هذا الاله فى مدينة طيبة •

(١) وقد ابتدع أحد ملوكهم وهو «أوسركن» الثالث يدعى جديدة هى تعيين النساء فى هذه الوظائف • فعين ابنته الكبرى «شبن أوبت» كبرى كهنة آمون رع وبالتالى مشرفة على إيرادات معابده • وسار «تاكلوت» الثانى على منوال أبيه • ولا غزا النوبيون مصر وطردوا الليبيين عمن الملك «شباكا» أخته فى هذا المنصب • وقد عرفت تلك الكاهنات فى التاريخ باسم «الكاهنات العظيمات لآمون» ولا كانت سلطتهن تمتد على النوبة والوجه القبلى فقد كان كبار مساعدين من الكهنة يعتبرون وزراء للجنوب •

على الرغم من أن لكل فرد هناك مطلق الحرية في تغيير مهنته كما
يطلب له .

وعلى النقيض من ذلك نجد أنه إذا ما احترف شخص ما مهنة
معينة استحال عليه احتراف مهنة أخرى غيرها . وإن السهولة
الطبيعية التي كان يتعلم بها الابن حرفة والده جعلت كل جيل من
الأبناء يتب على حرف الآباء ثم يعلمها بدوره لأبنائه . وهكذا تنتقل
الحرفة بين أفراد الأسرة على مدى الأجيال ، ومن أجل ذلك فإن
الأثر الذي استقر في نفوس الاغريق عندما اختلطوا بهذا المجتمع
أن بنيانه قام على نظام وراثي .

تقسيم الأراضي طبقا لنظام الطبقات

وقد لحظ الاغريق أن كلا من الطبقات الثلاث المؤلفة من
الكهنة والجنود والمزارعين يمتلك أُنصبة متساوية من الأراضي
الزراعية . ويروي المؤرخ « استرابون (١) » أن هذه المساواة لم
تكن مراعاة في مصر كلها بوجه عام فحسب ، ولكنها كانت مراعاة
في كل منطقة على حدة . وإن تقسيم أراضي كل مقاطعة الى ثلاثة
أنواع من الملكيات طبقا لما رواه استرابون وغيره من الكتاب الاغريق

(١) استرابون جغرافي ومؤرخ روماني زار مصر حوالي عام ٢٥ ق.م بعد
الفتح الروماني لها . وظل بها خمس سنوات وألف عنها كتابا رائعا وصف فيه
خطتها وأورد بعض الاشارات عن تاريخها . وأهم ما جاء في كتاب استرابون وصفه
الدقيق المفصل لمدينة الاسكندرية .

يشبه ما ذكرته النصوص المصرية القديمة (١) من تقسيم كل مقاطعة
فى مصر ثلاث فئات :

١ - الحقول التى تقع على جوانب القنوات والترع وضفاف
النيل .

٢ - الأراضى العامة أو المتوسطة الموقع .

٣ - الأراضى الممتدة على مقربة من حدود الصحراء وكانت عادة
أكثر انخفاضاً من أراضى القسمين الآخرين ويعيبها وجود
بعض المناقع والبرك فيها .

ولتفصيل ما أجمالنا نجد أن الأراضى المتوسطة الموقع هى
التي اختص بها الآلهة . فقد كانت فى نصف مجموع مقاطعات
الدلتا مخصصة للآلهة « رع » و « حورس » و « آمون »

(١) أهم هذه النصوص ماورد على جوسى الملك «سوسرت الثالث» فى
الأمصر . إذ دونت عليه جميع المقاطعات على هيئة قائمتين احدهما تشمل
مقاطعات الوجه البحرى والثانية تحتوى على مقاطعات الوجه الشرقى . ويذكر
القائمة اسم المقاطعة مستدلة من اسوان التى تعتبر فى نظر المصريين المقاطعة الاولى
ثم اسم الآله الذى يعبد فيها واسم العاصمة ، ثم مساحة الأراضى المنزرعة التى
تحتويها المقاطعة . هذا وكان عدد مقاطعات الوجه القبلى ٢٢ والوجه البحرى
٢٠ مقاطعة .

و « حايى (١) » و « سبك (٢) » و « بنو (٣) » .

وكان يطلق على هذه الأراضى اسم « الحقول المقدسة » ومن الواضح أن الكهنة هم الذين استأثروا بتلك الحقول . على أنه لم يرد فى تلك السجلات القديمة عند الكلام عن القسمين الآخرين من الأراضى الزراعية ما يبين منه أنها خصصا لرجال الجيش أو المزارعين . وإذا اعتمدنا على الافتراض والاجتهاد فانه يبدو بجائزا أن الجند وقتئذ استحوذوا على الأراضى الزراعية المتاخمة للصحراء . وذلك لصد غارات البدو وأداء التدريبات العسكرية اللازمة والانتقال فى سهولة ويسر عبر الطريق الصحراوية فى أى وقت ن السنة ومهما يكن . من الأمر فالظاهر أن تقسيم الأراضى بين طبقات الشعب طبقا للسجلات القديمة يمكن أن يتمشى بوجه عام مع التقسيم الذى ذكره استرابون وغيره من المؤرخين .

ولنفحص الآن مسألة : تملك طبقة ما من المجتمع لمساحة

معينة من الأراضى » .

(١) « حايى » اله النيل وكان يمثل على هيئة عجل .

(٢) « سبك » اله الفيوم فى الاصل وكان رمزه السمحاق وقد انتشرت عبادة فى كثير من جهات القطر .

(٣) « بنو » Benu : أحد آلهة الشمس وكان يمثل فى شكل طائر ويبدو ان كهان مدينة هليوبوليس فى فجر التاريخ المصرى كانوا يشاهدون هذا الطائر يحط كثيرا على شجرة فى معبد الشمس فربطوا بينه وبين عبادة الشمس .

لقد كان عيد الأرض يؤدون كافة الأعمال الزراعية في
الأراضي المخصصة للكهنة وكانت معفاة من الضرائب • وكان
يعمل فيها عدد من الأفراد مساو لعدد الأفراد الذين يعملون في
أراضي القسمين الآخرين • غير أن محصول « الحقول المقدسة »
كان يستحوذ عليه ويستأثر به طبقة رجال الدين • وكانت تلك
الحقول قريبة النسيب بالأراضي الموقوفة على الأديرة في العهد
المسيحي والتي كانت تتضمن شروط التنازل عنها بطريق الهبة
للمصرف منها على بعض أبواب الخير كنفقات التعليم وتقديم المنح
تشجيعا للشباب على مواصلة التعليم في الجامعات بالإضافة الى الأنفاق
على نواح أخرى متعددة من الخدمات الاجتماعية •

أما فيما يختص بالأراضي التي كانت في حوزة رجال الجيش
فقد بلغ عدد الجند في عهد « رمسيس الثاني » ستمائة وخمسين ألفا
من الرجال كما رواه « ديودورس » ولعل هذا التقدير في جملته
مقبولا • ذلك أن عدد سكان مصر وقتئذ قدر بحوالى اثني عشر
مليوناً • وعلى هذا تكون ثلث مساحة أراضي مصر وهي المخصصة
للجند بها أربعة ملايين نسمة • فإذا كان نصفهم من الرجال •
وكانت سن التجنيد بين العشرين والستين • وإذا استبعدنا من هذا
العدد من مات قبل أن يبلغ سن التجنيد • كان عدد الجيش المعبري
الذي صور « ديودورس » في روايته معناه أن الأراضي المخصصة
للجيش لم تكن في حاجة الى استخدام عيد الأرض والأرقاء •

اذ كان ينهض بالعمل فيها في أثناء الحرب الكهول والنساء والعلماء .
على أنه اذا فرض أن تعداد الجيش بلغ أربعمئة ألف جندي كما
كان الشأن في عهد الأسرة السادسة والعشرين أو اذا كان مكونا
من الأرقاء من كافة أنحاء البلاد فربما تطلب الأمر حينئذ
استخدام عبد أو اثنين في ضيعة من الضياع الكبيرة من الاراضى
المخصصة لرجال الجيش .

بيد أن واقع الأمر يحتمل أن يكون أمرا وسطا بين الاحتمالين
السابقين .

والظاهر أن رجال الجيش ممن كانوا يملكون أرضا زراعية
لم يكن فى استطاعتهم الحصول الا على قدر محدود من ممونة عبيد
الأرض . فكان لذلك لزاما عليهم أن يقوموا هم أنفسهم بخدمة
أراضيهم وزراعتها .

أما الطبقة الثالثة وهى « طبقة الفلاحين » فقد كان لها وضع
من حيث امتلاك الأرض أو استئجارها يختلف عن وضع طائفة
عبيد الأرض (١) الذين كانوا يعملون تحت امرة الطبقتين
الأخريين .

(١) استخدم المؤلف كلمة Self (عبيد الأرض) التى كانت تطلق على
العمال الزراعيين فى اقطاعات المصور الوسطى فى أوروبا للدلالة على الاجراء
الذين كانوا يعملون فى الاراضى فى مصر . ولكن هذه الكلمة لا تدل تماما على الحالة
الاجتماعية لهؤلاء الاجراء لانهم لم يكونوا عبيدا أو رقيقا ذلك أن الرق فى جميع
عصور التاريخ الفرعونى لم يتناول أى طائفة من أعالي البلاد . وانما اقتصر على
الاسرى الأجانب فقط

والتواقع أن مركز هؤلاء الأجراء كان يتغير على مدى العصور بتغير النظم السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد . ففي الدولة القديمة ادعى بعض العلماء بأن عبيد الأرض كانوا يعتبرون ضمن الاملاك الخاصة بصاحب الأرض تنتقل ملكيتهم بانتقال ملكية الأرض التي يعملون فيها . واستندوا في ذلك على وثيقتين احدهما وردت في مقبرة أحد كبار موظفي الدولة في عهد الأسرة الرابعة المدعو «متن» جاء فيها أنه خلف لأولاده خبيطة من الأراضي ومعها «الانفار» والمواشي وجاء فيها أيضا أن والد متن ترك لابنه أمواله التي كانت تتكون من «انفار» و « مواشي » .

والوثيقة الأخرى سند صادر من أحد أفراد حاشية الملك «حفرع» ورد فيها أن هذا العظيم جعل أمواله من لوز و «انفار» للمؤسسة (أي الأرض والأشياء المرموقة على مقبرته) التي ذكرها السند . وأن هذا كله أصبح مما لا يجوز التصرف فيه . وهذا معناه أن الصال أو الزارع من الانفار ينطق عليهم التصرف كما ينطبق على الأشياء سواء بسواء .

ولكن يرد العلماء المعارضون على هذا بقولهم ان هذه النصوص لا تعيد حتما أن الصال أو الزارع يعتبرون من الأرقاء . فالعامل أو الزارع وفقا لهذا الرأي لم تنتقل ملكيته من شخص إلى آخر (س «متن» إلى أولاده مثلا) . وكل ما هنالك أن العقد الذي يربط العامل أو الزارع بمالك الأرض يعطى حقا شخصيا لهسلك المالك قبل العامل . ولهذا المالك اذا شاء أن ينقل حقه الشخصى هذا الى من يشاء فيكون المالك الجديد قد حل محل المالك الاصلى في هذا الحق . أى أن المسألة هي مجرد انتقال للذمة لا انتقال للملكية . ويؤيد هؤلاء العلماء حججهم بأن جميع الناس في ذلك العصر كانوا أحرارا . كما ورد في مرسوم «دهشور» بأن العامل الزراعى لا يصل إلا ساعات معينة بالنهار . وكما ورد في مرسوم آخر للملك «مببى» الاول بأن العامل كان يعمل بأحر . وهذا كله دليل على أن العامل الزراعى لم يكن مملوكا لصاحبه الأرض .

ولكن في أواخر عهد الدولة القديمة وفي الدولة الوسطى ازداد نفوذ الأشراف في الأقاليم وكونوا قطاعات كبيرة حتى انتهى الأمر بهم إلى أن يصبحوا حكاما حقيقيين في أقاليمهم . وتبعاً لذلك فقد الزراع الكثير من حريتهم وأصبح الملاك يتعاقدون معهم على البقاء في الأرض هم وأولادهم من بعدهم . وتطور الأمر بأن أصبح ذلك الأمر ورأى ينتقل من الشخص إلى ولده ثم إلى حفيده بلا قيد ولا شرط . فكان الزارع ملزماً للأرض لا ينتقل منها إلى غيرها ولا يخرجه المالك .

فقد كانوا مزارعين أحرارا من صميم أفراد الشعب
يكونوا خاضعين الا لأداء الضرائب أو الايجارات المقررة .
أنهم كانوا يمتلكون الأراضي المجاورة لضفاف النيل و-
الترع . وقد أتاح لهم موقع أرضهم الاستفادة بفترة أطول ل-
الزراعى وذلك أنه كان فى استطاعتهم استغلالها فى كل حين
بلغت حالة فيضان النيل من الانخفاض .

أما الطوائف الأخرى التى ورد ذكرها فى كتب مؤ-
الاعريق فهم رعاة الأغنام ورعاة الخنازير والصيدون واله-
المهرة والتجار وربانسة السفن . ولم يكن أحد من هؤلاء
أرضا زراعية . وكانت الطوائف الثلاث الأولى وهم رعاة
وزعاة الخنازير والصيدون تقتصر أعمالهم على مجرد التثاق-
الأراضى القاحلة الخالية من السكان طلبا للكلا سبائمتهم .

وقد استقينا هذه الحقائق عن طبقات الشعب المصرى

منها أبدا . فأصبح بذلك تابعا للأرض . ولأدلى على شدة ارتباط
بالأرض فى ذلك العهد من أن الكلمة الهيروغليفية الدالة على الضمة (رد
نفس الكلمة التى تطلق على الزراع . ولكن ليس فى هذا كله ما يدل على
الاسترقاق . فلم تكن للمالك ولاية على شخص الأجير أو الزارع . ولم تكن
بينهما علاقة السيد بالمسود بل علاقة التابع بالنبوع . وعلى ذلك أصبح
الزراع نصف أحرار .

وفى عهد الدولة الحديثة اضمحل هذا النظام وتحرر العمال الزراعي-
نظام النبعية . ولكن عادت الحال فى العصر المتأخر الى ما كانت عليه فى
الوسطى مع فارق واحد هو أن الاقطاعيين الاسياد أصبحوا من الكهنة وا-
المرتقة بدلا من أمراء الاقاليم .

من المؤرخين المتأخرين (١) ولكتنا غرنا على نص مصرى فى مدينة
أسيوط يرجع الى بداية الأسرة الثانية عشرة يذكر شيئا عن نظام
هذه الطبقات يختلف عما ذكره هؤلاء المؤرخون . قيبدأ النص بذكر
الملك وموظفيه ، ثم يذكر طبقتين فقط . يسمى احدهما « الرجل
الصغير » وفلاحيه أو أجراءه (العبيد) أما الرجل الصغير فيقصد
به طبقة صغار الملاك من المزارعين وهم الذين يمتلكون مساحات
كافية من الأراضى تمكنهم من التبرع بهبات عقارية للمعابد على حين
تمثل طبقة الفلاحين أحط طبقات المجتمع ، ولا يملك أفرادها شيئا
وهى تعادل الطبقة الثالثة التى يشير اليها المؤرخون . هذا ولم يذكر
هذا النص شيئا عن طبقة رجال الدين أو الجيش ولعل السبب فى
ذلك أن رجال الجيش فى العصر الذى دون فيه هذا النص
(عصر الأسرة ١٢) لم يكونوا قد أصبحوا طبقة منفصلة ، نظرا لأن
الملوك كانوا يعتمدون فى حروبهم على تعبئة أفراد الشعب (٢) ثم
يسرحونهم بعد انتهاء القتال فيعودون الى حرفهم الأصلية .

(١) المقصود بالكتاب المتأخرين هنا كتاب الاغريق والرومان ويعرفون ايضا
بالمؤرخين الكلاسيكيين .

(٢) كانت مهنة الجندي من المهن غير المرغوب فيها فى عهد الدولتين القديمة
والوسطى . دليل ذلك وثيقة من ذلك العهد كتبها أحد الحكماء يوصى ابنه
بالانخراط فى وظيفة الكتابة والبدء عن مهنة الجندية والسبب فى ذلك يرجع الى
عدم وجود جيش موحد ثابت ولكن فى عهد الدولة الحديثة تغير الحال بعد أن
أصبح لمصر إمبراطورية واسعة لا أصبح لمهنة الجندية المكان الأول بين وظائف
الدولة ، وأخذت الفراعنة على جنودهم وضباطهم الرتب والنياشين والافطاعيات .
فسار الجيش طبقة منفصلة بين طبقات الشعب .

السيد الكبير فى القرية

ويظهر أن النظام الأساسى للمجتمع فى الدولة فى العصور
الغابرة قد استمر كما هو دون تبديل أو تغيير (١) . فكان السيد
الكبير فى القرية يمتلك ما بين المائة والألف فدان وكان قصره
مركز النشاط الاقتصادى والاجتماعى للقرية . وكان خدمه
وحاشيته يؤدون وظائف رجال الشرطة ويقبضون على المستضعفين
من المذنبين ويسوقونهم قسرا فى المساء للمثول بين يدى ذلك السيد
الأمر التامى . فكان يستمع الى شكايات المعتدى عليهم ودفاع
المتهمين ثم يوقع الغرامات المناسبة . وقد يتقدم الحاضرون يلتمسون
استعمال الرأفة ويؤكدون عدم قدرة المحكوم عليهم على أداء
الغرامات المطلوبة منهم . وهنا قد يعبد السيد الكبير النظر فيها
فينقصها ويفسخ بعض الوقت أمام المخالفين لتدبير الغرامات المقررة
عليهم .

وقد كان قصر السيد الكبير بمثابة منتدى يقصده الأصدقاء
والخلائق يشدون فيه الاستجمام والمتعة فى كل وقت من الأوقات .
فكنت تراهم مابين متجول فى رحابه الفسيحة أو جالس على أرائكه

(١) يقصد المؤلف بهذا كبار الملاك وكان كثير منهم حتى ما قبل ثورة سنة
١٩٥٢ يشغلون منصب العمدة . ويلاحظ أن كتاب المؤلف يرجع الى عام ١٩٢٢
قد أعيد طبعه سنة ١٩٢٢ .

الممدودة يتسامرون ويحتسون كؤوس النيز بين الفينة والفينة ،
ثم يستأنفون حياة اللهو والتسلية ، وسواء أكان سيد القصر غائبا
عنه أم مشغولا بأموره الخاصة فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئا بالنسبة
لهؤلاء السادة .

وان على السيد الكبير بعض التبعات تجاه السلطات الحاكمة .
فقد كان يبلغ عن الجنايات الخطيرة ، ويحتفظ بسجل فيه أسماء
المواليد من الذكور لاستدعائهم للتجنيد وقت الحاجة . وكان عليه
أن يتأكد من أن مسجل الأراضى ومسجل الايجارات يؤديان
واجباتهما وأنهما يعملان على حفظ الأمن والنظام عامة وعلى تحقيق
مآربه الشخصية بوجه خاص . ولقد كانت الفرص له مواتية فإذا
كان قضا غليظ القلب أسيراً لحمقه ونزقه أرهق الأهليين بظلمه
وابتزاز أموالهم ، وإذا كان حصيفا طيب القلب رفيقا بالناس استفاد
من التذبذب الطيمى للأسعار طول العام ، اذ يبيع الفلاح عادة
محصوله بثمان بخس عقب الحصاد مباشرة ، ويستطيع ذلك الحازم
الحصيف أن يشتري فائض منطقة من المناطق ويخترنها . ومع ذلك
ينظر اليه الناس نظرتهم الى المحسن المنقذ من الكرب والضيق .

ومن أقوال بعضهم :

ولقد قدمت الحبز لكل جائع وكسوت العارى . ولم اغتصب

شيئا من ملك الغير • ولم أنطق الا بالحق ولم أتحدث الا بالخير
ولم أبرو الا صدقا وما خشي انسان على نفسه في منطقتي ممن هو
أقوى منه حولا أو أعز نفرا (١) • وقد يقول كثير من الأغنياء الآن
في طول البلاد وعرضها هذه الأقوال وأمثالها كما كان يقول
أضرابهم منذ نحو خمسين قرنا •

وللمحافظة على هذا المستوى الرفيع من العدل والانصاف
فلابد من سيطرة يقظة نشيطة كان يقوم بها حاكم الاقليم في الماضي
ويقوم بها المدير في الوقت الحاضر وبدون ذلك يصبح ما ذكر
من بر واحسان استثناء لا قاعدة • فالجيش واغتصاب الأملاك وابتزاز
الأموال كانت الأمور الشائعة في كل العصور •

ان الاستقامة أصبحت منبوذة والظلم يضرب أطنابه في
المجلس (Council) (٢) • ان القوم جميعا يسلكون طريق
الخطايا والذنوب • ولم يعد للاجترام المتبادل بين الناس من أثر في
الحياة • بل ولم يبق للرجل الفقير من حول يدفع به عن نفسه ظلم
من هم أقوى منه بأسا • وان من ينتقد قولا يفقد صديقا ويكسب

(١) ردد ذلك القول أمراء الاقطاع في أواخر الدولة القديسة وفي الدولة
الوسطى من باب المباهاة والتفاخر ووجدت هذه العبارات منقوشة على مقابرهم
في أسوان وبنى حسن (بالقرب من المنيا) •

(٢) كان في عاصمة كل مقاطعة مجلس Council يسيبه المصريون
(ازارات) موكل اليه الأمور القضائية •

عدوا لأن القلوب أصبحت لا تقبل الصدق (١) (B.D.R.) وهذا ما كان يحدث فى مصر حتى عهد قريب (٢) .

ومن البت أن تحمل كبار الملاك فى القرى تبعة ذلك العيب وذلك أنه لو أتيح للفلاح العادى فرصة الاستحواذ على النفوذ والقوة والسيطرة لعامل الناس نفس المعاملة . ولهذا فإن الأمر يستوجب هيمنة قوية من جانب الحكومة على شئون البلاد كى يتحقق الأمن وتزدهر أحوال الشعب وهذا ما حدث فى عهود « خوفو » و « أمنحات » و « أمنحتب » .

طائفة الموظفين

وقد تعددت ألقاب الموظفين بدرجة عجيبة فى عهد الدولة

(١) ردد هذه التأملات الحريئة الكاهن « خع - خبز - رغ - سنب » الذى كان كامنا لاله الشمس فى مدينة هليوبوليس فى عهد الملك سنوسرت الثانى زمن الأسرة الغانة عشرة . وقد ظلت هذه التأملات ترد لمدة أربعمئة عام حين دورها لحد الكتبة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة على لوح يوجد الآن بالمتحف البريطانى . ولعل هذا الراى لا يعبر عن الواقع لأن مصر فى ذلك العصر كانت فى ازهى عصورها . ولعله يعبر عن رأى متزمت .

(٢) لقد تغير كل ذلك الآن بعد ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ فتلاشت طبقة كهنة الملاك الاقطاعيين التى يتحدث عنها المؤلف . وأصبح كل مواطن يشعر بمسئوليته وكيانه فى المجتمع . وربطت القومية بين جميع المواطنين برباط متين ، ولذلك لم يعد الخوف من السلطة الحاكمة هو الوازع الوحيد بل هناك دوافع أخرى نابعة من النفوس .

القديمة • حتى أنه كان من النادر العثور على مقبرة دون مشاهدة صفوف طويلة من ألقاب أصحابها مدونة على جدرانها (١) وقد اتسع نطاق هذه الظاهرة الغريبة حتى بلغت ذروتها في عهد الأسرة

(١) يرجع تعدد الألقاب الموطعين في مصر القديمة الى عدة أسباب منها :

(أ) كان الموظعون شديدي الولع بالألقاب • وكانوا ينشئون لقبا خاصا لكل عمل من أعمالهم القصائية أو الادارية • فإذا لزم مثلا أن يتغلوا الأوامر الملكية الى منطقتهم لقبوا أنفسهم «المستشار للأوامر الملكية» • وعندما كانت واجباتهم تقتضيهم أن يديروا الأشغال العامة كانوا يسمون أنفسهم « المشرفون على أشغال الملك » و « المشرفون على المهام الملكية » فإذا جمعوا ضرائب الملل والماشية في دوايرهم الادارية أو أشرفوا على الجيش الاقليمي حملوا لقب « المشرف على بيوت الصحة والتموين » أو « المشرف على ديوان الأسلحة » •

فإذا كان لهم مكتب يضم الكتبة المتصلين بعملهم حملوا لقب « المشرف على الكتبة » •

(ب) كان هؤلاء الموظعون يكتبون ألقابهم الصغيرة الى جانب الألقاب الكبيرة • ولذلك يجد الانسان في قائمة الألقاب الموظف الواحد ثابتا كبيرا بين لقب صغير جدا « كاتب المثولة » وبين الألقاب الكبيرة •

(ج) بمرور الزمن أصبح كثير من الألقاب لحرية ولاتدل على ممارسة الموظف فعلا للاختصاص الذي يخوله له اللقب • وكان الموظفون يكتبون هذه الألقاب بمجرد الشرف • ومثال ذلك لقب «المقرب من الملك» و «الثاني بعد الملك» وهكذا ...

(د) كانت الوظيفة الواحدة متعددة الاختصاص وهذا يديهي لانه في ذلك الزمن البعيد لم يكن المجتمع قد بلغ تعقيدته الحالي • ولما كان لكل ناحية اختصاص لقب ، فقد تعددت ألقاب الموظف •

(هـ) في أواخر عهد الدولة القديمة ضعف الملوك فصاروا يتصدقون الألقاب على كبار الموظفين وحكام المقاطعات بغير حساب •

السادسة • فقد دون « ايبي » على مقبرته في دير الجبراوى (١)
الألقاب الآتية :

في البروتوكول : « الأمير الوراثي » و « الذي يلي الملك في المكانة »
وفي البلاط الملكي : « حامل أختام الملك » و « المشرف على
القصر الملكي » و « المكلف بخدمة العرش » و « رئيس
الحجاب » و « المشرف على خزائن الثياب » و « كاتم السر » •
في القضاء : « رئيس القضاة » و « كاتب سجلات المعاهد » •
في الدين : « رئيس المرتلين للتعاويذ والأسرار » و « الكاهن المكلف
بتقديم القرابين » و « مدير الخدمات والطقوس الدينية
و « كاهن أحد الأهرام » •

في الأقاليم : « حاكم المقاطعتين » و « المشرف على صوامع الغلال
ومناقع طيور الصيد وخزائن المال وشتون اقليم الجنوب » وهو
أيضا « حامى حمى عاصمة الجنوب وقلمتها في الكاب (٢) » •

(١) الأمير «ايبي» حاكم مقاطعة طينة (في مديرية جرجا) في الأسرة السادسة
ومقبرته في دير الجبراوى شرق النيل في مواجهة منفلوط وكان ابنا للأمير «داو»
صهر الملك «بيبي» الاول •

(٢) «الكاب» مدينة «نخب» القديمة وتوجد اطلالها شمال «أدفو» بقليل
شرق النيل . وكانت عاصمة الصعيد قبل توحيد القطرين على يد الملك «ميناء» .
وكان بها قلعة ضخمة . ولعل ذكر «ايبي» لهذا اللقب يشير الى ذكرى العهد
«الصعيد» عندما لم تكن حدود الدولة المصرية تمتد الى المدينة مما استدعى انشاء
قلعة لحمايتها من هجمات النوبيين . أما وقد امتدت املاك الدولة الى ما وراء
حدود «أسوان» فقد أصبح لقب «حامى عاصمة الجنوب وقلمتها في الكاب» من
الألقاب الشرف فقط .

وهذه الألقاب وغيرها تصل الى الأربعين منصبا كان يتقلدها رجل واحد ، وكانت كلها أو بعضها تأتي بإيراد طيب له .

لقد كان عدد الخدم الذين يحتفظ بهم كبار الملاك عظيمًا . وكانت حاشية كل أمير من أمراء « بنى حسن » (١) تنقسم الى أربع فئات : الخدم الخاصون وخدم القصر وخدم الضياع ثم الموظفون . ونذكر فيما يلي عدد رجال الحاشية والخدم لكل من الأمير « امونمحات » والأمير « حنوم حتب » على التوالى :

أولا : الخدم الخاصون :

كتبة ٥ - ٥ وحملة أختام ٢ - ٤ وناقل أخبار - ورئيس خدم وخادم شخصى وخادم لنشر الحصار أمام الأمير ونديم ووصيفة وأتباع ٤ - ١ .

ثانيا : خدم البيت :

مشرفون على الجناح الخاص لصاحب القصر ١ - ٢ ومدير للمستودعات والمخازن وأمناء للقصر ٣ - ٥ وكتبة للتأمين والمبادلة ٢ - ١ وكاتب لشئون الأغذية وأمين للمطبخ وأمين لأشياء أخرى ومستوردون لحاجات القصر ١ - ٣ وساقى

(١) « بنى حسن » قرية فى مديرية المنيا بها مقابر صغيرة لحكام هذا الأقليم فى عهد الدولة الوسطى أهمهم «امونمحات» و «حنوم حوتيب» وكان هؤلاء الحكام يمثلون الطبقة الاقطاعية فى البلاد اذ كانوا شبه مستقلين فى أقاليمهم .

وخبازون ٢ ومشرف على المغاسل ومشرقات على شئون
القصر ٧ - ٥ •

ثالثا : مستخدمو الضياع :

مشرفون على محاصيل الضياع ٥ - ٤ ومشرف على قطعان
الماشية ورعاة ٤ - ٤ ومشرف على كل ألف رأس من
الماشية وراعى حمر وراعى غزلان ومشرفون على مصايد
السماك ٣ - ٣ ومشرف على قطعان الماعز ٢ - ٢ ومدير
لمكاتب الضياع ومشرفون على التجارين والنساجين وبستانيون
ومشرفون على الطعام المحفوظ •

رابعا : الموظفون الرسميون المشرفون على الأعمال العامة :

حاكم القلعة وقائد عام لجيش الأمير ومسجلون حكوميون
للاشراف على تحصيل الضرائب المستحقة ٢ - ٢ ومراقبون
للسئون المنزلية ٣ - ومراقبون للخزانة ٢ - ورئيس
محكمة وقائد للمشرطة وقائد للجند ومحاسبون ٣ ومشرفون
على شئون المقاطعة ٣ ومشرفون على شئون الصحراء ٢
ومشرفون على الترع ومشرف على الصيادين • لأن الأمير
« خنوم حتب » كان صيادا ماهرا وكثيرا ماجاب أطراف
الصحراء طلبا للصيد والقنص بالشباك •

ولعل هذه القائمة تعطينا فكرة عن ذلك الجهاز الضخم من الموظفين والخدم الذين كانوا يساعدون الأمير في الخدمات العامة أو يقومون بخدمته الخاصة . وعلى الرغم من أنه لا يرد ذكر لتلك الوظائف جميعا في المقبرتين فليس ضروريا أن نستنتج من ذلك أنها غير موجودة في أحدهما لعدم ذكرها فيها .

ان كثرة عدد حملته الأختام انما يرجع الى أن الايرادات والضرائب كانت ترد في مفادير صغيرة وكانت عينية . ولم تكن تدفع نقدا دفعة واحدة . ومن ثم كانت الصكوك المختومة تسلم الى أربابها طوال اليوم في مقابل الغلات الواردة أو المنصرفة .

الحياة في المدن

واذا انتقلنا لدراسة المناصب الادارية الأقل درجة (من درجة أمير مقاطعه) فانه يروى أنه كان في كل مدينة من المدن (مفسر للقانون) . ولم يكن يشغل وظيفة القاضي بمعناها المعروف لنا الآن ولكنه كان حاكما ينظم أمور المدينة طبقا للقانون ويشرف على امداد المدينة بكل ما تحتاج اليه وكان موضع احترام القوم واجلالهم . وكان يرتدى الزى الرسمي القرمزي . ويليه في الأهمية الكاتب أو « مسجل الوثائق الرسمية » ثم « قاضي القضاة » ثم « قائد عسس الليل » . وعلى الرغم من أن استرابون قد ذكر كل هذه الوظائف فانه يبدو أنها من بقايا نظم قديمة . وكان يحرم تحريما باتا على أهل

المدن من الصناعات الماهرة تغيير حرفتهم • فقد أخذ القوم بالنظرية القائلة : ان خير سبيل لبلوغ غاية الكفاية هو التفرغ لمهنة يرثها الانسان أباً عن جد ، بيد أن وراء الأخذ بتلك النظرية كان يكمن دافع آخر بأن هؤلاء الصناع ينبغي ألا يتدخلوا في الشؤون المدنية العامة • وهذه الحقيقة أيضاً وإن كانت قد عرفت أيام « اسنرابون » فمن الواضح أنها تمثل نظاماً كان معمولاً به في العصور السابقة بغية ابقاء السلطة السياسية في أيدي الموظفين دون سواهم • وإن ذلك يوائم الفكرة القديمة ألا وهي احتقار أهل الريف الأمر الذي اتخذه الفنانون في تلك العصور مادة للسخرية في الرسوم الهزلية التي تتجلى على القبور • وإلى عهد قريب كانت طبقة الموظفين حتى أصغر كاتب ترمى في الفلاح لقمة سائغة سهلة الازدراء ، وأن لا جناح عليهم أن يوقعوا عليه كل حيف أو أذى « لأنه مجرد فلاح (١) » • ومع أنه كان هناك طائفة كبيرة العدد من المزارعين الأحرار ، إلا أن الأعمال التي كانت تتطلب مهارة وحنفاً كان قد تخصص فيها صناع مدربون في دوائر النبلاء • ولم يكن في البلاد طبقة متوسطة كبيرة العدد حتى ينشط الطلب والاقبال على السلع والحاجات • وكان النيل وآل بيته يسدون حاجتهم ويحصلون على الأشغال الفنية من مقاطعته • أما الفلاح فلم يك يشتري كما هو الحال اليوم إلا الضروري من الحاجات ولم يكن في البلاد طبقة من

(١) أصبح كل ذلك في ذمة الساريخ بعد ان ردت ثورة ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ للفلاح اعتباراً وكرامته •

التجار الأثرياء لأن تجارة البلاد الداخلية كانت في تلك العصور ضئيلة ، أما التجارة الخارجية فمن المحتمل أنها كانت في آيد أجنبية ، ولذلك كانت فرص النجاح محدودة في وجه الصانع الماهر الذي يبغي الاشتغال بالأعمال الحرة . ولم تكن طبقة الموظفين كبيرة العدد في الأزمنة الأولى الى أن كان عصر الدولة الحديثة حين قامت حكومة مركزية قوية يسيرها عدد ضخم من الموظفين يكون طبقة متوسطة ذات قوة شرائية ذات بال . ونلمح هذا في حجم بيوت مدينة كاهون (١) في الأسرة الثانية عشرة فقد كان فيها ثلاثمائة وخمسين منزلا للعمال وصغار الموظفين يتراوح عدد غرف كل منزل منها ٤ و ٧ غرف وكانت تلك المنازل صغيرة المساحة في صفوف متراصة مزدحمة . والى جوارها نجد اثني عشر دارا عظيمة يحتوى كل منها على حوالى ستين غرفة فوق ما بها من أبهاء فسيحة ذات عمد عالية . والحق أنك لاتجد في تلك المدينة شيئا وسطا بين ثراء عريض وفقير مدقع . ثم يمر الزمن واذا بنا في عهد الأسرة الثامنة عشرة حيث كان المسكن العادى في مدينة « العمارنة » يتألف من منزل مستقل مكون من اثني عشرة غرفة متوسطة الحجم ويحيط بها فناء فسيح . فالفرق بين مساكن المواطنين العاديين من أفراد الشعب ومساكن الأثرياء المترفين في عهد

(١) « كاهون » كلمة سرقها فلندرز بترى عن اللفظ « كالاخون » وهي بقعة لثرية بالقرب من الفيوم أجرى بها بترى عدة حفائر هامة وقد اخذ المؤرخون الاحانب منه هذه الكلمة واستخدموها في كتبهم .

كل من الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة يشبه الى حد كبير الفرق بين المنازل الفقيرة في حي مصر القديمة بالقاهرة والفيلات الجميلة في ضاحية المعادي • ومن هذا يتبين أن طبقه الصناع الفنيين قد أخذ يظهر لها كيان مستقل • وان سار هذا التغير سيرا بطيئاً، وجاء في وقت متأخر نوعاً بالنسبة لتطور المجتمع المصري • على أن هذه الطبقة رغم هذا لم يكن لها نفوذ في الحياة السياسية في البلاد كما كان للموظفين والكتبة • وقد وجد في المجتمع المصري منذ أقدم العصور طائفة من التجار الأحرار ، غير أن عددهم كان قليلاً وبلغوا من القلة حداً لم يستطعوا معه أن ينعموا بنفوذ يذكر في شئون الدولة •

والظاهر أن الطبقات الدنيا من العمال غير الفنيين كانوا يعملون جماعات • اذ أننا نجد في عدة حالات النظام الذي كان يقضى بأن كل عشرة لهم رئيس من أنفسهم • وكانت تلك النسبة معمولاً بها بين عمال مناجم سينا •

وقد وجدنا بين تماثيل المجنات (الأوشابتي (١)) أن كل

(١) كلمة مصرية قديمة معناها «المجنات» أو التي «تجيب على النداء» أطلقها المصريون القدماء على تماثيل صغيرة من الخشب أو القاشاني على هيئة المومياء كانت توضع في قبر الميت • وقد كثر من هذه التماثيل بدرجة عظيمة في الدولة الحديثة حتى بلغت الآلاف في مقبرة واحدة • وهي تدل على مدى الترف والذلة التي سادت في مصر أيام ذلك العصر • ذلك أن المصري كان يتصور الجنة وان كل من يدخل الجنة مهما علت مرتبته فسوف يعمل في الحقول الأخروية • وليس من شك أن هذا التخيل يرجع الى العصور المبكرة من التاريخ الفرعوني عندما كانت جمهرة الشعب من الفلاحين ، ولكن في الدولة =

عشرة تماثيل عادية لها رئيس يلبس مثزرا أو عباءة • وكان رؤساء العمال يستطيعون جلب مئات منهم للعمل في المشروعات الكبيرة •

الأشغال العامة

وكانت هذه الطريقة هي السائدة في جمع عمال المعادن وعمال المقابر • وان تسخير العمال في المشروعات العامة وهو ما يسمى « بالسخرة » كان دائما ظاهرة مألوفة لتنفيذ المشروعات • فقد كان الفيضان يغمر الأرض ويحيط بالقرى فلا يجد الفلاحون عملا يعملونه • وفي الوقت ذاته كان يهدد الجسور الرئيسية بالانهيار وهي الجسور التي كانت تتوقف على سلامتها حياة البلاد • وقد استوجب الصالح العام تسخير العمال للمحافظة على منشآت الري والجسور وزد على ذلك فان هناك فترة في أوائل الصيف بعد جني المحاصيل من الأرض حوالى شهر ابريل • وهذه الفترة التي تصل الى ثلاثة أشهر (مايو ويونيه ويولية) قبل حلول الفيضان لا يجد العمال الزراعيون في أثنائها أى عمل فى معظم الحقول الزراعية •

= الحديث أصبحت الفكرة عن الجنة بهذه الصورة لا تلائم العصر • فالعصريون قد استنتكفوا أن يؤدوا هذه الاعمال الشاقة فوضعوا فى مقابرهم تماثيل بفاس تكون بديلا عنهم تقوم بالعمل الذى سيكلفون به • وذودوا كل تمثال بفاس ورنبيل • وكتبوا عليه العبارة الآتية «أيها الأوشابتي» اذا نودى عليك فى الآخرة للقيام بعمل فى الحقول بدلا منى فلتقل عندئذ هاندا •

وخلال تلك الفترة تجف الترع والقنوات ولذلك يسخر العمال في هذه الفترة أيضا لتطهير الترع وتعميقها • وإذا فقدت كانت الأعمال الرئيسية الخاصة بشئون الري في البلاد تتطلب العمل فيها في وقت لا يقوم خلاله الفلاح بأي عمل • وبذلك أصبح تشغيل الفلاحين في الخدمة الاجبارية أمرا طبعيا • والعمل في الجسور والسدود يتطلب تنظيما دقيقا • فمثلا اذا تسرع المزارعون المشتركون في أحد الأحواض الى فتح الجسور في غير الأوقات المناسبة وغمر الحوض بالماء دون تنظيم دقيق فربما ترتب على ذلك اغراق بعض القرى المجاورة ، ولهذا فقد كان وضع نظام دقيق أمرا لا بد منه في كل الحالات • ثم ان المخازن التي تودع فيها المواد المستعملة في تقوية الجسور واصلاحها تتطلب عناية خاصة • وقد شاهدت رجلا يجلد على قدميه لأنه سرق بعض الأخشاب والحبال • وبذلك عرض حياة البلاد للخطر في حالة حدوث ثغرة في أحد الجسور • هذا الى أن طوائف الفلاحين كانت تحتاج الى بعض الرعاية حتى لا يساء استعمال نظام السخرة • فقد يجبر مئات العمال على عمل قد لا يتطلب سوى عشرات قليلة منهم • فاذا انعدم الاشراف وساءت الادارة انحلت عزائم العمال ومالوا الى التسكع وربما لا يجدون ما يكفيهم من الغذاء • وكانت السخرة في العصر الروماني تقتصر على خمسة أيام في السنة •

تسخير الرقيق

وكان استخدام الأرقاء ضيق النطاق في العصور الأولى من تاريخ مصر • وهؤلاء الأرقاء غير عبيد الأرض الذين كانوا مرتبطين بالمزارع التي يعملون فيها • ولهم هناك مساكنهم الخاصة ولا يجوز التصرف فيهم بالبيع •

وفي عهد الأسرة الثانية عشرة كان من الممكن تأجير الرقيق وأسرته لأداء بعض الأعمال ، ولكن ليس هناك دليل واحد على التصرف فيهم بالبيع والشراء •

على أن الأمر كان يختلف فيما يتعلق بأسرى الحرب إذ كان قلل ملكيتهم من الأمور المقررة سواء أكان ذلك بأمر الملك أم عن طريق البيع • بيد أننا لم نعلم إطلاقاً على أي دليل على وجود أرقاء من الزوج في عهد الأسرة الثانية عشرة • أما في عهد تحتمس الثالث فلم يتعد مجموع عدد الأسرى الذين وقعوا في قبضته خلال عشرين عاماً من حروبه عشرة آلاف أسير • وهو رقم لا يسهم بمقدار يذكر في تعداد سكان مصر • ومع ذلك فقد كان هؤلاء الأسرى من الصنائع المهرة والنساء الممتازات • ولذلك صار لهم قيمة بعد تفوذ واسع على الطبقات الحاكمة في البلاد • ولقد مرت الحقبة الباقية من عصر الأسرة الثامنة عشرة بعد تحتمس الثالث دون قيام حروب كثيرة • ولهذا كان من المحتمل ألا يزيد عدد الأرقاء العاملين إلا قليلاً • مع العلم أنه من الجائز أن الأرقاء الذين جرى

بهم قبل ذلك الى البلاد من الخارج قد اندمجوا في المصريين خلال بضعة أجيال . هذا ويبدو أن رمسيس الثانى خلال حروبه المتواصلة لم يجلب معه سوى عدد قليل من الأسرى . وقد استهلت الأسرة العشرون عهدها بالحصول على عدد كبير من الأرقاء أسرهم رمسيس الثالث . وهو الذى وهب لخدمة المعابد وحدها ١١٣٤٣٣ أسيرا فى الفترة التى قضاها فى حكم البلاد . ولاشك أن الجانب الأعظم من هؤلاء الأرقاء أسرهم هذا الفرعون عندما قضى على الهجمات المسلحة التى قامت بها الشعوب المهاجرة القادمة من الغرب ومن الشام . ويحتمل أن أعدادا أخرى من هؤلاء الأسرى استخدموا فى المشروعات الحكومية أو وزعوا على رجال الجيش والموظفين . ولذلك لا نكون مبالغين اذا افترضنا أن عدد الأسرى الذين دخلوا مصر فى عهد ذلك الملك قد بلغ ربع مليون أسير . وهو ما كان يعادل ١٠٪ من عدد السكان العاملين فى البلاد بيد أن الجانب الأكبر من هؤلاء الأسرى كانوا يؤدون أعمالا غير منتجة . ولذلك وقع عبء اطعامهم على كاهل بقية سكان البلاد .

ان كافة المواد الغذائية التى كانت تقدم قرايين للمعابد فى شتى أنحاء الدولة ما كانت لتفى بسد حاجات هؤلاء الأسرى لمدة تزيد على سدس المدة التى قضاها رمسيس الثالث فى حكم البلاد . وكان هناك نوع غريب من الاسترقاق فى عهد الأسرة السادسة والعشرين وهو نظام الاسترقاق بمقتضى عقود معترف بها . فقد كان الرجل

يوافق على أن يتعاقد مع آخر على أن يكون كرقيق له مدى الحياة لقاء دين عليه أو لقاء أجر لعلاج من مرض ألم به • وكان هذا الرقيق يتسازل عن كافة ممتلكاته بل عن أطفاله حينذاك ومن سيولد له في المستقبل • وإذا كان هذا النوع من العقود قد عمل به في عهد ازدهار الحياة في مصر فالراجع أنه كان شائعا في عصور الشدة والضييق • وقد حدث في إحدى غزوات الامبراطور أغسطس ضد أثيوبيا (١) أن وقع عدد كبير من الاثيوبيين في الأسر فأحتفظ الامبراطور بألف أسير منهم ليكونوا ملكا ليمينه وبيع الباقي جهارا باعتبارهم من غنائم الحرب •

وخلاصة القول أن تجارة الرقيق في مصر لم تبلغ قط ذلك المبلغ الخطير الشائن الذي بلغته في كل من اليونان وايطاليا • وذلك لأن نظام العمال الأجراء الذي يبدو أنه كان متبعا في كافة عصور التاريخ في مصر قد جعل أصحاب الضياع الواسعة في غير حاجة الى الأرقاء • ولقد كان نظام تسخير العمال في مصر قد سار في حدود الاعتدال ، وخلا في معظم الأحوال من مظاهر الايذاء والقسوة • ولذلك لم يقف حائلا في سبيل ظهور الكفايات الممتازة بين العمال المسخرين ، ذلك الى أنه جنب البلاد الخراب الذي يجره الرق عادة •

(١) اثيوبيا هي الاسم الذي أطلقه المؤرخون القدماء وخاصة الاغريق على المنطقة الممتدة من وادي حلفا حتى الخرطوم ولا تشمل بلاد الحبشة • وكان المصريون القدماء يطلقون على اثيوبيا هذه «بلاد كوش» (انظر سليم حسن مصر القديمة جزء • (١ ص ٧٧ - ٧٨) •

تنظيم العمل

اننا نجد أوفى بيان للعمل في العصور الأولى في تلك المعلومات والبيانات التي سجلها هيرودوت (١) عن بناء الهرم الأكبر . وعلى الرغم من أنه قد مضى آلاف السنين عليها قبل تدوين هيرودوت لها ، إلا أنها تصور ظروف الحياة في تلك العهود الغابرة تصويرا صادقا الى حد يجعلنا نتق في صحة نقلها . انه يذكر أن مائة ألف من العمال كانوا يشتغلون في نقل الأحجار مدة ثلاثة أشهر متتابة . وهذا يتفق والوضع الطبيعي لامكان الاستفادة من عدد كبير من العمال زمن الفيضان وهو الوقت الذي يظل فيه هؤلاء العمال الزراعيون بلا عمل . هذا الى أن ارتفاع منسوب مياه النيل وقتئذ قد ساعد على نقل الأحجار عبر الوادى بأسره من سفح الهضبة الشرقية الى سطح الهضبة الغربية . ويستطرد هيرودوت فيقول ان هؤلاء العمال قد أمضوا عشر سنوات في انشاء الطريق

(١) هيرودوت مؤرخ يوناني زار مصر حوالي عام ٤٥٠ ق.م وألف عنها كتابا ظل أهم مرجع في تاريخها القديم حتى استطاع علماء الآثار حل رموز اللغة المصرية ومعرفة التاريخ المصرى من كتابات المصريين أنفسهم . وقد وجد ان جزءا كبيرا مما كتبه هيرودوت على جانب من الصواب . ولو أنه نقل كثيرا من المعلومات المشوهة وبإلغ فيها لاثارة اهتمام قرائه . وقد سمي هيرودوت أبا التاريخ لشهرته وذيوع صيته .

المؤدى الى الموقع الذى أختير لبناء الهرم (١) وفى تمهيد ذلك الموقع وفى حفر المر السفلى والغرفة الملحقة به • ثم كان أن أستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاما • وهذا الزمن الطويل يفيد أن طائفة من ثمانية من العمال (وهو أكبر عدد يمكن استخدامه لنقل كتلة حجر واحدة) كان فى استطاعتها نقل عشر كتل من الأحجار الضخمة من الحجر فى الهضبة الشرقية عبر النيل (٢) ثم على الطرق المرتفعة الممتدة على منحدرات الصحراء الغربية ثم رفعها الى أماكنها فى مبنى الهرم وذلك فى غضون ثلاثة شهور وكان من الممكن أن يتم ذلك متى توفرت أسباب حسن الادارة والتنظيم •

والى اليوم يمكن مشاهدة عدة طرق موازية لذلك الطريق الرئيسى الكبير ممتدة فوق الهضبة • ومن المؤكد أن تلك الطرق الفرعية كانت خلال فترة البناء غاصة بطوائف العمال وقد أخذوا يدفعون أمامهم آلاف الكتل من الصخر كل يوم خلال موسم العمل • ومما لا ريب فيه أن طائفة من البنائين المهرة قد استخدموا فى بناء الكسوة البديعة المحكمة البناء، والممرات الداخلية فى ذلك الهرم • ويمكن

(١) هذا الطريق يعرف فى علم الآثار بالطريق الموصل بين المعبدين (Causeway) لأنه بعد اتمام بناء الهرم كان يستخدم للربط بين المعبد الجنائزى الملاصق للهرم وبين معبد الوادى القريب من النيل • إذ كان لكل هرم مبدان وطريق • ويمكن مشاهدة بقايا هذا الطريق شرق الهرم الاكبر فى المسافة الممتدة الى قرية نزلة السمان •

(٢) كانت الحجارة تقطع من محاجر طره الواقعة شرق النيل وهذه الحجارة كانت تستخدم فى بناء كسوة الهرم وبعض ممراته الداخلية • أما كتلة الهرم نفسه فقد بنيت من الاحجار المقطومة من صخر الهضبة القائم عليها الهرم •

مشاهدة التكنات التي خصصت لاقامة هؤلاء البنائين الى اليوم • وهى
تسع لسكنى أربعة آلاف رجل بصفة دائمة • فاذا كان نصف هذا
العدد من البنائين قد تفرغ لانجاز عملية بناء الكسوة الخارجية كان
على كل واحد منهم أن يعد قطعة واحدة من هذه الكسوة اعدادا
دقيقا ويثبتها فى مكانها فى ثلاثة أسابيع أو أن يقوم بذلك العمل
ثلاثة رجال فى مدة أسبوع • وهذا تقدير معقول • ومن الطبيعى
أن تثبيت الكتل الحجرية الضخمة فى القاعدة قد أستغرق وقتا أطول
من ذلك بكثير • كما أن تثبيت الحجر الواحد فى المداميك الصغيرة
استغرق نصف تلك المدة • ان هذا العمل العظيم وما كان يتطلب
انجازه من جماعات ضخمة من الرجال كان لابد له من مهارة فائقة
فى التنظيم • ولولا هذا التنظيم المحكم لوجدنا هؤلاء الرجال قد
تراحموا فى فوضى واضطراب فى منطقة البناء الضيقة • وقد كتبت
تفاهات كثيرة عن مدى الظلم الفادح الذى وقع على كاهل هؤلاء
العمال وعما أذرفوا من دموع وأطلقوا من أنين • لقد كان الاشراف
على هؤلاء القوم محكما بفضل ذلك التنظيم البديع الذى يدل عليه
ذلك العمل العظيم • ولم تستعمل أية قسوة ولا شدة ولا عنف (١)

(١) هذا رأى أحد علماء الآثار الانجليز الذى تخلص الى حصد كبير من
استثماريته وشهد شهادة حق وانصاف بأن الاهرام لم تبني بالام الشعب المصرى
ودموه • وكان يحلو للمؤرخين المغرضين ان يشوهوا تاريخ مصر ويسفهاوا احلام
المصريين الاقدمين ويقللوا من قدر حضارتهم حتى يضعفوا فى المصريون الحاليين
روح الاعتزاز بعاضيتهم ويصرفوهم عن التشبه باجدادهم فيظلوا الى الابد
خاضعين خائمين •

هى اتمام ذلك العمل فقد كان كل فرد فى البلاد مكلفا بالعمل بنظام السخرة مرتين فقط طول حياته • وكان يعيش فى دعة ويسر كما لو كان فى منزله ، اذ لم يكن فى استطاعته أن يعمل شيئا خلال فترة فيضان النيل (١) •

وغاية ما هو مطلوب من كل عامل أن يجلب معه مازنته قنطاران من المواد الغذائية اللازمة لاستهلاكه الشخصى • وهو ما كان يستهلكه حتما لو ظل قابعا فى عقر داره (٢) ولاشك أنه كسب عظيم لهؤلاء القوم أن يتعلموا نظام العمل الجماعى ويتلقوا دروساً عملية فى التدريب المهنى •

(١) كان هذا الاجراء يدل على ميلخ الوعى وبعد النظر الذى تميزت به حكومة البلاد عندئذ ، ففي موسم الفيضان كان الفلاحون يظلون بلا عمل • ولا شك أن هذه البطالة كان نتيجتها ازدياد نسبة الجرائم فى البلاد • فكان جميع الفلاحين وشغل فراغهم فى بناء الاهرام خير حل لتلك المشكلة • وبذلك لم يتسبب بناء الاهرام فى تعطيل مرافق البلاد والناتج على اقتصادها ورفاهيتها كما يقول المفرضون •

(٢) يلاحظ أن واى المؤلف فى هذا الصدد يخالف آراء كثير من علماء الآثار بأن الدولة هى التى كانت تنفق على هؤلاء العمال • فقد ذكر المؤرخون القدامى أمثال « هيرودوت » و « ديودور » أن القراعة كانوا يصرفون الطعام والملبس للعمال ، وأن ما صرف لعمال الهرم الأكبر من الفجل والبصل والثوم فقط بلغ ثمنه ١٦٠٠ تالنت من الفضة (التالنت تساوى ٢٤٠ جنيها تقريبا) • ورغم أن هذا لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا نظرا لأن هؤلاء المؤرخين استمدوا هذا القول من التراجمة الذين يشك فى معلوماتهم ، فلا ريب أن القراعة من بناء الاهرام لم يعتمدوا فى تموين العمال على ما كان يجلبه هؤلاء العمال معهم فقط كما يقول المؤلف •

وهكذا توارثت الأجيال التالية المهارة التي تتطلبها الأعمال الجماعية . وقد تجلى ذلك فى قدرة المصريين فيما بعد على نقل الأثقال الهائلة كما بدا ذلك واضحا فى عهد البطالة اذ تمكن أربعة آلاف مجدف من توقيت تحريك المجاديف بدقة تامة لتسيير السفن العظيمة التى وصفها الكاتب أتنايوس (١) فى بعض مؤلفاته .

أعمال المرأة

لقد كان عمل المرأة ولاشك عند السواد الأعظم من الشعب ينحصر فى العناية بشئون المنزل واعداد الطعام ، ولكن مما يدعو الى الدهشة أن تلك الواجبات كان ينهض بها خدام من الرجال فى القصور ، وفى الأوساط الراقية . فكان الرجال فى تلك البيوت الكبيرة ينهضون بأعمال الطهى والخدمة المنزلية وتحرير المكاتبات وعزف الموسيقى . وقل أن تصادف سيدات يقمن بهذه الأعمال . بيد أنهن كن يقمن بغسل الملابس . وكان للمرأة أعمال عديدة تؤديها فى الحقول ، فهى التى كانت تنقل محاصيل الحقل فتحملها على رأسها فى سلال صغيرة بينما تحمل الدواجن فى يدها . وكانت المرأة عدا ذلك تتوجه لشراء الحاجات من الأسواق . وكانت تقوم بتذرية الحبوب عقب الحصاد . وقد وجد فى حالة واحدة أن امرأة كانت تقوم بتسيير سفينة كبيرة للبضائع على أن كل ما تقدم ذكره

(١) عالم نحوى أغريقى عاش فى مدينة «نقراطيس» فى اواخر القرن الثانى واولئل الثالث بعد الميلاد .

انما يشير الى عمل المرأة ابتداء من الأسرة الرابعة الى الأسرة السادسة ، فان الرسوم المنقوشة على الآثار والتي يرجع تاريخها الى عصر الأسرة الثانية عشر تبين أن النساء كن يقمن بالغزل والنسج والعزف على الآلات الموسيقية . أما فى الأسرة الثامنة عشرة فقد أنفرد الرجل بعملية النسج . فاذا ما كان عصر الاغريق نجد النساء طبقا لبعض الروايات يذهبن الى الأسواق ويتاجرن على حين كان يقبع الرجال فى المنازل ليقوموا بعمليات نسج الثياب (١) .

الاعمال فى الجبانات

وكانت فى مصر طائفة كبيرة العدد من الرجال لا يسهمون فى الانتاج القومى . وهم أولئك الذين يقومون بتلك الأعمال الواسعة النطاق الخاصة باعداد المقابر . وكان حفر المقابر فى الصخر يتطلب جهدا عظيما . وقد بلغ اتساع بعض حفر المقابر فى عهد الأسرة الرابعة ثمانية أقدام مربعة وعمقها ثمانين قدما (٢) . وفى بعض

(١) هذه احدى روايات المؤرخ « هيرودوت » ويجب ان تؤخذ بحرص .

(٢) كانت اغلب المقابر فى عهد الدولة القديمة تتكون من غرفة فوق سطح الارض داخل بلاء يشبه المصطبة . وكانت هذه الغرفة بمثابة « مزار » يجتمع فيه اقارب المتوفى . وفى جانب من المزار بئر عمودى منحوت فى الصخر يؤدى الى حجرة الدفن .

المقابر الأخرى كانت تنحت في وجه حف الهضبة أبهاء عظيمه
يتراوح اتساع أحدها بين ٣٠ و ٤٠ قدما (١) .

وتوجد في طيه مئات من المقابر ترجع الى عهد الأسرة ١٨
قد نحتت في جوف الصخر ثم سويت جدرانها بتغطيتها بطبقة من
الجبص نقشت عليها كثير من الصور والنقوش (٢) .

وكان يعمل بجانب عمال نحت المقابر طائفة كبيرة العدد من
الرسامين والفنانين . ولا يوجد عصر من العصور في أى جزء من
العالم صورت الحياة فيه على جدران المقابر مثلما صور عصر الدولة
القديمة على جدران مقابر سقارة (٣) . وان قبر نيل من النبلاء
يشتمل عادة على مايتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قدم مربع من النقوش
بها ما يتراوح بين مائة أو مائتين من رسوم الأشخاص ، وتتجلى
فيها الحياة والحركة وقد تطلب ذلك استخدام عدد كبير من العمال

(١) هنا الطراز من المقابر ساد في عصر الدولة الوسطى واحسن مقال له
مقابر امراء بنى حسن وكانت المقبرة تتكون من بهو كبير منحوت في الصخر به
مدخل تتصدهر أعمدة مضلعة تشبه في طرازها الطراز الدورى المعروف فى
العمارة الافريقية . ويؤدى المدخل الى بهو كبير على جدرانها رسوم ونقوش
ملونة . وفي احد جوانبه بشر يؤدى الى حجرة الدفن . ويشاهد الزائر هذه
المقابر من بعيد وهى تطل على النيل .

(٢) توجد هذه المقابر فى «القرنة» بقرب الأقصر لأمراء وأشرف الأسرة
الثامنة عشرة . وأسمها مقابر « نحت » و « منا » و « رخيمير » . وتتألف فى
مجموعها من مزار صغير منحوت فى الصخر محلى بالصور والنقوش به البئر
المؤدى الى حجرة الدفن .

(٣) أشهر هذه المقابر هى مقابر « نى » و « نتاح حنوب » .

من مختلف الكفايات ما بين قاطع الأحجار والفنان البارع • ولكن
بمرور الزمن لم يعد العمل الفني ذا أهمية كبيرة إذ غلبت الروح
التجارية على المقاولين وخاصة متعهدي الدفن فكانت عمليات
التحنيط تؤدي بلا عناية وأجسام الموتى تلف لفاً ينبىء عن عدم
اكتراث • وكانت طرق الغش عند المحنطين متعددة • كوضع
جمجمة رجل وعظمة من فخذه داخل كفن طفل محنط (حتى
يخدع مظهرها أهل الطفل) ولف التماسيح فى القش (بدلاً من
الكتان) ووضع العظام مع القطط (١) وكان عمال حفر المقابر
يكونون مستعمرات فى الجبانات وكانت لهم درجات بعضها فوق
بعض فى المرتبة والنفوذ • وكانوا يخرجون متظاهرين اذا ما أهملت
جراياتهم ويتعاركون للحصول عليها (٢) •

والى جانب هؤلاء القوم كانت توجد طوائف الكهنة الكبيرة

(١) لجأ المصريون التماساً للبركة الى تحنيط الحيوانات المقدسة ووضعها
فى منازلهم ، فكان الشخص يسلم الى المحنط جثة قطة أو تمساح ويطلب منه
تحنيطه لئى يحتفظ به فى منزله أو مقبرته • وكان يعطى المحنط أجراً على ذلك
(٢) كان أقارب المتوفى - كما هو الحال اليوم - يذهبون الى المقابر فى
المواسم والأعياد (الطلعة عندنا) ومعهم القرايين لتقديمها (رحمة) على
أرواح الموتى • ومن العجيب أن كلمة الطلعة هى ترجمة للكلمة المصرية « برت »
الى تحمل نفس المعنى • كما أن كلمة رحمة هى الأخرى ترجمة للكلمة المصرية
« حشب » • أما كلمة نور فتشير الى العقيدة المصرية القديمة بتمنى خروج
أرواح الموتى من القبر المظلم الى ضوء النهار • ولاستدعاء هذه الأرواح كانت
تقدم اليها القرايين فتخرج من ظلام القبر الى نور الشمس للتمتع بهذه
القرايين • وهكذا مازال الحاضر يتبع فى ثنايا الماضى •

الذين كانوا يقومون بأداء الطقوس الجنائزية • ولم يكن عملهم ينتهى عند دفن الميت بل كان يستمر لأعوام طوال بما يقدمونه من قرايين الى روح الميت وفقا لعقود مبرمة (١) •

كل هذا وذاك تطلب استخدام عدد كبير من السكان فى أعمال غير منتجة • وقد تسميت تلك الأعمال غير المنتجة جميعها فى زيادة أعباء الحياة على بقية أفراد المجتمع • اذ كان عليهم أن يطعموا بعرق جينهم هذا العدد الكبير من الأقواء التى لانفع منها •

تعداد السكان

ان المصادر الخاصة بعدد السكان فى مصر فى مختلف العصور قليلة ، بل نادرة • ولما كان المصريون شعبا ولودا كثير النسل فقد تضاعف عدده فى مدى الأربعين سنة الأخيرة ، ولهذا كان من المحتمل أن البلاد كانت تزدهم بالسكان بسرعة كبيرة فى العصور التى كان يسود فيها الأمن والرخاء وحسن الادارة كعصر الدولة

(١) من أهم الأمثلة على هذه العقود هى العقود العشرة التى أبرمها الأمير « حاب - حفا » حاكم أسيوط فى عهد الأسرة الثانية عشرة مع كهنة أحد المعابد فى أسيوط لتقديم القرايين والبخور فى مقبرته بعد وفاته • وأوقف على هذا العمل ضيعة بمواشيها وحدائقها • وقد نقش « حاب - حفا » هذه العقود على جدران مقبرته المحفورة فى جبل أسيوط- ويعرفها العامة هناك بأسم اسطبل منتر •

القديمة ، حين وصل عدد السكان على ماعتقد الى أقصى مداه في تاريخ مصر القديم • وفي عصر الزعامة استطاعت المناطق المخصصة للجند وكانت مساحتها تبلغ ثلث أرض البلاد أن تمد الجيش المصرى بستمائة وخمسين ألفا من الجنود الذين كانوا فى السن لللائمة للتجنيد • وهذا يشير الى أن عدد السكان فى البلاد قد تراوح بين ١٠ ، ١٢ مليوناً من الأنفس • وفى أيام « دبودورس » بعد اضمحلال نفوذ البطالة كان عدد السكان بتراوح بين ٧ و ٧ ١/٢ مليون من الأنفس طبقا لتقرير يوسف اليهودى (١) •

وفى القرن الثامن الميلادى بلغ عدد السكان حوالى عشرة ملايين وفقا لقوائم ضريبة الروموس التى أدخلها العرب فى مصر • وقد تضاد عدد السكان أيام حكم الأمراء والمماليك تضاداً كبيراً • ثم أخذت البلاد عقب ذلك تنعم باستتباب الأمن وتنفيذ كثير من مشروعات الري والصرف واستغلال الموارد الطبيعية • فكان هذا من عوامل زيادة السكان زيادة سريعة مطردة حتى انه يقدر جملتهم عام (١٩٥٩) بحوالى ٢٥ مليوناً (٢) أما جملتهم فى عام

(١) سبق ذكر وصف يوسف اليهودى •

(٢) أضفنا هذا الرقم من عندما الى نص الكتاب الاصلى (المترجمون) •

١٩٧٠ فتقدر بحوالى ٣٢ مليونا ونستطيع القول أن عدد السكان في مصر القديمة كان يتأرجح بسرعة بين ستة ملايين واثنى عشر مليونا وفقا لمدى كفاية السلطة المهيمنة على شئون البلاد • ولاشك أن الزيادة المطردة الحالية في عدد السكان سوف تظهر خطورتها فيما بعد اذا علمنا أن نسبة المواليد في البلاد ٦٠ في الألف ونسبة الوفيات ٤٠ في الألف • وهذا يعنى زيادة سنوية في عدد السكان تقدر بحوالى ٤٥٠ر٠٠٠ نسمة •

الفصل الثاني

إدارة المبلاد

الملكية المقيدة

كانت مصر القديمة تخضع دائما لنظام الحكم الملكى وكانت سلطة الملك تضمحل بين حين وآخر فتستقل المقاطعات بإدارة شئونها الداخلية ، ولكن الحكم فى كل منها كان دائما فى يد رئيس واحد . وان عدم قيام النظام الجمهورى فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى القديم رغم قيامه فى أقطار أخرى بحوض البحر المتوسط مرده على ما يظهر الى أن النظام الملكى فى مصر قد حدد القانون سلطته وحقوقه تحديدا دقيقا ولهذا فان الملك مهما ساءت أخلاقه الشخصية فانه لا يستطيع أن يأتى عملا يكسبه حقد رعيته عليه وكراهيتها له كما كان يفعل الظالمون الغاشمون من حكام الاغريق وأباطرة الرومان الذين لم يكونوا يشعرون بمسئولية ولم يقيدهم شرع أو قانون .

لقد كان الملك في مصر يعتبر جزءاً لا ينفك عن جهاز حكومي على درجة كبيرة من التنسيق والتنظيم يعرف كل فرد فيه عمل الآخرين كما يعرف اختصاصه الرسمي . وكانت أعمال الملك الرسمية تعد في نظر القوم جزءاً لا ينفك عن ذلك الجهاز ، بل ان حياة الملك الخاصة لم تكن ملكاً له وحده اذ كان عليه أن يتصرف في كل لحظة طبقاً لنظام مرسوم دون أن يجد مجالاً للتدخل والعيب كما كان يفعل أمثال « ديونيسوس » أو « كاليغولا » (١) . اتنا نقرأ عن محاكمات رسمية تجرى في البلاط لمحاكمة بعض أفراد الأسرة المالكة ، وذلك في عهد كل من الأسرة السادسة والأسرة العشرين (٢) . وكانت تلك المحاكمات تسير بدقة طبقاً للإجراءات القانونية بل وبدون حضور الملك ، فقد كان الفرعون في مصر ذا سلطة محدودة حتى في شؤنه الخاصة . ولم تبلغ سلطته على أفراد (آل) بيته ما بلغت سلطة كلوديوس أو هنري الثامن .

(١) امبراطور روماني حكم بين عامي ٣٧ - ٤١ م واشتهر بقسوته وظلمه .
(٢) محاكمات الأسرة السادسة والأسرة العشرين : في عهد كل من هاتين الأسرتين دبر رجال العاشية بمؤامرة زوجة الملك مؤامرات لقتل الفرعون الجالس على العرش . ففي عهد الأسرة السادسة دبرت زوجة الملك المدعوة « أميتس » مؤامرة لقتل زوجها « يبي » الأول ، والظاهر أن المؤامرة فشلت لأن الملك أصدر أمره بتشكيل محكمة لمحاكمتها . ولا نعرف السبب في اقبامها على هذه الجريمة ، ولكن يبدو السبب غيرتها من زواج الملك بأميرة أخرى . وفي عهد الأسرة العشرين دبرت إحدى نساء الحريم المدعوة « تي » مؤامرة لقتل الملك رمسيس الثالث والاستيلاء على السلطة لتمكين ابنها « بنتاؤرع » من اعتلاء العرش . وقد كشفت المؤامرة وأمر الملك بتشكيل محكمة لمحاكمة زوجته والتآمرين معها .

القيود انحدرت الى الملك بالوراثة

وكان الوضع السياسى للملك يتمثل فى كونه خليفة حكام الدويلات العديدة التى أزهزت فى عصر ما قبل الأسرات (١) وكان لكل منها نظمها الخاصة وحقوقها التى كانت شديدة التمسك بها . وبذلك فإن حقوقه والتزاماته آلت اليه من مختلف النظم التى كانت سائدة فى تلك الدويلات . فقد كان الملك يعتبر الوارث لعرش مملكة « هيراكونبوليس » . وكان بهذه الصفة يتخذ « الصقر » رمزا له . فإذا مات الملك عبر المصريون عن ذلك بقولهم « لقد طار الصقر الى السماء » .

وكان الملك أيضا يعتبر وريثا لحكومات كل من الكاب «نخب» التى كانت تقع على الضفة اليمنى للنيل ازاء « نخن » (٢) « وبوتو » العاصمة الشمالية فى الدلتا . وهذه السيادة المزدوجة كان يرمز لها فى شعار الملك « بالصل » و « العقاب » كما ضمهم إقليم

(١) عن هذه الدويلات راجع ص ١٦ (حاشية) .

(٢) كانت « نخن » فى الأصل عاصمة المقاطعة الثالثة فى الوجه القبلى ثم تمكن أمراؤها من توحيد مقاطعات الوجه القبلى تحت حكمهم . وجعلوا « الصقر » رمز هذه المدينة والىها علما على الوجه القبلى كله . ولذلك سماها الاغريق « هيراكونبوليس » أى مدينة الصقر الجاثم . وتوجد أطلال هذه المدينة الآن فى قرية الكوم الأحمر غرب النيل فى مواجهة أدفو . وفى المصور التالية حلت مدينة « نخب » محل « نخن » كعاصمة للمقاطعة الثالثة . فورثت عن نخن أهميتها التاريخية كعاصمة للوجه القبلى قبل اتحاد القطرين . وكان رمزها والىها « انش العقاب » . وتوجد أطلال « نخب » الآن فى قرية « الكاب » شرق النيل شمال أدفو بقليل .

« سايس » (١) تمنله « النحلة » • وقد قرن ذلك باقليم الجنوب وتمثله « البوصة » • وليس واضحا ما اذا كانت « البوصة » قد اتخذت في الأصل شعارا لعاصمة معينة • ومن المؤكد على أية حال أنها كانت ترمز دائما لاقليم الجنوب (٢) • ويبدو أن اخضاع قبيلة الاله « ست » التي كانت على جانب كبير من القوة والبأس في عهد الأسرة الثانية (٣) قد تم نهائيا أيام الأسرة الرابعة بدليل تمثيل الملك بهيئة الصقر منتصرا على الاله « ست نبتى » (٤) • وكان يرمز لذلك الحادث برسم العلامة « نوب » (٥) وفوقها يجثم الصقر

(١) كانت « سايس » إحدى المقاطعات الهامة في الدلتا وهي أقدم من « بوتو » وشعارها « النحلة » • ومكانها الآن « مالحجر » (بالقرب من كفر الزيات) • وقد اتخذ الفراعنة من النحلة (بيتى) رمزها شعارا آخر للوجه البحرى • كما اتخذوا البوصة « تسوت » شعارا للوجه القبلى • وصموا (البوصة والنحلة) في شعار واحد واحد وأصبح رمزا ولقبيا للملك بعد التوحيد (ملك الوجهين القبلى والبحرى) •

(٢) هناك رأى ينادى به العالم الفرنسى (لوريه) بأن البوصة كانت في الأصل الشارة التي تدل على اقليم مصر الوسطى من بداية بحر يوسف الى رأس الدلتا • وكانت عاصمة هذا الاقليم مدينة « هيراكليوبوليس » ومكانها الآن بلدة « أهناس » بالقرب من الفيوم •

(٣) ودليل ذلك ما ورد على آثار الملك (بر - ايپ - سن Per ib-Sen) أحد ملوك الأسرة الثانية من أنه استبدل صورة الاله (حور) بصورة الاله (ست) في اسمه •

(٤) (ست نبتى) أى الاله ست الذى ينتمى الى بلدة (نبت) • ومكانها الآن قريتا (نقادة وكفر البلاص) الواقعتان على الضفة الغربية للنيل بالقرب من (قفط) • راجع ص ١٦ (حاشية) •

(٥) « نوب » كلمة مصرية قديمة معناها الذهب ومنها اشتقت كلمة النوبة التى تطلق الآن على المنطقة الممتدة جنوب أسوان نظرا لكثرة مناجم الذهب

وآخر كسب للملك كان ما ورثه من حقوق في الأسرة الخامسة من كهان مملكة هليوبوليس العظام ومن بعدها أصبح الملك يلقب « حقا » أو حاكم « هليوبوليس القديمة » (١) . وبذلك أصبح الملك يحمل أيضا لقب حاكم (هليوبوليس) ويمثل في الشعار الملكي بصولجان كان يحفظ في المعبد (٢) . وكان من الألقاب الدينية الرفيعة التي يحملها الفرعون لقب (الكاهن الأعظم للاله

= التي كان المصريون القدماء يستغلونها في هذه المنطقة ولكن كلمة «نوب» هنا لها معنى آخر فهي ترمز الى بلدة (نوبت) مقر عبادة الاله (ست) . فيكون معنى الرمز (حور المنتصر على ست في بلدة نوبت) . ويقول بعض العلماء ان هذا التفسير يرجع لعصر البطالة ، وان المعنى الحقيقي لهذا اللقب الذي يرجع لاقدام عصور التاريخ المصري هو (حورس الذهبي) .

(١) سبق القول بأن هذه الملكة ظهرت في عصر ما قبل الاسرات (راجع ص ١٦) حاشية. وكان ملوكها يسمون «شمسحور» أى أتباع حور . وكانت مركزا لعبادة الشمس . وقد برع كهانها في علوم الفلك والرصد ، فكانوا اول من اخترع التقويم الشمسي المعروف الآن بالسنة القطية . وكان ذلك حوالي عام ٢٤٤١ ق م. وفي العصر التاريخي وخصوصا في أواخر الأسرة الرابعة زاد نفوذ كهنة الشمس بدرجة خطيرة حتى تمكنوا من اعتلاء عرش البلاد وتأسيس الأسرة الخامسة . وبنوا أهرامهم في أبي صير بالقرب من الجيزة . هذا وكلمة (هليوبوليس) يونانية معناها مدينة الشمس . وقد ترجمها العرب الى عين شمس .

(٢) فسر المؤلف في هذه السطور الألقاب التي كان الملك يحملها على هيئة رموز فكل من « الصل والعقاب وكذا التحلة والبوصة ولقب حور نبتى وحاكم هليوبوليس » وان كانت في ظاهرها تعتبر ألقابا للفرعون الا أنها في حقيقتها ترمز الى الدويلات التي تكونت منها مصر قبل توحيد القطرين ، وتدل على وراثة الملك لهذه الدويلات بما فيها من نظم وما لها من التزامات .

حورس (١) • ويشير اليه الحרטوش الذى يحوى الاسم الملكى
ويظهر هذا فى شكل قلادة حول رقبة تمثال الكاهن الأكبر « رع
سمنخ » (المحفوظ فى متحف اللوفر) •

الوظيفة الدينية للملك

ولم تكن الوظيفة الدينية للملك قاصرة على رئاسة كهنة
الالهين « حورس ورع » فحسب بل كان عليه تقديم القرابين
اليومية من أجل رعيته • وكما كان يهب النبلاء وغيرهم من كبار
الحكام المنح المختلفة من الأراضى وهم على قيد الحياة فقد كان
يمنحهم الهبات من الأرض بعد مماتهم لضمان استمرار تقديم
القرابين لأرواحهم كما ورد فى مقبرة الأمير « متن » ولهذا فان
كافة الهبات الجنائزية كانت تعد فى الواقع « قرابين ملكية » وتشير
الى ذلك صيغ الدعاء التى كانت تدون على اللوحات الجنائزية فى
كافة عصور التاريخ الفرعونى ، فكان الفرعون يحكم مركزه
الكهنوتى عائلا لرعيته فى الحياة ، كما كان سنداً لهم فى الممات •
وقد لا تكون الهبات الملكية دائما منحا من الأراضى بل ربما اشتملت
على مواد غذائية تمثل قيمة ايجارات عينية لبعض مزارع الملك ،

(١) « حورس » هو أحد آلهة مصر الرئيسيين وكان يعبد فى جهات متعددة
من القطر • وقد اعتبره كهنة هليوبوليس صورة أخرى لالههم « رع » اله
الشمس وكانوا أحيانا يوحّدون الالهين فى اله واحد أطلقوا عليه « رع حورس » •

أو قيمة ايجارات عينية للملك حق الحصول عليها • ومع ازدياد المعاملات وتعقدتها تبعا لنمو سلطان المملكة صار من المستحيل أن يتصرف الملك شخصا في كافة شئون الدولة • ولذلك نرى الملك « سنفرو » قيل نهاية عصر الأسرة الثالثة (١) يقلد نجله « نفر ماعت » منصبى « حامل الأختام الملكية » و « قاضى القضاة » • ويقلد نجله « رع حتب » منصب « الكاهن الأكبر للاله رع فى هليوبوليس » • وقد فعل الملك « خوفو » ما يشبه ذلك مع ابنه « مرى ايب » •

وظائف الملك السياسية

واذا أنتقلنا الى الوظائف السياسية للملك نجد أن أول واجب عليه بعد اعتلائه العرش منذ عهد الأسرة الأولى هو التفتيش على الحدود وتأمين سلطته ويطلق على هذه المهمة « الطواف حول الجدار » (٢) احياء لذكرى اتحاد الوجهين القبلى والبحرى • وكان

(١) السائد الآن بين علماء الآثار أن الملك « سنفرو » هو أول ملوك الأسرة الرابعة وأن « نفر ماعت » هو حفيد « سنفرو » وليس ابنه (راجع مصر القديمة ج ٢ ص ١٤) •

(٢) « الطواف حول الجدار » احتفال كان يقوم به الفرعون يوم توليته العرش • يطوف أثناءه حول مدينة « منف » عاصمة المملكة • والقصد من ذلك احياء ذكرى توحيد الوجهين القبلى والبحرى على يد الملك « مينا » الذى أسس مدينة منف وبنى حولها سورا أو جدارا • وهذا هو أحدث تفسير لهذا الاحتفال كما أثبتته الحفائر الحديثة التى أجريت فى منطقة سقارة =

الملك هو القائد الأعلى للجيش واليه شخصيا ينسب الفضل في الانتصارات التي يحرزها جيشه . ولم يكن ذلك ادعاء بل كانت حقيقة لأن الملك كان يقود جيشه بنفسه ويشترك في المعارك اشتراكا فعليا . ولدينا أمثلة على ذلك منها مساهمة الملك بشخصه في الحرب ضد اثيوبيا، (١) في عهد الأسرة الثانية عشرة وفي الصراع الميت الذي خاضه الملك « سكترع » (٢) في عهد الأسرة السابعة عشرة . ومن قيادة « تحمس » الثالث و « رمسيس » الثاني من ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بشخصيهما للجيش المصرية في المعارك الحربية الهامة وليس هناك أى دليل على أن ملوك مصر قد تخلوا عن بعض حقهم في قيادة الجيش . وكان الملك يقوم برحلات كثيرة ينفق خلالها الأشغال العامة

= وميت رميه . وهذا المصير كما يلاحظ القارىء لا يتفق مع تفسير المؤلف الذى وضع كتابه عام ١٩٢٣ .

(١) المعصود « ناثيوبيا » هنا ليست الحبشة وانما يقصد بها في كتب علماء المصولوجيا المنطقة الممتدة من الشلال الثانى الى الشلال السادس على وجه التعريب . وقد قام الملك « سو سرت » الثالث أحد ملوك الاسره الثانيه عشرة بحملات شديدة على هذه الجهاب فكان يقود الجيش بنفسه حتى استطاع تأمين حدود مصر .

(٢) هو أحد ملوك مدينة طيبة الذين بدأ الصراع بينهم وبين ملوك الهكسوس . وقد حاول « سكترع » واستمات في القتال حتى قتل في إحدى المعارك . وتوجد جمجمة هذا الملك بالمتحف المصرى وبها آثار كسور دليلا على استشهاده فداء لحرية البلاد واستقلالها .

والمناجم للوقوف على مدى أمانة الموظفين وللقضاء على المساوىء
والمظالم •

النظام اليومى للملك

وقد انفرد « ديودورس » بوصف نظام حياة الملك اليومى
وربما يكون ما أورده مشابها لنظام الحياة اليومية للملك البطالمة ،
ولكن الأرجح أن يكون وصفه مطابقا لنظام حياة ملوك الأسرة
السادسة والعشرين الذى بدوره قد يرجع فى أصله الى عهود
أقدم • لقد كانت كل ساعة من وقت الملك مخصصة لأداء واجبات
شتى والقيام بأعمال مفروضة لا أن ينغمس فى المتع والملاذات • فاذا
استيقظ فى الصباح بدأ عمله بقراءة الرسائل الواردة من
مختلف الأقاليم وربما تطلب الأمر املاء الردود عليها ، ثم يعقب
ذلك طقوس التطهير فيرتدى الزى الرسمى تزينه الأوسمه
والشارات الملكية ، استعدادا لتقديم الضحية للالهة • ولكن
قبل بدء هذه الطقوس كان يقف الكاهن الأكبر ، والملك والناس
حافين من حوله يتהל للالهة كى تمنح الملك الصحة والسعادة •
وبعد أن يمدد فضائل الملك يستنزل اللعنات والسخط على جميع
الخطايا والذنوب التى اقترفت عن جهل وارتكبت من غير قصد ،
ملقيا اللوم على الوزراء • وكان معنى ذلك توجيه نقد شديد لأعمال
الحكومة لم يكن يجروء عليه الا رجال الدين • وقد قيل ان ذلك
كان لهدى الملك الى الطريق المستقيم وارشاده اذا ضل ، وكبحه

إذا سلك جنابات الصواب • ولم تدلنا النصوص عما إذا كان الملك يقدم التضحية للآلهة بنفسه أم كان يقوم بذلك الكاهن الأكبر • على أن الثابت أن هذه المهمة كانت تعد من مهام الملك • وكان الفرعون يختبر الأحشاء (١) متلما كان ملوك آشور يفحصون الكبد • وقد أنسأرب التوراة لذلك : • وللتنبوء • • كانوا يفحصون الكبد • • (سفر حزقيال اصحاح ٢١ آية ٢١) • وإذا انتهى من تقديم القرابين من النبيذ والزيت وغيرها من سوائل التطهير المقدسة • قام الكهنة بتلاوة العظة (الخطبة) وقراءة بعض المراسيم والقوانين والنصوص التاريخية التي تناسب المقام • وكان طعام الملوك بسيطاً محدود الأصناف • وهذا يشير إلى أنه كان لهم نظام خاص في الغذاء محافظة على صحتهم وضماناً لسلامتها التي تتوقف عليها رفاهية البلاد • وهذا الاعتقاد مازال سائداً في بعض مناطق افريقية ولكن بصورة غاية في القسوة الوحشية فعندما تغفل صحة الملك وتضعف حيويته يقتل كي تتجنب البلاد انتقال ذلك الضعف والاضمحلال إليها • ولم تكن تلك العادة الوحشية بطبيعة الحال

(١) الأصل في هذا التقليد هو أن الضحايا كانت تقدم للآلهة كل صباح • وغالباً ما كانت هذه الضحايا من الثيران المسنة • وبعد ذبح الضحية كان يقطع خير أجزائها وهو الفخذ • وكان المفروض أن يقوم الملك بهذه العملية ليقدمه للآلهة • ولكن أصبح هذا العمل يقوم به الكاهن الأكبر أولاً ثم ببطور الزمن ترك هذا العمل للكهنة المختصين الذين يقومون بذبح الضحية • وصار عمل الملك ينحصر في فحص أحشاء الضحية •

متبعة في مصر القديمة اطلاقا ، لأن الملكية في مصر قد نشأت فيما يظهر عن نظام كهنوتى يعتمد على الحكمة وليس عن طريق رياسة تستند الى قوة جنمانية قاهرة (١) . وقد ورد وصف وفاة الملك في السجلات الخاصة بالأسرة الثانية عشرة (٢) . « لقد دخل الاله أفقه وصعد الملك الى السماء واقترن بقرص الشمس والتقى ظل الاله بخالقه . لقد ساد الصمت أرجاء القصر واكتنفه جو كئيب من الحزن والأسى ، وأغلقت أبوابه الكبرى وجثم رجال الحاشية على الأرض فى خشوع ، وكان الناس فى حزن صامت رهيب » ، وقد قيل بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة (٣) « ان المصريين عامة اذا مات أحد ملوكهم قاموا بنعيه فى حزن شامل ، يشقون الجيوب ويوصدون أبواب دور العبادة ويحرمون تقديم الضحايا للآلهة ، واقامة الولائم

(١) كان الفراعنة فى مصر فى بداية عهد الأسرات يحتفلون بعيد يسمى « حب سب » أى عيد الذئب لأن الملك كان يلبس جلد حيوان له ذئب . والفرض من هذا العيد تجديد شباب الملك لأن الاحتفال به كان يتم كل ثلاثين عاما من عمر الملك . وبمرور الزمن أصبح الفراعنة لا يتقبدون بشرط مرور ثلاثين عاما ، بل كثيرا ما نجد فرامنة يحتفلون بهذا العيد مرات كثيرة فى حياتهم مثل رمسيس الثانى ورمسيس الثالث ولعل هذا العيد تطور انسانى متحضر لتلك العادة البدائية التى يشير اليها المؤلف .

(٢) ورد ذلك الوصف من وفاة الملك « امنمحات الاول » فى قصة سنوحى المشهورة .

(٣) هو وصف المؤرخ « ديودورس » الذى زار مصر سنة ٥٩ ق.م. أى فى أواخر عصر البطالة . وهذا معناه انقضاء حوالى ألفى عام بينه وبين الوصف المذكور آنفا الذى يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة وليس ثلاثة آلاف عام كما ذكر المؤرخ (انظر وهيب كامل : ديودور فى مصر ٧٢) .

والحفلات ويلتزمون الخشوع اثنين وسبعون يوما (١) . ويخرج الرجال والنساء وقد خثوا التراب على رؤوسهم (٢) وأتدروا فيما يلي الصدر بلباس من التيل الرفيع في جماعات مؤلفه من مائتين او ثلاثمائة ، ويطوفون بأتحاء المدينة مرتين في اليوم ، متغنين بمدح الفقيد العظيم ومشيدين بذكره . وكانوا يمتنعون عن تناول اللحوم أو الأطعمة المطهوه على النار أو المسخنة عليها ، ويحرمون على أنفسهم تناول الأبندة وكافة الأطعمة الفاخرة ، . ويبدو أنه لم يكن هناك أى أثر للفوضى والتحلل والترخص العام عند وفاة الملك كما كان يحدث فى بعض الجهات الأخرى وهذا يتمشى مع الحقيقة النابتة وهى أن الملك خاضع للقانون وليس المصدر الأوحد للقانون والنظام ، وكانت سلطات الملك مقيدة كل التقيد ومن ذلك يستطرد ديودور قائلا « انه لم يكن ليستطيع أن يقوم بأى عمل عام أو يدين شخصا أو يعاقب آخر لمجرد نزعة شخصية ، أو بقصد التشفى والانتقام ، أو لأى دافع آخر لا يتفق وروح العدالة ، ولكنه كن مقيد التصرف فى كل حالة وفق ما تنص عليه القوانين ؛ ومن أجل ذلك رأينا الملوك وقد راعوا المساواة والعدل فى المعاملة بين رعاياهم

(١) السبب فى تحديد مدة الحداد باثنين وسبعين يوما هو الفترة اللازمة لتحنيط الجثة .

(٢) مازالت هذه العادة باقية بمصر بين الطبقات الدنيا اذ يلطخ النساء وجوههن بالنيلة عند حدوث وفاة فى أسرهن كما يخرجن ناديات فائحات ولكن تلك العادات فى طريقها الى الزوال .

فاكتسبوا من محبتهم ما يزيد كثيرا عما يكونه لأهلهم من حب ، وعلى الرغم من أن ما ذكر عن هؤلاء الملوك فى تلك المناسبة يرجع فى تاريخه الى عصر متأخر ، الا أنه يسرى على العصور السابقة أيضا كما يتبين من محاكمة احدى الملكات فى عهد الأسرة السادسة (١) . فقد تولى هذه المحاكمة أحد القضاة ثم اشترك معه فاض تان فى تحرير التقرير وقد تم هذا كله دون ان يشترك الملك فى الأمر أو يتدخل فى سير القضية وقد يكون قد أصدر الحكم النهائى فى هذه القضية وفى غيرها من القضايا الخطيرة . ولكن محاكمات المجرمين وقرارات اتهامهم كانت دائما تفسر وفقا للإجراءات القانونية .

واذن فقد كانت نظرية الحق الإلهى للملك مقيدة تقيدا كبيرا بالنسبة للملوك مصر . بيد أنه لما كان المصرى لا يعتقد أن آلهته يحيطون بكل شئ علما وأنهم ليسوا منزهين عن الزلل والخطايا فلم يكن هناك الا تناقض ضئيل بين هذه العقيدة وقبول فكرة ألوهية الملك . على أن الملك كان اذا أوتى شخصية قوية وروحا جريثه مبتكرة استطاع أن يجد لنشاطه وحيويته مجالا فسيحا . ذلك أن تنظيم أمور الدولة وانجاز المشروعات العامة والهيمنة على شئون العلاقات الخارجية كل ذلك كان يكفى ليفسح أمام الملك ميادين

(١) يشير المؤلف بذلك الى قصة الملكة « امتس » التى تأمرت على حياة زوجها « بيبى » الاول . وقد سبق الكلام عليها (راجع ص ٢٩) .

واسعة لعمل كبير . وممن أشيد بذكرهم في هذا المقام « أحسن »
الأول الذي أنشأ نصيباً تذكاريًا فخماً لجدته الملكة « تيتي شيري » (١)
وحتشيسوت التي أقامت مسلاتها الرائعة (٢) . وسيتي الأول
الذي قام بزيارة المناجم وأمر بأقامة معبد وحفر بشر في وادي
عباد (٣) بعد أن لمس مشقة العمل في تلك المناطق .

وكان عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية حقا من حقوق الملك
كذلك . بيد أن الصياغة القانونية الدقيقة لمعاهدة مصر مع الحيثيين (٤)

(١) يشير المؤلف بذلك الى حيوية الفرعون « أحسن » ونعند ميسادين
نشاطه . فضلا عن أنه قام بأعظم عمل قومي في تاريخ مصر وهو طرد الهكسوس
فان نشاطه امتد الى الأعمال السلمية .

(٢) توجد هذه المسلات في معبد « آمون » الكبير بالكرك وما زالت احدا
قائمة ويبلغ ارتفاعها حوالي ٣٠ مترا ووزنها حوالي ٣٠٠ طن .

(٣) طريق صحراوي يبدأ من وادي النيل جنوبى ادقو بعدة أميال ويخترق
الصحراء الشرقية الى جبل الزبارة على ساحل البحر الأحمر حيث مناجم
الذهب .

(٤) هي أقدم معاهدة في التاريخ أبرمها الملك رمسيس الثانى مع ملك
الحيثيين حفظا للسلام بين الدولتين بعد ان دامت الحرب مدة طويلة . واهم
بنودها ما يلى:

(أ) عدم اعتداء كل من الطرفين على أراضي الطرف الاخر وارجاع
العلاقات الودية كما كانت .

(ب) مساعدة كل طرف للآخر في حالة هجوم دولة اجنبية عليه .

(ج) التعاون في عقاب الخارجيين على طاعة الطرفين .

(د) طرد الهاربين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل من الطرفين الى
بلادهم .

وهذه المعاهدة مسجلة في معابد رمسيس الثانى بطيبة . كما عثر عليها =

توحى بأن تلك الصياغة انما هي من عمل أحد رجال القانون .
وكان تعيين كبار الموظفين من سلطة الملك . وهكذا نجد فى عهد
الأسرة السادسة أن التماسا يقدم الى الملك كى يخلع على « زاو » (١)
لقب أمير وقد تقبل الملك الالتماس وأصدر مرسوما ملكيا تحفيقا
لذلك .

وكان من أعمال الملك الهامة منح الأراضى فكثيرا ما أعلن
الملك منح ضياع للنبلاء وهبات للمعابد لصالح الكهنة ، ولقد كان
فى الامكان فى المصور المبكرة أن تمنح تلك الهبات من الأراضى
البور بعد اصلاحها بشق قنوات الرى والصرف فيها غير أن ذلك
المورد كان مآله الى النفاذ فمن أين كانت تمنح الهبات الملكية ؟ فاذا
لم يكن للتاج قدر كبير من الأراضى الزراعية فى البلاد تعذر على
الملك أن يواصل مثل تلك الهبات من أملاكه . وقد أتخذت
الهبات التى كان يمنحها الملك لأفراد أسرة ما صورة من صورتين :
فهى اما تنازل عن ملكية تلك الأراضى للأفراد فى حياتهم
بوثيقة ملكية .

= منقوشة بالخط المسماى على قالب من الطوب اللبن فى « بوغازى كوى » عاصمة
الحيشيين القديمة بآسيا الصغرى . وتوكيدا لهذه المعاهدة زار ملك الحيشيين
مصر وزوج ابنته للملك ومسيس الثانى .

(١) كان « زاو » موظفا كبيرا فى عهد الأسرة السادسة وكان يحمل القابا
كثيرة منها « الحاكم العام للعاصمة وكبير القضاة والوزير ورئيس الملابس
الملكية وحامل اختام فرعون » . والسبب فى تمتعه بهذه المراكز أنه كان صبورا
للملك « بيبى » الاول الذى تزوج من شقيقته « زاو » .

أو تنازل عن الأرض كهبات جنازية بعد مماتهم •

وكلاهما يشير الى منح الأراضي منحاً نهائياً وامتلاكها مدى الحياة • وقد لانشير المنح الملكية الى التنازل عن ملكية الأرض نفسها وإنما سير الى اعفائها من الضرائب المستحقة للتاج كما كان الحال بالنسبة للأراضي التابعة للمعابد • وذلك أن فرض الضرائب كان ناشئاً من أن للملك حقاً على ملكية تلك الأراضي باعتباره السيد المطلق على البلاد • واذن فاعفاء الأرض من الضرائب كان يعتبر من الناحية العملية أنه منحة ملكية دون أن يترتب على ذلك نقل ملكيتها من التاج •

وظيفة الوزير

كانت أعمال الوزير على أعظم جانب من الأهمية باعتباره الأداة المنفذة لكافة الشؤون الإدارية التي تدخل ضمن اختصاصات الملك باستثناء الناحية الدينية • ولدينا من حسن الحفظ بيان شامل لمهام الوزير وواجباته يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة دون على جدران مقبرة الوزير « رخميرع » (١) ورغم أن جانباً كبيراً

(١) « رخميرع » وزير مشهور عاصر الملك « تحتمس الثالث » « وأمنحتب الثاني » • وتولى بنفسه تتويج الملك الأخير • وقد ذاعت شهرته بسبب أهمية مقبرته الموجودة بالبر القريب بالاقصر ، إذ أن نقوشها ونصوصها ألقت ضوءاً على كثير من النظم السياسية والإدارية والقضائية في مصر القديمة وعلى مهام الوزير وأعماله • انظر : Newberry, The Tomb of Rekhmare.

من هذه المهام يصعب تفسيرها الا أنها تعطينا فكرة عن تلك الواجبات التي يمكن اجمالها فيما يلي :

١ - الإدارة العامة •

٢ - تعيين أربعة مفررين ومعتشين لموافاة الوزير ثلاث مرات في السنة بأحوال المقاطعات الواقعة ضمن اختصاص كل منهم ، مع تقديم الوثائق والتفتيش على القائمين بمراجعته الحسابات وضبطها •

٣ - تسلم التقارير الواردة من معشي الأقاليم وكذلك فوائم الاحصاءات النى فى حوزتهم •

٤ - النظر فى الشئون الخاصة بحدود المقاطعات وتحديد الأراضي ، والفيضان والترع ، واصدار التعليمات الخاصة بالمحصول التالى ، وقطع الأشجار وتنظيم تحصيل المتأخرات من الضرائب ، والنظر فى مظالم الحكام المحليين وحوادث السطو والسرقة فى الأقاليم والمنازعات المختلفة •

والى جانب هذا كله كان على الوزير أن ينوب عن ملكه فى اذاعه الرسائل الملكية الى شتى المقاطعات وارسال البلاغات والأوامر الملكية الى الجهات المختلفة • واصدار الأوامر لرسول الضياع الملكية • وتعيين المشرف على الرسائل فى مساحة القصر الملكى ، والاشراف على رجال الحرس الملكى ، وعلى تنظيم البعثات الملكيه •

وفى القضاء كان من سلطات الوزير ترقية القضاء وتعيين حارس المحكمة . وفى المعابد كان ينظر فى أسباب نقص إيرادات الهيئات . (فقد تكون بسبب الاختلاسات من جانب الكهنة) كما كان ينظر فى توزيع الجزية السنوية (١) عليها وكان عليه أن يفتش وفى معيته حامل الأختام على هذه الجزية وعلى الأرصفة ، وكان من واجباته أيضا تنظيم الملاحة فى نهر النيل والإشراف على سير سفن البضائع ومراقبة أعمال مرشدى السفن وموجهيها . ثم يلى ذلك وظائف أخرى عديدة . غير أن بعضها قد ضاع وبعضها الآخر يتعذر فهمه ، من ذلك السجل المنوء عنه فيما سبق . على أن هذا كله يدل على مدى اتساع اختصاص الوزير فى النواحي الإدارية . وعلى عظم اعتماد رخاء الدولة ورفاهيتها على حسن إدارته ونزاهته . لأن الوزير منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها كان هو الحاكم العام للعاصمة والقائد (« مرنوت » و « وثاتى ») وقد أصبح من الضروري نتيجة لهذا العبء الثقيل من الأعمال على كاهل الوزير تعيين وزير ثان للمجنوب ابتداء من مستهل عهد الأسرة الثامنة عشرة واتخذ مقره مدينة طيبة . على حين أختص وزير الشمال بشئون الدلتا ومصر الوسطى . . زد على ذلك أنه تقرر تعيين حاكم له

(١) كانت هذه الجزية تجبى من الأملاك المصرية فى آسيا . وكان يخص كل معبد من المعابد الكبيرة نصيب معلوم كل عام .

سلطات معائله على إقليم النوبه وأثيوبيا (١) وكان يطلق عليه الابن الملكى فى كوش (٢) •

موظفو البلاط

ولابد أن رئيس البلاط الملكى كان يتمتع بسلطان عظيم وكان يطلق عليه « حامل المروحة على يمين الملك » وكان دائما كريم المحدث عريقا فى الحسب ويختار لمهابة وشدة بأسه وفوة مراسه وكفايته الممتازة فى التوجيه والقيادة لضمان استتباب الأمن والنظام • ونظرا لما كان يتمتع به هذا الموظف الخطير الشأن من حق الاطلاع على كافة الشئون الخاصة بشخص الملك واصغاء الملك الى مشوراته والسلطة الكبيرة المخولة له فى اقضاء من يشاء من المتول بين يدي الملك • كل هذا قد جعله المتحكم غير المنازع فى مصائر الأفراد بل فى مصائر الدولة بأسرها •

ومن موظفى الخاصة الملكية الذين كان لهم حق الاتصال

(١) راجع ما ذكر من دلالة لفظ اثيوبيا ص ٢٢ حاشية •

(٢) كوش : Kush كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على اقليم التسوية العليا الممتد بين وادى حلفا حتى قرب الشلال السادس • وكانت عاصمته هى بلدة « نباتا » الواقعة شمال شرق « كورتى » على النيل النوبى وكان يحكمه نائب من قبل الفرعون يحمل لقب « ابن الملك فى كوش » ولم يكن هذا اللقب يعنى بنوة ذلك الحاكم لملك مصر ولكن كان يدل على متانة الصلة والروابط التى تربط مصر بالسودان •

المباشر بالملك « عيون الملك وآذانه » وكانوا يختصون بالمخابرات السرية . ومنهم « المبعوث الخاص الذى يطوف بأرجاء البلاد ويوافي الملك بالأخبار التى تدخل على قلبه السرور والغبطة » ثم « المعلم الذى يصل بعلمه بالملك الى حد الكمال » ثم « الكاتب الخاص لحورس الثور القوى » (١) ثم « كبير أمناء القصر الملكى » ثم « الأمناء » ثم « رئيس الحرس الملكى » ثم « الأتباع » وهم الذين يرافقون الملك فى الصيد . ثم « الدليل الذى كان يرافق الملك فى كافة رحلاته » .

وكان ضمن رجال الحاشية من ذوى المكانة « رئيس حملة أختام الملك » و « الرسول الخاص » و « كاتب المائدة الملكية » و « رئيس رسل جلالته » وكان يقوم بتنظيم بروتوكول الأسبقية وترتيبات المقابلات ثم « رئيس المسجلين الملكيين » و « المشرف على شئون الديوان » . والديوان هو الأجنحة الخاصة والغرف الداخلية بالقصر . و « ملاحظ الحقائق » وهو لقب حتى سنموت كان

(١) كان لقب « الثور الموى » يطلق على الفرعون منذ بداية عهد الامرات . وكان الفرعون فى عصر الاسرة الاولى يمثل نفسه بثور ينطح نلاع امدائه ويحطمها . ومثال ذلك الرسم المثل على لوحة الملك ميتا - ناسر - المشهورة والمحفوطة بالمتحف المصرى فى القاهرة . وقد حافظ عليه قراعنة مصر على مر العصور لانهم اعتبروه تراثا مقدسا ورثوه عن آباائهم الاولين .

يحملة • ثم رئيس المهندسين المعماريين • وهو الذى كان يوكل اليه عمل (١) تصميمات بناء الأهرام والمعابد والانراف على تنفيذها والموظفون الذين يتصلون اتصالا شخصيا بالملك هم : السكرتير الأول : (الذى فوق الأسرار) وذلك فى الدولة القديمة فقط • ثم « مسجل الأختام وحارس الأختام وكاتب التقارير وكاتب الرسائل فى القصر » ثم المادحون والعازفون على الجك (آلة موسيقية تشبه القيثارة) وهناك « حامل القوس ورئيس الأتباع والسائق الأول للعربة الملكية ورئيس المشرفين على العربات الحربية وربان يخت الملك وكاتب رسائل الملكة وأمين قصرها » •

أما هيئة موظفى القصر عدا هؤلاء فكانت تتألف من كتبة المائدة الملكية والمؤن والشون والحسابات « رئيس الحسابات الحاذق » أو رئيس الحسابات اليومية وكاتب القصر وبيت المال وكتبة حسابات الفضة والذهب وكتبة حسابات المفتشين الملكيين لبيت المال • وكذلك مسجلى المكاتبات المقدسة الخاصة بالملك • ثم المترجم الأول للملك والصائغ • وصانع التحف البديعة ، ورئيس الاسطبل والمتولى

(١) كان « سموت » وذكيرا للملكة « حتشبسوت » وكبيراً لمهندسيها . وقد شيد لها ما تركه من روائع المعابد والمسلات فى الدير البحرى والكرنك وكان ذا حظوة ومنزلة عند الملكة . وقد اختلفت أخباره بعد وفاتها . ويرجع بعض العلماء أنه ذهب ضحية انتقام الملك « تحتمس » الثالث الذى تولى الملك بعدها . وكان فى حياتها معجوباً بشخصية هذه الملكة الفذة وشير المؤلف هنا الى أن سموت هذا رقم مركزه الرقيق كان يحمل هذا اللقب البسيط وهو « ملاحظ الحقائق » راجع التطبيق فى ص ١٧ بخصوص الالقاب .

شئون الحيل والمشرف على اطعام الكلاب ، وصانع النعال ، وطاهى
قصر الملكة ، ثم رسل القصر الملكى .

وكان قاضى القضاة اهم رجل فى الدولة بعد الوزير عندما
كانت تنفصل الوظيفتان . وكان يحمل لقب قاضى (ساب) محكمه
العدل (زادو) . وليس واضحا ما اذا كان لفظ « ثانى » Thati
يعنى رئيسا على الاطلاق أم رئيسا فى القضاء فحسب . فقد مثل
« رخميرع » يجلس فى محكمة العدل مع هيئة الرومساء لا لينظر
فى القضايا فحسب بل لينسلم الجزية أيضا . وورد فى انص
المجاور للرسم لقيين له هما « ساب امرى نخن » و « ثاتى امرى
نخن » فاذا لم يكن اللفب الأخير يحوى لقيين منفصلين فان « ثاتى »
ترادف « ساب » .

القضاة

وكانت محكمة الجنوب تتألف من مجلس السلاطين ويقوم
أعضاؤه باختيار رئيس المحكمة من بينهم . وكانوا يلقبون بالقضاة
العظام (أور) . أما فى الشمال فكان مجلس القضاء يتألف من
ست دوائر تعقد فى « أثيت تاوى » (١) برئاسة الوزير . وكانت

(١) مدينة أنشأها الملك « امنحات الاول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة
لكى تكون عاصمة للملكه ومعنى اسمها (القابضة على الوجهين) . وأصلها الآن
فى قرية اللشت فى الطريق الى اليوم .

اجراءات المحاكمة تتضمن أن يتقدم المدعى بمذكرة مكتوبة الى المحكمة . ثم يتقدم المدعى عليه بتحرير رد على هذه المذكرة . وكان يصرح لكل من الطرفين بعد ذلك بتقديم رد آخر كتابة على مذكرة الخصم وفي ضوء تلك المذكرات يفصل في القضية . وفي محاكم الجنوب كان يحفظ سجلات تحوى أسماء ملاك المنازل وأسماء أفراد أسرهم ومن يعولونهم . وكان يرأس المحكمة المحلية في كل مدينة أحد القضاة . وذلك في العهود الأخيرة على الأقل وربما كان في العهود الأولى أيضا حيث يرد لقب قاضى (Saib) فى مناسبات عديدة بدون اضافة ألقاب أخرى اليه . وكان يوجد عدا ذلك « مفسر القوانين » و « أمين المراسيم الملكية » وغير ذلك من ألقاب وكلها ترجع الى عهد الدولة القديمة وتدل على مدى قدم الوظائف وثباتها خلال عصور التاريخ . ومن الوظائف الصغيرة الثانوية وظيفة « مسجل حسابات المحكمة ومسجل المراجعات الملكية » .

الادارة المحلية

وكان رؤساء الحكومات المحلية يطلق عليهم «حكام المقاطعات» ثان اذا ضعف نفوذ الحكومة المركزية قويت شوكة هؤلاء الحكام وكونوا امارات المدن المستقلة . ونجدهم بعد ذلك يسجلون الأحداث الهامة مقرونة بأعوام حكمهم لا بسنى حكم الملك كما هو

العادة • ونظرا لعدم كفاية المعادن النفيسة للتداول الواسع النطاق فقد ترك الجانب الأكبر من الأموال الحكومية المقررة في يد السلطات المحلية • ونعني بذلك الضرائب الخفيفة والعوائد الكبيرة • ولم تكن هناك فط مركزية قوية • ولهذا فقد كانت الادارات المحلية مستعدة دائما للقيام بشئون الادارة غير معتمدة على السلطة المركزية • واذا كان الملك قوى الشكيمة شديد المراس تمسك بحقه في اختيار حكام المقاطعات • وحتى في هذه الحالة كان من المحتمل أن ينحصر الاختيار في نفس أسرة حاكم المقاطعة السابق ولقد حدث مرة أن أحد الحكام مالا أعداء الملك فجرد من منصبه ، وحقت عليه لعنة السماء أبد الأبدين • ولكن يبدو وفقا لما ورد بمرسوم « قفط » أنه لم ينفذ فيه حكم الاعدام • وكان يقيم في كل مقاطعة مندوب ملكي وعدد من المشرفين على أملاك التاج من ضبايع وقطعان ماشية • • وكان نسب حكام الأقاليم والمقاطعات ينتمى الى الأم ، ولذلك كان من الممكن لابنة الحاكم أن تتولى شئون المقاطعة كوصية على ولدها القاصر كما كان الشأن في مثل تلك الحال • وكثيرا ما تشاهد في الرسوم المسجلة على الآثار ملكا قاصرا تصحبه والدته • وكان حاكم المقاطعة يجمع بين هذا المنصب ووظيفة الكاهن الأكبر للمقاطعة في معظم الحالات كما كان الملك كاهن القرابين للبلاد •

وكان الحاكم يرسل مندوبين عنه في كل قسم من أقسام المقاطعة يقومون بما يقوم به الآن مأمورو المراكز • على أن هؤلاء

المأمورين كانوا يقدمون تقاريرهم الى الوزير مباشرة • وفي ذلك بعض الحد من سلطات حاكم المقاطعة •

وكان لكل مدينة محافظ (Prefect) يرعى مسئوليتها ويعمل لحيرها ورفاهيتها ويبلغ الأوامر والتعليمات لكل من يعنيه الأمر • وكان لها أيضا كاتب سجلات يحتفظ بالسجلات الخاصة بالأراضي والمعاملات • ثم قاض أول ورئيس للشرطة (العسس) • ولاشك أن وجود تلك الوظائف يرجع الى عصور قديمة جدا وان كنا لانجدها مسجلة بهذا الوصف الا في عهود لاحقة •

الحكم اللداني في الريف

وكانت ادارة شئون الأقسام الريفية يعهد بها الى بعض أعيان تلك المناطق ويسمون « سارو » (Saru) أى « الرؤساء » أو السراة (١) وكانوا بهذه الصفة يشبهون أعضاء المجالس القرويه • ولم يكن هؤلاء موظفين حكوميين • وكانوا ينظرون فى دعاوى عقود الايجارات وتقسيم الملكيات والوصايا والمبيعات • وكانوا يصدرن بعض الأوامر والتعليمات بعد التصديق عليها من « مدير الجنوب » ويقوم بتنفيذها الموظفون الحكوميون • وكان هؤلاء الأعيان

(١) أطلق عليهم هذا اللفظ الدكتور سليم حسن لشابه النطق المصرى القديم مع هذا اللفظ • (انظر مصر القديمة ج ٢ ص ٥٦) •

يقومون عدا ذلك بتنفيذ نظام السخرة وجمع الضرائب المحلية •
التي يفرضها عليهم الملك كمجموعات • ومن هذا نرى انه كانت
فى الأقاليم سلطتان متداخلتان :

١ - سلطة محلية وهى سلطة أعيان الريف وهم رؤساء
القرية أو أعضاء المجالس القروية فى الاصطلاح الحديث ومنهم
حاكم المقاطعة •

٢ - وسلطة مركزية وهى سلطة الوزير ومفتشيه فى
المراكز الذين يراقبون أحوال البلاد وينفذون القرارات المحلية •

أما فيما يتعلق بطبقه أولئك الذين كانوا ينهضون بتلك
الواجبات فالمعتقد أن الحكومة كانت تستخدم لذلك موظفين من
الطبقة المتوسطة الدنيا ازداد عددهم عاما بعد آخر حتى أصبحت
وظائفهم وراثية فى عهد الدولة الوسطى • أما فى عصر الدولة
الحديثة فقد كان صفار الموظفين من أسرات الموظفين القديمة الذين
كان يتزايد عددهم يوما فيوما • أما كبار الموظفين فكانوا يؤخذون
من النبلاء • وعلى ذلك نجد ان أفراد طبقة النبلاء من الاقطاعيين
السابقين قد أخذوا يندمجون فى سلك الوظائف الحكومية • وبذلك
أضمحلت سلطة الحكومة المحلية •

وقد شاهدت كافة عصور التاريخ البشرى ظهور عباقرة
وعظماء من بين الطبقات الدنيا لم يحل دون ظهورهم عرف

أو قانون . وكثير من عظماء المصريين الذين كتبوا تاريخ حياتهم يذهبون الى أن الناس يعتقدون أنهم ينحدرون من أصل وضع لا شيء الا لأن أسماء آبائهم لم ترد في سجل من السجلات ومن هؤلاء سنموت المشهور ، ولعل ذلك كان السبب الأول في قوة بيسان المجتمع المصري . ذلك أنه على الرغم من وجود فوارق كبيرة بين الطبقات فقد كان هناك تسلسل وتدرج يعملان دائما على امتزاج كافة الطبقات . وان مدى اتساع الأقسام الادارية في البلاد كان يختلف باختلاف كثافة السكان ، ففي أقدم عصور ما قبل التاريخ التي يمكننا تتبعها نجد أن عدد المدن التي كانت تصنع من سنابل القمح أشكالا على هيئة أوزير (١) هي أربع في الوجه القبلي وتسع في الدلتا . وفي عصر المملكة الأولى بلغ عدد المدن التي صارت مقدسة لوجود مخلوقات من آثار الاله الشهيد أوزيريس (٢) بها ، سبعا في الوجه القبلي وعشرا في الوجه البحري . وفي عصر الدولة القديمة كان عددها ثلاث عشرة بالوجه القبلي واثنى عشرة في الوجه البحري . وفي عصر الدولة الوسطى بلغ عدد المقاطعات اثنتين وعشرين في الوجه

(١) كانت هذه الطريقة يتبعها الرزاع المصريون في الاحتفال بالحصاد وكانوا يصبون الشكل أوزيريس هذه (اله النيل والزراعة) في وسط الحقول ويرمونه حولها ابتهاجا .

(٢) يشير المؤلف بذلك الى قصة «أوزيريس وأوزير» التي ورد فيها أن «مست» الشرير مرق جثة الاله «أوزير» اربا ووزعها على مختلف مقاطعات انظر المصري وكان المصريون القدماء يحتفظون بأعضاء «أوزيريس» المقدسة في المعبد الرئيسي لكل مقاطعة .

القبلى وتسع عشرة فى الوجه البحرى وفى عصر الدولة الحديثة
قسمت الى اثنتين وأربعين بالوجه القبلى وخمس وعشرين بالوجه
البحرى • وفى العصر الرومانى كان هناك اثنتان وعشرون مقاطعة
بالوجه القبلى وخمس وثلاثون بالوجه البحرى •

أما المديرىات الحالية (المحافظات) فيصلغ عددها سبعا فى الوجه
البحرى وسبعا فى الوجه القبلى وبهذا فقد أصبح حجم المديرىات
كبيرا كما كانت المقاطعات فى عصر المملكة الأولى (١) •

(١) كان ذلك عام ١٩٢٣ وقت تأليف الكتاب اما الآن فأصبح عدد محافظات
الوجه البحرى تسعة (بما فيها مديرية التحرير) والوجه القبلى ثمانية .

التغيرات الادارية فى العصر الاغريقى الرومانى

ولم يحدث البطالة الا تغييرات قليلة جدا فى التقسيم الادارى للبلاد . واستمر العمل بنظام الوظائف القديمة فى عهدهم ولكنهم أطلقوا عليها أسماء اغريقية . وكان أبرز تغيير فى عهد الرومان اختفاء منصب الملك ، على حين أن الحكام المؤقتين لم يكن يعينهم أمر البلاد أو يهتمهم رفاهيتها ولم تتوفر فيهم الكفاية الشخصية التى تمكنهم من الاضطلاع بالمهام الكثيرة التى كان يضطلع بها ملوك مصر فى العهود السابقة . ولم تكن مصر فى نظر الرومان احدى ولايات الامبراطورية وانما كانت تعد ملكا خاصا للامبراطور . فكان يفرض عليها ما يشاء من الضرائب ويعامل أهلها وفقا لنزواته الشخصية . وكان الحاكم الرومانى للبلاد يمثل الامبراطور شخصيا . وكان خاتمه الذهبى يحمل « الخرطوش » المزدوج الخاص

بالامبراطور (١) وعلى ذلك فقد كانت كل وثيقة تمهر بذلك الخاتم تأخذ صفة المرسوم الامبراطورى . . ولا يخفى علينا تلك المساوىء والشروء التى تولت بسبب غياب الأباطرة عنها . ولم يزرها منهم الا الامبراطور « قسباسيان » والامبراطور « هادريان » . وقد مكث كل منهما فيها بضعة أشهر . أما الامبراطور « أغسطس » فقد حضر اليها فاتحا . وجاء كل من « ماركوس أوريليوس » و « وكراكال » (السفاح) لاختام الثورات وسفك الدماء .

وكان تدخل الأباطرة « أوريليان وديوس ودولد يانوس (٢) فى شئون مصر لمدة قصيرة . وقد انحصر تفكير امبراطور الروم فى مدى ما يستطيع الحصول عليه من انتاجها من الغلات للماء بطون دهماء روما ومدى ما يمكن ابتزازة من أموال المصريين لتحقيق أهوائه الشخصية .

النظيم التى وضعها الرومان لحكم مصر

والظاهر أن الحاكم الرومانى كان يقوم بجولة تفتيشيه فى البلاد مرة كل سنة . وكان فى أثناء تلك الزيارات يعمل كأحد

(١) سار أباطرة الرومان على نهج ملوك البطالة فى شجبهم بالمراعاة القديمة . وبالنسبة لأباطرة الرومان كانت هذه الأسماء بطبيعة الحال تطلق عليهم فى مصر فقط .

(٢) راجع قائمة التسلسل الزمنى التى الحضاها بهذا الكتاب .

قضاة الاستئناف • وعلى العموم فقد كان في يده من السلطات ما كان للوزير في اليهود السابقة • ويمكن القول بأنه قد خلف الوزير فعلا في منصبه • وكان يلي الحاكم في المنصب ثلاثة موظفين من الرومان يطلق عليهم مديرو الأقاليم (Epistrategoi) (١) وكانت اختصاصاتهم تشبه اختصاصات المفتشين (٢) الأربعة (المقررين) الذين كانوا يتجولون في البلاد لموافاة الوزير في العصر الفرعوني بأحوال الأقاليم التي تقع في اختصاص كل منهم • وكان هؤلاء الموظفون الثلاثة في أثناء زيارتهم لأقاليمهم يعملون كقضاة ، ويقدمون للحكومة قوائم الضرائب وكشوف الاحصاء • وقد وكل اليهم اختيار صغار الموظفين من المصريين الذين يعملون تحت اشرافهم • وكان الحاكم المحلي لكل مقاطعة من الرومان أيضا ويشغل نفس وظيفة حاكم المقاطعة المصري في العصر الفرعوني وكان يطلق عليه (Strategos) غير أن مدة حكمه كانت

(١) كانت مصر في العصر الروماني مقسمة الى ثلاثة اقاليم ادارية هي اقليم طيبة واليهنتانوميا والدلتا أو بعبارة أخرى مصر العليا ومصر الوسطى ومصر السلى • وكانت كل منهما تخضع لادارة «استراتيجوس» وهذه التسمية ترجع الى عصر البطالة • ولكن في ذلك العصر كان «الابستراتيجوس» قائدا حربيما أما في العصر الروماني فأصبحت الوظيفة مدنية • ويمكن أن تسمى مدير الاقليم ويبدو أن مديري الاقاليم الثلاثة في العصر الروماني لم يكن لهم مقر دائم كل في اقليمه بل كانوا يديرون أعمالهم من الاسكندرية ولكنهم كانوا يطوفون بأقاليمهم بانتظام •

انظر : Milne, Egypt under the Roman Rule, pp. 125-126.

(٢) راجع ص ٣٦ •

محدودة بثلاث سنوات كى لا يزداد نفوذه ويحاول الاستقلال
بشئون المقاطعة وحتى يمكن لرجال الحكومة المركزية الانشاء عن
طريق بيع مثل هذا المنصب الكبير للراغبين فيه . وكان الحكام
المحليون للمقاطعات يجمعون بينات القضايا أثناء تجولهم فى
المقاطعة ولكن لم يكن يسمح لهم أن يكونوا قضاة ، ولكن يحتمل
أنهم كانوا يقومون بدور الحكم فى كثير من المسائل التى لم تصل
بعد الى دور التقاضى رسميا . وكانوا مسئولين كحكام المقاطعات
قديمًا ومديرى المديریات عن تقدير الضرائب وتحصيلها مقابل
تقديم صكوك للممولين عن هذه الضرائب مهما قلت قيمتها ، كما
يتبين من قطع « الأستراكا (١) » التى عثر عليها . وكانوا عدا ذلك
يشرفون على نظم الرى . ولأمراء فى انهم تولوا شئون السخرة .

ان الخوف من اتساع سلطانهم وقوة نفوذهم قد حفز الحكومة
المركزية الى القاء أعباء ثقيلة على كاهل هؤلاء الحكام خلال تلك
السنوات الثلاث من ولايتهم والى التشديد عليهم بتقديم التقارير
عن أعمالهم وفحصها بفاية الدقة . وكان يقيم الى جانب كل من
هؤلاء الحكام من يتجسس على أعماله وتصرفاته فى شخص الكاتب

{١} «الأستراكا» هى قطعة مصقولة السطح قد تكون من الحجر أو الفخار
أو العاج عليها نقوش وكتابات .

أو المسجل الملكى (١) الذى يمثل الحكومة المركزية . وانا نجد منذ عهد الأسرة الثانية عشرة أن هذا المسجل الملكى الرسمى يلازم مسجل المقاطعة ليطمئن على نصيب الملك من الضرائب ، وقد أمتد العمل بهذا النظام فى العصور التالية . وكان الرومان يستخدمون أفراد عائلات حكام المقاطعات القدامى كموظفين لسمعه خبرتهم بالشئون المحلية ، وكجباة يبتزون أموال الأهلىن فى شكل رسوم وضرائب عقارية وتجارية وغيرها .

وقد أخذت حكومة الرومان بالنظام القديم لتسجيل المعاملات الخاصه وهو النظام الذى كان معمولاً به على الأقل منذ عهد الأسرة الثانية عشرة . وربما عمل به قبل ذلك بكثير . فلم يقتصر الأمر على ضرورة تسجيل كافة الوثائق الرسمية بل كان لابد من تسجيل جميع الاتفاقات التى برم بين الأشخاص حتى تصير لها الصفة القانونية وتصبح مستندا رسميا . وقد بلغت قيمة التسجيل حوالى أربع بنسات أى ثمن رطل من حديد .

وكان القائمون على شئون القرية أشبه بأعضاء المجالس القرويه ، ويتألفون من نخبة قليلة العدد من رجال القرية البارزين

(١) كانت وظيفة المسجل الملكى ولو أنها مستعلة عن وظيفه حاكم المقاطعة إلا أنها أقل منها فى المرتبة وكان المسجل الملكى ينوب عن حاكم المقاطعة فى حاله غيابيه ، ويختص بالنواحي المالية فقط ولضمان استقلاله عن حاكم المقاطعة وعدم خضوعه لسلطه فقد أوفقت بعض الضرائب عليه بالاضافة الى مرتبة . ويرجع هذه الوظيفة الى عهد البطالة .

لرعايه شئون أهل القرية • وكانوا مسئولين عن حفظ الأمن والنظام والتأكد من جمع الضرائب • والظاهر أن مجلسهم الأكبر الذى كان يسمى فى العهد الماضية • سارو Saru قد اختفى تماما ومن المحتمل جدا أن تلك المجالس قد قضت عليها الأنظمة الصارمة الدقيقة التى ابتكرها محصلو الضرائب ايام البطالة الذين كانوا لا يرغبون فى وجود مجالس بالقرى توازن بين حال قرية وأخرى وكان يختص بالأعمال الرسمية فى القرية كل من كاتب القرية الذى عليه اعداد كشوف الايرادات للحكومة ومسجل كان يقوم ب قيد الناس وكان يزود الكاتب بما يلزمه من أحصاءات ومسجل العقود والمعاملات التجارية •

وكانت قوات الشرطة (البوليس) فى البلاد مستقلة عن الهيئات المحلية كما هو الحال فى الوقت الحاضر • وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان يوجد مدير للشرطة « خوتو » يعاون حاكم المقاطعة وقد زاد العدد فى العصر الرومانى الى اثنين فى كل مقاطعة • ومن ذلك العصر كان رجال الشرطة المخصصون لكل قرية يتولون حفظ الأمن والنظام وتأديب الخارجين على القانون على حين اقتصر عمل الخفراء المحليين على أداء المسائل العادية كالقبض على المتهمين •

الامن الاغريقية التى تمتعت بالاستقلال الذاتى

وقد قام الى جانب هذا الجهاز الادارى العام نظام آخر يتضمن

وجود عدد غير قليل من المدن التي تمتع بالاستقلال الذاتي وتسكنها جاليات كبيرة العدد من الأجانب ومن المحتمل أن «نقراطيس» (١) كانت أول مدن مصر التي تمتعت بهذا النوع من الاستقلال الداخلي . لقد كانت مدينة أغريقية خالصة ، ولذلك فقد استقلت باختيار حكامها . وكانت الاسكندرية أيضا مدينة مستقلة استقلالاً ذاتياً بطبيعة الحال . فقد كان يستوطنها عدد كبير من اليهود والاغريق منذ نشأتها . وبعد أن قام ملوك البطالمة باسكان عدد كبير من جنود الاغريق في الفيوم أنشأ هؤلاء مدينة سميت «أرسنوى» (Arsinoe) (٢) وكان أغلب القائمين على شسئونها من الاغريق . أما مدينة « بطوليميس Ptolemais (٣) الواقعة في الصعيد فكان لها مجلس

(١) أسسها تجار الاغريق في منتصف القرن السابع قبل الميلاد في عهد الملك «إبسمانيك» الأول على فرع النيل الكانوبي ومكانها الحالي «كوم جيف» بجوار بلدة «نقراش» التي استعملت اسمها منها . وقد بلغ من تمتع «نقراطيس» بالسلطة الذاتية انها أصدرت عملة محلية خاصة بها في أوائل مصر البطالمة . وكانت لنقراطيس الميناء الرئيسى الواقع على الطريق النهرى بين الاسكندرية ومنف .

(٢) ذكرها المؤلف Ptolemais ولكن لما كانت هذه المدينة بعيدة عن الفيوم كما سيأتى ذكره . فمن الواضح أنه يقصد «أرسنوى» وهى المدينة التى انشئت فى الفيوم .

(٣) بطوليميس « هى ثالث مدينة أغريقية أنشئت فى مصر بعد نقراطيس والاسكندرية . وقد شيدت مكان مدينة مصرية قديمة وسميت كذلك تخليداً لذكرى منشئها بطليموس الأول ومكانها الآن قرية المنشية بمديرية جرجا .

محلى وإدارة محفوظات • ثم هناك مدينة « أنتينوى Antinoe » (١) ،
وكان لها دستور أغريقى بحت • وبحلول القرن الثالث الميلادى
تجد مدنا أخرى عديدة ذات طابع أغريقى قد اتخذت لنفسها
مجالس للأعيان تجعلها شبه مستقلة عن النظام الإدارى العام فى البلاد
مثل « اكسرينكوس Oxyrhynchos » (٢) و « هيراكليوبوليس
Heraikleopolis » (٣) •

على أن وظائف مجالس الأعيان لتلك المدن وغيرها يتبين فى
جلاء عند دراسة الاختصاصات التى يتمتع بها مجلس هيراكليوبوليس •
لقد كان ذلك المجلس يقوم بتعيين كافة الموظفين المحليين للمدينة
والإشراف على أعداد الحفلات والبث فى جميع مطالب الحكومة
المركزية وإقرار كافة المسائل المتعلقة بالتجارة المحلية • وكان يمثل
المدينة فى كافة العلاقات القائمة بينها وبين الحكومة المركزية • وأن
الأثر العام الذى يتركه هذا الحكم الذاتى فى أذهاننا هو أن كل فرد

(١) مكانها الآن قرية النسيج عباده بمديرية المنيا • أنشأها الإمبراطور
الرومانى هادريان حوالى عام ١٣٢ بعد الميلاد عند زيارته لمصر • وذلك تخليدا
لذكرى نديمه « أنتينوس » الذى غرق فى النيل فى ذلك المكان • وكان كل سكانها
من الأفريقى ولذلك كان يغلب عليها الطابع الأفريقى • وقد صممت المدينة
طبقا للطراز الأفريقى فى إنشاء المدن • ونقل إليها مواطنون أفريقى من مدينة
بطوليميس وأعطاهما الإمبراطور جميع امتيازات المدن الأفريقية لتحقيق
استقلالها الذاتى •

(٢) مكانها الآن بلدة « البهنسا » الحالية فى مديرية المنيا •

(٣) مكانها الآن بلدة « أهناسيا المدينة » فى مديرية بنى سويف •

من سكان تلك المدن كان يحاول التملص من الأعمال الشاقة التي تفرضها الحكومة عليهم من غير أن تدفع لهم أجورا عن أدائها . وكانت مناقشات هذه المجالس تطول في غير جدوى وتتشب دون حسم للمسائل المعروضة عليها . وقد تشدد وتمتد فليجأ الأعضاء الموقرون الى استعمال العنف تارة بالألفاظ وتارة بالأيدي .

نظام الضرائب في العصور الأولى

ان الضرائب هي قوام الحكومات كلها . وقد تتخذ صوراً شتى . فالضريبة على محصول الأرض هي الوسيلة البدائية الأولى التي كان يعتمد عليها كل زعيم . ثم تدرج الأمر الى تقدير الضرائب في صور شتى . وكانت ضريبة العمل من الضرائب البدائية العادية فكان يقوم الشخص بالعمل عدة أيام للزعيم . ومازال هذا متبعاً (في إنجلترا) بين الطبقات العليا اذ لايزال يكلف القضاة وغيرهم بأعمال مرهقة . وفي النظم الاغريقية والرومانية كان تكليف الأفراد بأعمال لمصلحة المجموع يعتبر من الضرائب الثقيلة . ومن أمثلة ذلك الخدمة في المعابد الاغريقية وفي الاحتفالات العامة الرومانية . وان وجود مقادير كبيرة من العملة الذهبية أو الفضية في قطر من الأقطار يؤدي حتما الى أن تكون الضريبة من هذا المعدن أو ذاك . وقد أخذت ضريبة الرأس تتلائم مع حالة الدافع حتى أصبحت معقدة وتحتاج الى طبقة من الموظفين المتخصصين . وكانت الضرائب البدائية

التي تؤدي في صورة محاصيل عينية وخدمات هي السائدة الى عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولم تختلف تماما حتى في أيام الرومان لأن منح حق استغلال الأرض للأهلين في مجتمع زراعي كمصر انما كان يصدر عادة من الزعيم مقابل تقديم مواد غذائية له أو عوله لمدة أيام معلومة أو مقابل قدر معين من الحنطة أو عدد من الماشية • وكان ذلك النظام سائدا في عصر الدولة القديمة • وكان على جميع عبيد الأرض (Serfs) الذين يعملون في المزارع الملكية أن يؤديوا الضرائب المقررة ، بيد أنه اذا منحت بعض تلك الأراضي الملكية للمعابد أعفيت من الضرائب التي كان يتقاضاها الملك ، وآلت الرسوم الى الكهنة ، وأصبحت دخلا لهم ، ويمكن اعتبار تلك الرسوم ايجارا عاديا كائنا من كان الذي يتسلمها ليفلحها • وكانت الضرائب التي تجبي على المحاصيل الزراعية تسمى « ميزيدو Mezedu » أى العسارة مشبها أياها بالخير المعصور • وقد أخذت صورة مواد غذائية كسلال الحضر والمأكولات والأطعمة والخبز وعلف الماشية • وأحيانا في صورة مؤن ومواد مختلفة تقدم لمكتب تسجيل الضرائب ومقادير من كتان وغزل وحبال • وكانت الضرائب تكون أحيانا من المعادن النفيسة وغير النفيسة هي اثمان بيع محاصيل زراعية • وان هذه الضرائب لتدلنا على أننا لانكتب هنا عن مجرد عبيد للأرض ولكن عن مزارعين يملكون ما يزرعون • وقد استمر العمل بهذه الضرائب والايجارات الى عصور متأخرة • ولذلك يمكن القول

بأنه كان معمولاً بها في كافة العصور التاريخية وربما كان لها أصول في عصر ما قبل التاريخ •

وان حق استخدام العمال استخداماً مباشراً كان لزراعة الأرض الملكية وكذلك لحفر الترع وإقامة الجسور (الترابية) • وكان من حقوق الملك أيضاً أن يتمتع القائمون على خدمته وخدمة ممتلكاته بالاعفاء المطلق من رسوم المرور في البحر والبر أى على ظهور الدواب أو السفن • وهو تقليد مألوف في معظم دول العالم ذات النظام الملكي •

الضرائب في عهد الأسرة الثامنة عشرة

ولم يترك لنا التاريخ أى أثر نستدل منه على قيمة إيرادات الدولة المصرية في عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولكننا نجد في مقبرة الوزير « رخميرع » من عهد الأسرة الثامنة عشرة قائمة عن الضرائب التي جبيت من اثنتي عشرة مقاطعة من مقاطعات الوجه القبلي « تقدير حسابات ديوان الوزير » وبعض أجزاء هذه القائمة غير واضحة وقد أختفت معالم الأرقام فيها ، بيد أنه يمكن تقدير الأرقام المفقودة في مثل هذه الحالات على أساس متوسط ماورد من أرقام في الأجزاء الأخرى • وبما أن ما تبقى لنا من هذا السجل القيم قد اشتمل على جملة الأتاوات التي أدتها اثنتا عشرة مقاطعة (عدا القدر القليل المفقود) وبما أن عدد المقاطعات في مصر في ذلك العهد قد بلغ حوالي واحداً وأربعين فمن الممكن إذا ضربنا جملة الأتاوات المينة في

السجل في أربعة كان الناتج هو جملة إيرادات الدولة وقثد ، وهو ما سنيته فيما بعد . مع العلم بأن نسبة تلك الجملة الى غيرها من أنواع الضرائب الأخرى ليست من المسائل التي يمكن الجزم بمعرفتها .

لقد ورد الجانب الأكبر من الذهب من الجنوب فأسهم اقليم الحدود النوبية بستين « دبناً » (١) وأسهمت المقاطعات الأربع الواقعة جنوبى مدينة طيبة بأربعة وستين « دبناً » بالإضافة الى خمسة وعشرين « دبناً » أخرى « فى شكل خواتم وحبات من الذهب . على حين أسهمت المقاطعات السبع الواقعة شمال طيبة بثمانية وعشرين « دبناً » فقط عدا اثنين أو ثلاثة « دبنات » من حبات الذهب . وقد كان من الواضح أن القدر الكبير الذى ورد من الجنوب قد استخرج من مناجم الذهب هناك . فى حين لم يسهم الذهب المتداول فى المقاطعات الواقعة شمال طيبة بأكثر من أربع « دبنات » عن كل مقاطعة وهذا القدر هو متوسط ما يمكن أن تسهم به كل مقاطعة من الاثنتين والعشرين الموجودة بالدلتا مع اضافة بعض الزيادة تقديراً لشراء منف .

واذن فقد أسهمت كافة أجزاء البلاد فى الدفع الى خزانة الحكومة المركزية بما يقرب من ٣٠٠ « دين » من الذهب (وتقدر

(١) الدين يساوى ٩١ جراماً .

فيمته الحالية بنحو ٤٠٠٠ جنيه (١) . ويمكننا أن نوازن هذا القدر من الذهب وبقية الغنائم التي أستولى عليها المصريون من الدول المجاورة . لقد جلب تبحرهم في غزواته الأولى للشام ١٧٨٤ دناً من الذهب ومن غزوة الحيين ٣٢٠٠ دين ومن « واوات » (٢) من الذهب ٩٠٠٠ دين تقدر قيمتها بمبلغ ١٢٠٠٠٠ جنيه . وذلك في مدى خمسين عاماً .

واذن فالضرائب من المقاطعات البالغ قيمتها كما رأينا ٤٠٠٠ جنيه في السنة الواحدة تفوق ما أستولت عليه البلاد عن طريق الغزوات الخارجية . ومن المحتمل أن الجانب الأكبر من الذهب الذي رصدهته الحكومة للتداول كان من الذهب الوارد عن طريق الغزوات . ومهما يكن من أمر فإن جملة هذا الإيراد السنوي للدولة كان طفيفاً بحيث لم يكن يفي إلا بدفع مرتبات موظفي الحكومة المركزية . وعندما اتسع نطاق استعمال الذهب تضاعفت إيرادات الدولة أضاعافاً مضاعفة (٣) في عهدي الأفريق والعرب . وقد قيل أن التقدير الذي ورد في السجل السابق ذكره إنما كان يعجبه الوزير فقط بيد أن ذلك ينطوي على مبالغة كبيرة فهو قدر لا يمكن أن يخصص

(١) لاحظ في التقدير اختلاف سعر الذهب الآن عما كان عليه عام ١٩٢٣ وقت صدور هذا الكتاب إذ لا شك أن قيمة الذهب قد ازدادت الآن أضاعافاً .
(٢) « واوات » كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على الثوبة السفلى أي المنطقة الممتدة من أسوان إلى وادي حلفا .
(٣) ذكر المؤلف أنها تضاعفت آلاف المرات وهو قول غريب .

لشخص واحد فى الدولة ويحتمل أن هذا المبلغ كان بمثل الأيراد
المخصص للإدارة فى الحكومة المركزية •

وكانت الفضة فى مصر أندر من الذهب وان كانت قيمتها لم
تبلغ شأو قيمة الذهب • وكان مقدار الضرائب التى تجبى فضة
ستين ديناً كما كان مقدار ما جبى منها من غزوات الشام ٣٠٠ دين •
واذن فقد كانت الفضة قليلة الأثر فى الإيرادات العامة وفى
التداول •

أما فيما يتعلق بالماشية طبقاً لما ورد فى السجل السابق ذكره
فإننا نجد ٢٠٠ ثورا و ٢٤٠ عجلاً صغيراً و ١٢ بقرة فقط • وهذا
يدل على أن ذلك العدد من الماشية لم يكن المقصود به أن يضاف إلى
القطعان الملكية وإنما لغرض الذبح • ويرجع السبب فى قلة عدد
الأبقار الإناث فى القائمة إلى تحريم ذبحها • وبما أن هذا العدد
المحدد من الماشية الوارد فى البيان آنف الذكر لم يكن ليسمح بذبح
أكثر من ثور واحد أو عجولين صغيرين فى اليوم الواحد خلال العام
فقد دل ذلك على أن هذا العدد من الماشية كان ممداً للاستهلاك
المنزلى ولم يكن القصد منه المشاركة فى الأيراد العام للدولة • وقد
ذكر فى السجل أيضاً ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ حمامة أى بمعدل ٦ أو ٨
حمامات فى اليوم الواحد وهو زيادة ضئيلة فى المؤونة • ولم يرد
فى السجل أى ذكر لأوز من أى نوع • ولعل ذلك راجع إلى أن
هذا الطير لم يكن ينقل من مكان إلى آخر وإنما كان يربى محلياً •

وكانت الأثاثات من الفلال قليلة وقد بلغت ١٤٠٠ رطل من الحنطة و ١٦٠٠ رطل من الشعير لعمل الجعة و ٣٠٠٠ رطل من الذرة (١) وهي جملة قدرها ٦٠٠٠ رطل • وهذا يدل على متوسط يومي قدره ١٦ رطلا • ويحتمل أن تلك المقادير القليلة لم تكن إلا لبعض الموظفين المحليين الذين كانوا يعطون الأهالي الموردين ايصالات بها وتحسب مما عليهم من ضرائب • وقد ورد ذكر مقادير طيفة من الخبز المصنوع من لب ثمر الدوم • ومن الغريب أنه لم يرد ذكر للبلع ضمن محتويات القائمة المذكورة • غير أننا نلاحظ من الصور أن إقليم الحدود ومنطقة دندره قد أسهما بعدد من (الفرائر) شدت بحبال من الليف على طريقة تعبئة البلع في الوقت الحاضر ويغلب على الظن أن محتويات تلك الفرائر كانت من البلع • وكانت مقادير البلع على أية حال طيفة جدا • ولعل انتاج البلع من بساتين النخيل بالمزارع الملكية كان كافيا لسد حاجات البلاد الى حد كبير والظاهر أنه كان هناك عدا ذلك حوالى ٦٠ جرة من عسل النحل • ولما كان العسل المادة السكرية الوحيدة وقشذ لصناعة الحلوى وتحلية النبيذ فان هذا العدد من جرار العسل لم يكن كافيا لمنشأة واحدة •

هذا هو كل ما ذكر عن المواد الغذائية والمعادن بنفسه • ومنه

(١) المقصود بهذا الذرة الرفيعة (العويجة) وكانت معروفة في مصر والعالم القديم أما الذرة الشائعة الآن في العالم فهي الذرة الشامية • وهذه لم تعرف الا بعد كشف أمريكا •

يتضح أنه لم يكن هناك زيادة عما كانت تتطلبه حاجات الموظفين الإداريين بالحكومة المركزية . بل أن إنتاج المزارع الملكية قد أسهم في سد بعض تلك الحاجات . وليس لدينا دليل على تقديم أتاوات كالدونة بالقائمة للملك خاصة فيما عدا ما كان يحصل عليه من ضرائب عينية معتادة من الماشية والمحاصيل . ولقد كانت أسلاب الغزوات الخارجية هي المورد الذي أمد الدولة بمقادير الذهب والفضة التي استعملت في صنع الزخارف وأدوات الزينة والأواني التي ازدانت بها القصور الملكية والمعابد . ولم يحدث قط أن اعتمدت الحكومة المركزية في نفقاتها كلها على رصيد مركزي . وكان ما يفرض من ضرائب ورسوم يقصد به دفع رواتب موظفي الحكومة المركزية ولا يحمل معنى ما نسميه الآن بال إيرادات العامة للدولة . وكانت أهم مصروفات الدولة وهي نفقات الجيش تدفع محليا . وكان هذا الجيش يتألف من أربع فرق وهي : فرقة «آمون» من مجندى الوجه القبلى . وفرقة «بتاح» من منف وفرقة «رع» من جنوبى الدلتا وفرقة «سوتخ» من شمالى الدلتا . ولاشك أن عبء تجنيد هذه الفرق وتزويدها بكافة العتاد اللازم كان يقع على كاهل السلطات المحلية .

تقدير الضرائب

ولقد عنت الحكومة في عصر الدولة الحديثة بتحسين مركز البلاد وزيادة ثروتها ويدرنا التوسع فى تقسيم المقاطعات أقساما

صغيرة في ذلك العهد على الاتجاه لبذل عناية أكبر للنهوض بالنشئون الادارية في الدولة . لقد كانت الحكومة تقوم بتقدير قيمة كلفة الأراضي سنويا مع استثناء الأراضي الموقوفة على المعابد . وذلك لتقدير الضرائب المناسبة عليها وهي ضرائب كانت تتفاوت تبعا لارتفاع فيضان النيل ومقدار المحصول الذي تنتجه الأرض ويرجع هذا النظام في تقدير رسوم الضرائب على الأرض وفقا لحالة فيضان النيل الى عهد الأسرة الأولى ، وان لم يكن قبل ذلك . لأن ارتفاع ماء الفيضان كان يقاس بدقة عظيمة تصل الى ١/٢ من البوصه . وكان ذلك الارتفاع يسجل في الحوليات (١) الوطنية سنويا . ومن المؤكد أن هذا التسجيل الدقيق لحالة الفيضان لم يكن ل يتم الا لغرض هام وخطير (٢) . ولم تقتصر الحكومات المتعاقبة على تسجيل الأراضي

(١) كان المصريون يسجلون الحوادث طبقا لى حكم ملوكهم فيكتبون الأحداث التي وقعت في حكم ملك سنة بعد أخرى . وكانت هذه الحوليات نوعين :

(أ) حوليات الملوك وهي التي يسجل فيها الفراعنة حوادث حروبهم واحتفالاتهم . ومن أمثلتها حوليات الملك تحتمس الثالث المسجلة على جدران معبد الكرنك .

(ب) والحوليات الوطنية وهي التي كان يسجل فيها أسماء الملوك الذين تنابروا على حكم البلاد والحوادث التي وقعت في زمن كل منهم . ومن أمثاله هذه الأخيرة حجر «بلرمو» المشهور الذي سجل فيه أسماء الفراعنة منذ عصر ما قبل الاسرات حتى منتصف الأسرة الخامسة مع بين الحروب والأعياد الملكية والدينية والاحتفالات وتأسيس المعابد والمدن والسانى التي أقامها الملوك . وتسجل ارتفاع فيضان النيل في كل سنة .

(٢) الغرض من ذلك بطريقة الحال هو الاستعداد للفيضان من ناحية وتقدير الضرائب من ناحية أخرى .

عامة بل كانت تسجل كذلك مختلف الضياع وعدد الأفراد الذين يقيمون في كل منها . وكانت الضرائب بطبيعة الحال عينية . وكانت تبلغ $\frac{1}{3}$ المحصول . وكانت تلك الضرائب كما رأينا لا يبعث بها الى الحكومة المركزية وانما كانت تصرف في سد نفقات الادارة المحلية والجيش . على أنه كان هناك لون من ضرائب الدخل المهنية ينقاضها الوزير من الموظفين كل بحسب منصبه . وقد رفع « حور محب » (١) تلك الضريبة وكان يهدف من وراء ذلك الى معاضدة الموظفين المدنيين له واضعاف نفوذ الوزير الذي كان يرى فيه رجلا خطرا على مركزه بعد أن أضمحل نفوذ أتباع « آتون » (٢) وسادت صفوفهم الفوضى والارتباك . وقد قدر حور محب أن منل هذه الضريبة لن يزيد مع مرور الزمن من قوة هؤلاء الموظفين اذ من الممكن خصم قيمتها من رواتبهم . والظاهر أن ما لجأ اليه هذا الملك

(١) ملك مشهور في التاريخ باصلاحاته . حكم مصر بعد اخاتون وخلفائه الضعاف وكانت البلاد قد عانت من الفوضى الداخلية والفساد والرشوة . فقام حور محب بحملة تطهير واسمعة في الاداة الحكومية واصدر قانونا يتضمن أنظمة تشريعية واجراءات ادارية منها فرض عقوبات صارمة على الموظفين ورجال الشرطة الذين يفسطهدون الفقراء أو يثبت عليهم الرشوة ، وتشجيع الموظفين ذوي السيرة الحميدة ، والاتفاق على الموظفين المسئولين ، بالرواتب والعطايا حتى لا تمتد أيديهم للرشوة . ويعتبر حور محب صاحب الثورة الاصلاحية الاولى في التاريخ القديم .

(٢) هم الذين اتبعوا الملك « اخاتون » في عبادة الهة « آتون » (ومعناه القوة المثلثة في قرص الشمس) وبعد وفاة هذا الملك اغتطهوا وتشتتوا وقضى عليهم .

كان وسيلة ماهرة لنقل هذا الكسب بطريقة بارعة من يد الوزير الى يده .

وكان تقدير الضرائب من اختصاص المفتشين الملكيين الملحقين بالقصر الملكي ، اذ كانوا يفومون بتمين الأراضي وغيرها من العقارات ويقررون الضرائب المناسبة عليها . وكان النظام المتبع لضبط عملية تحصيل الضرائب ينضمن اعداد تقارير شهرية يبعث بها جميع الموظفين المحليين المختصين الى الوزير متضمنة كافة صكوك التوريد والنفقات ومصحوبة ببيانات عن حالة مياه النيل ، اذ تقرر على ضوءها الضرائب في السنوات التالية . هذا وقد اتخذت كافة الوسائل والسبل الممكنة لمراعاة الموازنة بين الايرادات والمنصرف وكان من الممكن تدبير النفقات المطلوبة من أقرب مراكز التموين الحكومية . وقد كان جميع الغزاة الأجانب ينقلون مقر حكمهم الى مصر وهذا كان شأن برابرة الأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة (١)

(١) يقصد المؤلف بالبرابرة من غير شك الهكسوس الذين غزو البلاد في فترة الانحلال الذي أعقبت سقوط الدولة الوسطى . اذ كان المصريون يطلقون على الهكسوس أسماء كريهة كالبرابرة والطاعون والوباء ولكن هناك ناحية غامضة في عبارة المؤلف وهي انه يقرون حكم البرابرة او الهكسوس بالاسريين السابعة عشرة والثامنة عشرة . لان المعروف في التاريخ أن حكام هاتين الاسريين هم الملوك الوطنيين الذين طردوا الهكسوس من مصر وأسسوا الدولة الحديثة . ولأنك ان المؤلف يقصد الاسريين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وهما فقط الاسرتان اللتان تكونتا من ملوك الهكسوس كما ذكر المؤرخ المصري مانيتون .

والبوسطيين (١) الذين أسسوا الأسرة الثانية والعشرين والنوبيين الذين وإن كان ملوكهم قد بقوا في « نباتا » (٢) ، إلا أنهم أسسوا في مصر الأسرة الخامسة والعشرين التي كان يتولى الحكم في مصر في أثنائها ولي العهد . ولكن الامبراطورية الفارسية كانت الدولة الأولى التي تغزو مصر وتفرض عليها جزية ترسل سنويا الى فارس (٣) . وقد بلغت تلك الجزية السنوية ٧٠٠ وزنة (٤) من الفضة أى ما قيمته ١٦٠٠٠٠ جنيه . على أن هذا المبلغ كان طفيفا

(١) البوسطيون هم سلالة الليبيين الذين استوطنوا اقليم العيوم ثم اختصبوا ملك مصر وأسسوا الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٤٥ ق.م.) وكان ذلك على يد أحد أفراد سلالتهم وهو الملك « ششنق » الأول . وقد أطلق عليهم « النوبستيين » بسبب اتخاذ عاصمة ملوكهم « بوبسطه » أو تل بسطه بالقرب من الزقازيق الحالية .

(٢) كان أجداد هؤلاء الملوك في الأصل مصريين من سلالة كهنة آمون الذين فروا من مصر نحو الجنوب هربا من اضطهاد ملوك الليبيين واستقروا حول نباتا حيث تمكن أحفادهم من تأسيس مملكة بلغ من قوتها أن أحد ملوكها وهو الملك « بنتخي » تمكن من غزو مصر والتضاء على الملوك الأجانب الذين كانوا يتنازعون على عرشها ، ولكنه لم يستقر فيها على حدة الفزاد الآخرين بل عا . الى نباتا بعد أن عين اخته « أمنرديس » أميرة ديبية على طيبة . وظل ملوك التوبة يحكمون من نباتا ويجيئون بين الحين والحين لاستعادة نفوذهم حتى نقل « تانوت آمون » العاصمة من نباتا الى منف .

(٣) يجدر هنا التنويه بأن الآشوريين سبقوا الفرس في هذه الناحية إذ تعرضت البلاد لغزوات الآشوريين قبل مجيء الفرس بحوالى ١٥٠ عاما . وخضعت مصر لسلطان « آشور بانيبال » ملك آشور ودفعت له الجزية . ولكن فترة سيطرة الآشوريين كانت قصيرة جدا .

(٤) الوزنة أو « الطالط » اليونانية تساوى حوالى ٢٤٠ جنيها .

بالنسبة لموارد البلاد المصرية • الا أنه مع ذلك كان يزيد عما أعتاد
الوزير المصرى أن يجمعه في العهود السابقة • هذا بالإضافة الى أنه
كان يصرف خارج مصر • ولذلك لم تنفع منه مصر • على أن قيمة
هذه الجزية وهى كما رأينا قيمة معتدلة فيها الدليل على أن الضرائب
التي فرضها الفراعنة على البلاد في العصور السابقة لم تكن باهظة
والا لأتخذت حصيلة تلك الضرائب مقياسا لتقدير الجزية التي
فرضها الفرس على البلاد •

ثقل الضرائب في عصر البطالة

على أن عبء الضرائب كان أثقل كثيرا في العهد البطلمي
والسجل الوحيد الشامل الذى لدينا عن تلك الضرائب يرجع الى
أواخر ذلك العصر الذى لم تكن حالة البلاد فيه مزدهرة •
فقد بلغت جملة إيرادات الدولة أيام « أوليس » (١) ١٢٥٠٠ وزنه
من الذهب أى ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات (٢) وكانت
مصر أيام حكم الرومان طبقا لتقدير « استرابون » أكثر غنى
وايراداتها العامة أعظم قدرا • وكان الحصول على الإيرادات في عهد
البطالة يتحقق بطريقة تتطلب المبالغة التامة في التحرى والاستقصاء

(١) « أوليس » معناها الزمار وهو اسم التهم الذى أطلقه أهالى
الاسكندرية على الملك بطليموس الحادى عشر (٨٠ - ٥٢ ق.م) والد الملكة
كليوباترة بسبب هوايته النفخ في الزمار •
(٢) طبقا لسعر الذهب عام ١٩٢٣ •

والتفتيش مما أَسْتَدْعَى وجود جيش عرمرم من الموظفين الدين
لأنفع فيهم للبلاد للقيام بتلك المهمة ، ونجد في الوثائق البردية من
عصر « فيلادلفوس » (١) عن الإيرادات المتصلة بضريبة الزيت فقط
كيف كان يتحتم على الأهليين الالماس بطائفة عديدة من التعليمات
والتوجيهات لأداء الرسوم المقررة على حاجاتهم المنزلية من الزيت •
فكان المفتشون يدخلون المنازل ويقومون بمجرد محتويات المطابخ
للتأكد مثلا من أن الزيت الذي يستعمله أهل البيت ليس من الزيت
الحر التداول وإنما ينبغي أن يكون من الزيت الخاضع للضريبة •
وإذا عرفنا أن كل هذا التدقيق تطلبه الفحص عن رسوم سلعة واحدة
أصبح من السهل أن تتصور ذلك الجهد الكبير الذي كان ينفق في
التحرى عن كل نوع من أنواع الرسوم والضرائب •

رأب الأراضى

وكانت الضرائب المقررة على الأراضى الزراعية تختلف
بطبيعة الحال تبعاً لحالة ملكيتها فقد أعفيت أراضى الكهنة من الضرائب
بينما بلغت الضريبة على الأراضى التى يملكها المزارعون من المواطنين
الأحرار ١/٥ جملة المحصول • وكان مستأجرو الأراضى والضباع
الخاصة بالملك يؤدون إيجارا كبيرا • وكان على عبيد الأرض أن

(١) هو بطليموس الثانى وحكم من ٢٨٥ الى ٢٤٧ ق م •

يقدموا الجانب الأكبر من المحاصيل التي يقومون بابتاجها الى ملاك الأرض سواء أكانوا من المزارعين الأحرار أم الكهنة أم الملك .

ضرائب الماشية

وكانت الضرائب تفرض على رعوس الماشية منذ العصور الأولى . . ففي عهد الأسرة الثانية اتبع نظام احصاء الماشية مرة كل سنتين . ومن الواضح أن الغرض من هذا الاجراء هو الحصول على نصيب الحكومة كاملا . وفي عهد الأسرة الثانية عشرة كان احصاء الماشية يتم مرة كل سنة وكان « أمير بنى حسن » يحصل على ٣٠٠٠ رأس من الماشية سنويا من مقاطعته كضريبة مستحقة للحكومة . وكانت الضرائب تقرر أيضا على مصائد الأسماك فى البلاد . غير أنه لا يوجد لدينا سجلات فى هذا الصدد الا من عصر الحكم الفارسى . فقد كان ايراد الرسوم على مصائد الأسماك فى بحر يوسف عند مدخله بالفيوم يصل الى « وزنة » من الفضة فى اليوم الواحد . وذلك لمدة ستة أشهر من كل سنة و ٦ ذلك الايراد بقية أيام السنة . وهو ايراد يبلغ فى جملته ٢٤٠ وزنة من الفضة سنويا . وهذا القدر من الايراد يبدو مبالغا فيه ويصعب تصديقه ولا يمكن تحقيقه الا اذا كان الصيد قد منع منعاً باتاً على طول مجرى بحر يوسف حتى يمكن تركيز جمع الرسوم كلها فى مكان واحد .

الضرائب في عصر الرومان

وكانت الغاية الأولى من جمع الضرائب أيام الرومان الحصول على أكبر قدر منها لصالح الامبراطور الروماني الذي كان يقيم بعيدا عن مصر . وقد أدت تلك الوسيلة البشعة في مدى فرنين من الزمان الى افقار البلاد وقيام ثورات منها ثورة بوكوليا (١) *Bucolic War* وقد استمر هذا الضعف على موارد مصر حتى لنجد أن أحط أنواع العملة المتداولة قد اختفت من الأسواق ورجعت البلاد القهقري الى طريقة المقايضة البدائية . فلا عجب إذن وقد انحدرت حالة البلاد الى هذا الخفيض أن يرحب المصريون بقدم الفاتحين العرب بغيه التحرر من قسوة محصيلي الضرائب من البيزنطيين . وكان الامبراطور الروماني الغريب عن البلاد هو الذي يقرر عاما بعد آخر جملة ما ينبغي تحصيله من أهل مصر من الضرائب . وكانت أوامر الامبراطور تبلغ الى حاكم مصر فيبلغها فورا الى حكام الأقاليم الثلاثة وهؤلاء يبلغونها بدورهم الى حكام المقاطعات الذين يجيئون الضرائب المطلوبة من القرى .

وكانت أهم أنواع الضرائب ضريبة الحنطة التي لا بد من ارسالها الى روما . وكان على أهل كل قرية أن يقوموا متضامنين

(١) قام بها الفلاحون ورعاة البقر الذين كانوا يستوطنون المستنقعات الواقعة شرق الاسكندرية المعروفة بمنطقة بوكوليا ، وذلك عام ١٧٢ م في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس .

بنقلها من القرية الى مركز التسليم بالاسكندرية • وكانت الأراضي التي لا تزرع حبوبا تؤدي ضريبة نقدية عن انتاجها من الكروم والتين والبلح والزيتون وغير ذلك مما قد تنتجه الأراضي • وكانت السلطات المحلية نفسها تتولى عدا ذلك تحصيل العوائد على المنازل وغيرها من المنشآت • وقد تعرضت مصر عدا ذلك لمزيد من الضغط والعنف من جانب روما ، فقد كان هناك موظف كبير من قبل الامبراطور يسمى « نائب الامبراطور Idilogas » هم الأكبر أن يرعى مصالح الامبراطور وأن يطمئن على أن الجهاز الادارى يسير فى البلاد دون أن يعترضه ضعف أو خلل • فقد يكون لدى الحاكم العام من كثرة الأعمال وتنوعها وما قد يتراعى له من مقتضيات الأمن والنظام أو حالة البلاد العامة ما يحمله على التساهل فى تحصيل الضرائب المفروضة • فاذا حدث شئ من هذا من جانبه فهناك نائب الامبراطور الذى كان لتعيينه من قبل الامبراطور مباشرة صفة الاستقلال عن الادارة فى مصر • وقد كان النائب يكرس وقته وجهده فى أمر واحد هو الحصول على المال ولاشئ غير المال ، ودن مراعاة لأية اعتبارات أخرى • وأخيرا نجد أنه عملا بقانون الاصلاح الذى أصدره (دقلديانوس) قد تقرر سحب مهمة تحصيل الضرائب من يد الحاكم العام وعهد بها الى نائب الامبراطور الذى أصبح مستقلا تمام الاستقلال عن الادارة المدنية فى البلاد • وكان نائب الامبراطور هو الذى يشرف على ادارة الأراضي المملوكة للحكومة

أو لشخص الامبراطور أو المرهونة لقاء ديون مستحقة للدولة .
وكذلك على الأراضى التى ليس لها ملاك معروفون . وكان يساعده
فى عمله موظف آخر يسمى « الديوكيتس » (٢) (Dioketes)
ويعمل تحت امرته نفر من الموظفين يحمل كل منهم لقب وكيل .
(Epipelropes) وكان من الممكن التصرف فى الأراضى التى ليس
ملاك بالبيع فى أى وقت من الأوقات كما بيعت أراضى الدائرة
السنية أيام أسرة محمد على .

وكانت المحاجر والمناجم فى البلاد تعتبر من أملاك الامبراطور
الخاصة . وتتولى الحكومة ادارتها وتسخر فى العمل بها المساجين
تحت حراسة مشددة كما يحدث الآن فى محاجر « البازلت » فى
أبى زعبل شمال القاهرة . وقد أدخل تعديل خاص على اعفاء
ممتلكات المعابد من الضرائب . ويحتمل أن تكون الحكومة قد
كشفت عن تهرب بعض ملاك الأراضى من الضرائب بالتواطؤ مع
الكلية . ولذلك قامت الادارة بفرض الضرائب على أراضى المعابد
أسوة بغيرها من الممتلكات على أن تقدم الحكومة فى مقابل ذلك
بعض المنح للصرف منها على شئون المعابد . وكان من أثر هذا

(٢) كان الديوكيتس فى مصر البطالة هو وزير المالية . وكان يتمتع بسلطات
واسعة لأنه كان المشرق الاول بالتيابة عن الملك على الشئون المالية فى الدولة .
ولكن هذا اللقب تطور فى العصر الرومانى فأصبحت وظيفة الديوكيتس أقل فى
الرتبة من وظيفة الحاكم الرومانى لمصر ومعادلة لوظيفة نائب الامبراطور . وصار
من مهامه الاشراف على الاشغال العامة .

الاجراء اخضاع الكهنه لنفوذ الحكومة التى هى مصدر ما يتمتعون به من منح والتى كان يعينها الابقاء عليهم واكتساب وفائهم وتعظيمهم لها .

وقد فرضت ضرائب على حركة المرور فى النيل تؤديها السفن المتجهة نحو الجنوب عند قمر « شيدا » (١) (Schedia) والآية من الجنوب عند « هرموبولس » (٢) (Hermopolis) وكانت تلك الضرائب شبيهة بالرسوم النهرية التى كان خديوى مصر يفرضها عند مرور السفن بكبارى السكك الحديدية وكان الغرض منها تحويل حركة التجارة الى السكك الحديدية .

وكانت المكوس تفرض على السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر ويتم تحصيلها فى مدينة فقط بطريق الالتزام . وكانت

(١) شيدا او سخديا : قمر نهري قديم مكانه الان قرية النشو البحرى الواقعة شمال كفر الدوار . وكانت تقع عند ملتقى ترعة شيدا القديمة التى حفرها البطالة لامداد مدينة الاسكندرية بالماء العذب بفرع النيل الكانوبى الذى جف الان . هذا ويكاد يتفق مجرى هذه التربة مع مجرى ترعة المحمودية الحالية فى جزئها الغربى . كما كانت ترعة شيدا تصب فى الميناء الغربى مكان مصب المحمودية الحالى .

(٢) هرموبوليس : الاسم الاغريقى لقرية الاشمونين الحالية الواقعة شمال غرب ملوى . وكانت فى العصر الاغريقى مدينة زاهرة تمتد حدودها حول مساحة كبيرة من الارض تصل الى النيل . اما اليوم فهى قرية صغيرة تبعد عن النيل . ومعنى اسمها مدينة هرمز وهو اله العلم عند الاغريق الذى يعادل الاله نحوت المصرى معبود هذه المدينة . هذا وكلمة الاشمونين اصلها من الكلمة القبطية «شمون» ومعناها (ثمانية) لان الاله نحوت كان يعبد مع ثمانية آلهة فى هذه المدينة .

فئاتها تعلن للجمهور منها من ابتزاز أموال الناس • وفي البحر الأحمر كانت ضرائب الرعوس تجبى على البحارة وعلى النساء أيضاً ويبلغ قيمتها عدة شلنات • أما ضرائب النقل فكانت بسيطة • وكانت ضريبة الرعوس تفرض على المصريين بين سن الرابعة عشرة والستين • ويستثنى منها بعض الطبقات التى تتمتع بامتيازات خاصة كالرومان والاسكندريون وسلالة الضباط الاغريق ممن أستوطنوا مصر وبعض كهنة المعابد • ومن حين لآخر كان هناك الى جانب ضريبة الرعوس نوع آخر من الضرائبسمى « تبرعات خيرية » أو « ضريبة التاج » وكانت فى الأصل مساهمة مالية من جانب سكان البلاد لشراء اكليل من الذهب يقدم للحاكم الرومانى عند ما يتقلد منصبه الجديد فى مصر • ولكن هذا النوع من التبرع الاختيارى اتخذ بمرور الزمن شكل ضريبة تشبه ضريبة « بشائر الفاكهة » التى كانت تفرض على زوار الكنائس • وكانت الحرف المختلفة تخضع لضريبة الدخل وتقدر على أساس المتحصلات الشهرية • واذن فقد كانت فى الواقع ضريبة مهنية بصرف النظر عن الأرباح الناتجة ولعل هذا الاجراء الشاذ قد شجع القوم على أتباع نظام المقايضة فى معاملاتهم اذ لم تكن تلك الطريقة فى المبادلات خاضعة لأية ضريبة بل انها فى الواقع حلت محل العملة التى تدهورت قيمتها وقتئذ •

وكانت هناك ضرائب على بيع الأملاك بنسبة ١٪ من قيمة

العقار • وعلى التركات بنسبة يُم من قيمة التركة • ومثلها عند عتق الأرقاء • ورسم طفيف قدره بـ ١٠ على تسجيل الوثائق الرسمية وكانت الغرامات التي توقع في حالة الإخلال بالعقود المبرمة لا تدفع الى الجانب الذي وقع عليه الضرر وإنما تورد الى خزينة الدولة • ولا شك أن هذا الاجراء كثيرا ما شجع طرفي النزاع على حسم الخلافات والوصول الى اتفاق قبل الالتجاء الى المحاكم •

ولقد أدت صعوبة تحصيل تلك الضرائب المتنوعة الى اتباع نظام الالتزام بما فيه من مساوئ ومنها استغلال الأهالي في الارشاد عن المتهربين من دفع الضرائب • وكان الالتزام معمولاً به في عصر البطالة • ورغم أن هذا النظام كان في صالح الحكومة الا أنه ادى الى ارتكاب مساوئ مروعة فقد كانت الأطماع والمصالح الشخصية للملتزم الذي كان يستند الى مساعدة السلطات الرسمية تدفعه الى استعمال منتهى الضغط والعنف مع الأهالي لجمع الضرائب •

الفصل الثالث

الحسنات والسيئات

الحسنات والسيئات

ان النصوص التى كان حقا على مولى المصريين القدماء تلاوتها يوم الحساب ، منكرين فيها ارتكابهم لبعض الخطيئات ، ومبرئين من اقترافهم لبعض السيئات ، لخير بيان عن اعتقادهم فيما كان ينبغى أن يكون سلوك الناس وأخلاقهم . وقد تضمنها الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من الكتاب المسمى كتاب الموتى (١) . وقد سميت خطأ الاعتراف الانكارى .

(١) كتاب الموتى هو مجموعة لقايف من أوراق البردى تحوى نصوصا وتعاويذ وأدعية وصلوات ، كان الغرض منها طرد الأرواح الشريرة من مقبره المتوفى ، وتسهيل الطريق له الى العالم الآخر . وقد سمي كذلك للمعذور على نصوصه فى مقابر الموتى منذ عهد الدولة الحديثة . والفصل الخامس والعشرون بعد المائة من هذا الكتاب يوضح طريقة محاكمة المتوفى على ما قدمت يدها فى الحياة الدنيا من خير أو شر ، أمام محكمة العدل الالهية ، التى يرأسها الاله أوزيريس أمام الموتى ، وتتكون هذه المحكمة من ٤٢ قاضيا ، وللمتوفى أن يعكر اقترافه أية خطيئة أمامها ، فتكلف أحد أعضائها أن وزن قلبه =

ولقد تعرض فصل « افكار الخطايا » أو اعلان البراءة لكثير من
التغير والتبديل على يد الناشرين والمؤلفين ، فكاتب يعيد ترتيب
فصوله ، طبقا لآرائه الخاصة ، ويحذف ما يستعصى عليه فهمه فيها ،
وآخر يلتزم ترتيبها الأصلي ، ولكنه يحذف مالا يحلو له .
واليك النص كاملا من غير حذف أو تغير .

وهي مقسمة مجموعات ، عدد فقرات كل مجموعة منها
خمس . وقد يكون علة هذا التنظيم تيسير حفظها بالاستعانة بالعد
على أصابع اليد الخمسة (١) .

السلوك العام

- ١ - لم الحق ضررا ما بأي انسان +
- ٢ - ولم أعمل على اشقاء حيوان +
- ٣ - ولم استبدل السيئة بالحسنة +
- ٤ - ولم أعرف الشر ، ولم أعمله +
- ٥ - ولم أقدم مصلحة على الخاصة على واجبي +

= بميزان (١) للتأكد من صدقه ، فإذا كان صادقا دخل جنة أوزيريس يستمتع
بما فيها مما تشتهي النفس الى الأبد ، أما اذا ثبت كذبه ، فإنه يلقي به الى
حيوان مفترس ، يؤتى به لهذا الغرض ، فيلتهمه ، أو يلقي به في النار .
(١) كان يوزن قلب المتوفى بوضعه في كفة الميزان ، ويوضع في الكفة
الأخرى ريشة ، فإذا خلت كفة قلبه كان صادقا ، أما اذا ثقلت فيكون من
الكاذبين .

العمل الصالح

- ٦ - لم يشكنى أحد لرب الأسرة •
- ٧ - لم ألن الآلهة •
- ٨ - لم أسع الى اشقاء انسان ، أو أتسبب فى فقر أحد •
- ٩ - لم ارتكب ما يغضب الاله •
- ١٠ - لم أحرص خادماً على عصيان سيده •

انكار اقتراف السيئة وارتكاب الظلم

- ١١ - لم أتسبب فى مرض أحد •
- ١٢ - ولم أتسبب فى بكاء أحد •
- ١٣ - ولم أقتل •
- ١٤ - ولم أحرص على قتل أحد •
- ١٥ - ولم أتسبب فى حرمان انسان من حق له •

الواجبات الدينية

- ١٦ - لم انقص من قرايين المعابد •
- ١٧ - ولم أسرق الفطائر المقدسة التى تقدم للآلهة •
- ١٨ - ولم أسلب خبز الموتى الأمجاد •
- ١٩ - ولم ارتكب الفاحشة فى حرم الآلهة •
- ٢٠ - ولم أدمس نفسى فى حرم الاله •

- ٢١ - لم انقص كيل الحنطة •
- ٢٢ - ولم انقص المقياس (راحة اليد) (١) •
- ٢٣ - ولم ارتكب القش فى الحقول •
- ٢٤ - ولم أطفف فى الميزان •
- ٢٥ - ولم أتسبب فى فقر أحد بالتلاعب فى الميزان •

احترام حقوق الآخرين

- ٢٦ - لم اختطف اللبن من فم الرضيع •
- ٢٧ - ولم أطرد الماشية من مراعيها •
- ٢٨ - ولم أقتص الطيور من رحاب الآلهة •
- ٢٩ - ولم أصد السمك من بحيراتهم •

انكار أعمال التخريب

- ٣٠ - لم أصد الماء فى موسم جريانه ، ولم أقم سدا فى مجراه •
- ٣١ - ولم أطفى شعلة فى وقت الحاجة اليها •
- ٣٢ - ولم أخالف الحدود بتناول اللحوم فى غير الأيام المخصصة لتناولها •

(١) راحة اليد : مقياس كان مستعملا فى مصر القديمة ، يبلغ سبع ذراع
أى حوالى سبعة ونصف سم •

٣٣ - ولم أطارد الماشية وغيرها من الحيوانات المقدسة .

٣٤ - ولم اعترض على ارادة الله .

وان من يفحص عن هذه الوحدات أو الفقرات يتضح له أن بعض المعاني قد تكررت أكثر من مرة ، وان نظام الحماسيات محافظ عليه عدا الفقرة الخامسة في احترام حقوق الآخرين التي أغفلها المترجمون لعدم فهمهم اياها ، وأن الفقرتين رقم ١٩ ورقم ٢٠ تشير الى عادات لم تكن متبعة في مصر القديمة ، ولكنها كانت متبعة في معابد بلاد الشام (١) والتي ظلت متبعة حتى وقت قريب في بيت المقدس .

(١) كانت بعض المعابد في الشام ، وى بلاد ما بين النهرين تلخر بأعداد كبيرة من النساء يطلق عليهن «عاهرات المعابد» ، وكن يعتبرن سراوى للالهة أو لكهننتهم ، ولم تكن الفتيات أو اهلن يجدن في ذلك العمل الشائن عارا ، بن كن وكانوا يعملونه نوعا من الواجبات المقدسة ، وكان الأهل لذلك يحتفلون بالحاي بنائهم في المعابد المقدسة ، لعمن بذلك الواجب المقدس .. ولات عاهرات المعابد كثرات في غربى آسيا ، فكن موجودات في قريجيا وفينيقية وسوريا ، كما كن موجودات عند بنى اسرائيل . وقد جاء في سفر عاموس من التوراة : أصحاح (٢) آيات ٦ و ٧ مائل : هكذا قال الرب من أجل ذلوب اسرائيل الثالثة والرابعة لا أرجع عنهم لأنهم باعوا البار بالفضة ، والبائس لأجل فعلن ، الذين يثثرون تراب الأرض على رهوس المساكين ، ويصدون سبيل البائس . ويدعب رجل وأبوه الى صبية واحدة حتى يندسوا اسم قدسى .

... وظلت الدعارة المقدسة متبعة في بابل حتى العاها الامبراطور نسططين سنة ٢٢٥ ملادية .

هذا ولم يعرف هذا النظام في مصر ، لانه كان يعتبر رجسا (١) في نظر المصريين القدماء .

ولقد كان القانون المصرى يعد انقاص كيل الحنطة ، كما فى
الفقرة ٢١ أو مقياس الأقمشة كما فى الفقرة ٢٢ ، أو عدم الدقة
فى تحديد الأراضى ، أو تقدير الضرائب ، كما فى الفقرة ٢٣ ،
أو اخسار الميزان كما فى الفقرتين ٢٤ ، ٢٥ ، كان يعد كل أولئك
غشا وتزويرا ، كما أن معنى الفقرة رقم ٢٨ غامض ، ولعل ورودها
فى خماسية احترام الحقوق تشير الى أنها تعنى صيد الطير فى
الأراضى المملوكة للآلهة ، التى كان الملوك يهبونها لمعابدهم .
أما الفقرة رقم ٣٠ ففيها تكرار لمعنى واحد ، لأن صد مياه النهر
اعاقة له عن الجريان ، لا يختلف معناه عن معنى إقامة سد فى مجراه
لحجز المياه أمامه .

وان هذه الخماسيات السبع كانت بمثابة محظورات - بحكم
الدين والقانون - يتجنبها المتقون الذين كانوا يحرصون على أن
يلقوا أوزيريس رب يوم الحساب وصحيفتهم بيضاء من غير سوء !
ولقد كان لحكمائهم حكم ونصائح وأمثال ، لا تتصل بالحقوق
المفروض مراعاتها ، كما هو الحال فى الخماسيات ، قدر اتصالها
بأداب السلوك وسياسة الناس ، وامانة الضغينة والحق فى قلوبهم ،
وتوجيههم الى الطريقة المثلى لمعاملة بعضهم بعضا ، ولا ترقى الى أن

(١) يقول هيرودوت : لقد كان المصريون أول من فرضوا على الرجال أن
يغتسلوا بعد قربهم للنساء . وكان جميع الشعوب عدا المصريين واليونانيين
يأتون الفاحشة ، ويدخلون المعابد دون أن يغتسلوا .

تكون أوامر ونواهي يلتزمها الناس كالحماسيات ، ولكنها مبادئ سامية ، اذا احتذاها الناس رفرقت عليهم السعادة والهناء وخلو البال ومن أشهر حكمائهم - أن لم يكن أشهرهم جميعا - بتاح حتب (١)، الذى عاش فى عهد الأسرة الخامسة ، وان حكمه ونصائحه لتبين عن السلوك السوى من وجهة نظر المصريين فى زمانه واليك بعض نصائح بتاح حتب :

- ١ - لا تنغمس فى مظاهر الثراء الذى أنعم الله به عليك ..
- ٢ - اذا أردت أن تكون أعمالك محمودة فتجنب الشرور ، واحذر نزعات الجشع والطمع .
- ٣ - لا يفرك بغزارة علمك الغرور ، وتحدث مع الجاهل والعالم على السواء ، فان العلم بحر لا ساحل له ، ولا يستطيع لذلك أحد أن يبلغ مداه ، وليس هناك أحد يحيط بكل شئ ، علما ، فيعرف كل ما ينفعه وما يضره .

(١) ان حكم بتاح حتب ونصائحه مكتوبة على ١٨ صفحة من ورق البردى، وتعرف باسم بردية يرمى نسبة الى الاثرى Prisse الذى اذاعها سنة ١٨٤٧ م . وقد كتب بها حتب هذه الحكم والنصائح وهو وزير الملك أسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة ، ولقد كتبها وله من العمر ١١٠ سنة لتكون هاديا ومرشدا لابنته التى كان يمهدها لأن يتولى وظيفته بعد وفاته ... ولقد كانت هذه الحكم والنصائح تدرس فى ذلك العهد وبعده فى المدارس .. وكان التلاميذ يكتبونها على قطع من الخرف أو على ألواح ملساء من الحجر ، وذلك لفلاحة الورق البردى آنذاك ..

وكان للصدق مكانة عظيمة عند قدماء المصريين ، ويتبين ذلك من كثرة عدد كهنة الالهة « معات » الهه الصدق (١) ، اذ كانوا أكثر عددا من كهنة الاله بتاح أقدم آلهة المصريين القدماء وأعظمهم (٢) وان هذا التمجيد لالهة الصدق .. يدل على مدى ما للصدق من أثر عميق في نفوسهم .

ولقد كان المصريون القدماء يحرصون على نيل رضى الآلهة ، وادخال السرور عليهم باتباع السلوك القويم ، وتمسكهم بالأخلاق

(١) كانت معات الهه الصدق والعدل تمثل على هيئة امرأة على رأسها ريشه . وعند وزن قلب المتوى أمام محكمة أوريريس كانت هذه الريشة توضع فى إحدى كفتى الميزان كميزان للصدق ويوضع القلب فى الكفه الأخرى . فإذا تبين أن القلب أثقل من الريشه دل ذلك على صدق المتوى ، فترثه الحكمة من الخطايا ، وإذا حدث العكس كان ذلك دليلا على كسبه واقترافه للخطايا التى أنكرها ، فتحكم بأنه مذنب وأمرت بذهابه الى النار .

(٢) بتاح من أعظم آلهه المصريين ، ومن أعلامهم مقاماً ، ان لم يكن أعظمهم جميعاً ، لأنه أقدمهم ، فكان المصريون يلفونه لذلك بالسادة الذى أبعثت به جرائم الاشياء ، والذى قدر أرواف الاحياء ، والخالق الذى خلق الانسان من طين .. وأنه ناصر الاموات يوم القامة ، ليحيوا الحياة الأخرى الأبدية .

... ويرى الأستاذ المؤرخ الكبير آرثر مى أن المصريين أول من اعتنوا الى اله ، وأول من اشترعوا شريعة تعربهم اليه ، وأن معتقداتهم الدينية كانت الطلقة الأولى فى اتجاه المفيدة الصحيحة التى تأثر بها من جاءوا بعدهم من عظماء البشرية ، ولقد استطاع عقل أولئك المصريين أن يلهمهم بأن لهم حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وأنهم محاسبون حساباً دقيقة ... عن أفعالهم فى حياتهم الأولى ، حينما تتجرد أرواحهم من هياكلها المادية لتخلد هناك فى برازخ الأبدية ، حيث تجزى أرواحهم بالخير خيراً ، وبالشر شراً . ترجمة حامد القصسى .

القويمة ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن التمتع بالسعادة والهناءة بعد الموت يتوقف على أعمالهم في الحياة الدنيا . ولقد أدت تلك العقيدة بدورها الى الاعتقاد بأنه لابد من تقدير أعمال الانسان قبل أن يتقرر استحقاقه لصحبة الآلهة ! ومن هنا نبئت فكرة محاسبة المرء على أعماله في الحياة الدنيا أمام الاله أوزيريس ، فاذا ما مثل الميت أمامه ، خاطبه ومن يحفون حوله من آلهة صغار بقوله :

سلام عليكم يا أرباب العدل الجالسين حول أوزيريس ،
والقادرين على غفران الخطايا والذنوب . أعيروني آذانا صاغية :
لقد سمعت اليكم فامحوا جميع خطاياي (كتاب الموتى ١٧ ، ٨٤) .
ولم يكن دعاؤه هذا للتدليل على حسن سلوكه وعدم ارتكابه
للمعاصي فحسب ، ولكنه كان فوق ذلك رجاء لتطهيره وتبرئته . . .
وهو اعتراف بأن المرء لا ينبغي له أن يعتمد على أعماله الطيبة فقط ،
بل هو في حاجة الى عون الآلهة وغفرانهم ولقد كان المصري
يشعر شعورا قويا بقيمة متانة الخلق وضبط النفس في معاملاته
للناس ! وكان من تعاليم الآباء للأبناء ، والمعلمين للتلاميذ ، والحكماء
لعامة الناس : أن ليس هناك مجال للانحراف أو التردد اذا ما حزم
المرء أمره على انتهاج خطة معينة . وكان يرون أن العقل الثابت
الرصين غير المتردد منحة سماوية وكان مما يفخرون به قولهم :
« لم أستسلم الى الهم والضنى والقلق الشديد ، ولست من
ذوى الحدة أو التردد . »

وكانت الحكمة والاتزان والهدوء من السجايا التي كانوا يرون أنه من الواجب أن يتصف بها الناس جميعا • ومن أقوالهم :
إذا كان خصمك أحق أخرف كثير الصخب ، فخير ما تفعله أن تلتزم الهدوء ، وتتغاضى عن سخافته وتفاهاته ! وإذا عاملت أكفاء وأندادا ، فتجنب الغش والخداع ، وتغاضى عن هفواتهم وذلات ألسنتهم (١) ، واحرص على صداقتهم والتودد اليهم ، وبش في وجوههم حين تلقاهم (٢) ، واطرح البخل والتقتير ظهريا •
أما لمن هم أعلى مقاما فكانوا ينصحون بالاذعان لهم وطاعتهم ، وبألا ينسوا الزلفى لهم والتقرب اليهم بشتى الطرق ، والتوسل اليهم باتباعهم •

أما من هم أقل منزلة ، فكان يرى معاملتهم بالعدل والاحسان ، من غير مس يقتل الحسنات ، أو تذكير بما قدم لهم من عوارف أو نعم • وكان التكبر عليهم ونهب أموالهم ، ونهرهم أو استعمال العنف معهم من الأمور المذمومة •

ومن نصائحهم :

لا تكن ثرثارا ، فإن الناس يصمون آذانهم عن الاصغاء لكثير

(١) في الأصل بهى من طلبهم ، وعن علم السباح بعتيق أحد • • وهما امران لا يستقيم معناه في معاملة الأكفاء •
(٢) في الأصل يزعم المؤلف أن المصريين كانوا يرون أن الصداقة فيها منافع جمة ولذلك كانوا يحرصون عليها لمنفعتها لهم ، لا لأنها فضيلة • ولأجل هذا كان ينقصها الاخلاص •

الكلام والتزم الصمت يرض عنك الناس ، ويحمدوك !
واذا ما تكلمت فتخير ألفاظك ، لأن هلاك المرء قد يكون في عشرة
من لسانه •

وعلى الرغم من أن المصريين القدماء كانوا يحضون على
المثابرة على العمل والجد فيه ، فإن مطالب الحياة ورغبات النفس لم
تكن عندهم موضع كبت وحرمان • ومن أقوالهم المأثورة في
ذلك :

ان من يعمل النهار كله ، لا ينعم بلحظة ممتعة واحدة ،
كذلك الذى يقضى يومه كله فى اللهو واللعب ، فانه لا يجد قوت
يومه ! وان الرامى الماهر لا يصيب هدفه الا بشده القوس واطلاقه ،
كما يفعل ربان السفينة بالسكان ليصل الى المكان الذى يريد •
وان من يطيع قلبه بعلو ويسود ، فاستمع الى نداء قلبك ، ولا تعصى
له أمرا ، فان من الموبقات عند النفس « الكا » أن يغفل ما تومى
به ! ولا ينبغي أن تسترسل فى العمل بعد حصولك على ما هو
ضرورى لسد حاجات بيتك • وعندما تحصل على ذلك فاتبع نداء
القلب ، لانك اذا كنت متعبا منهوك القوى ، عز عليك أن تستمتع
بما حصلت عليه الاستمتاع كله ، لأن الثروة التى يجمعها الانسان
بجده واجتهاده ، ليست الا وسيلة لاسعاد النفس وهنائها ، وليس

على المرء بعد ذلك الا اكرام الناس ، وحسن ضيافة الطارق الغريب ،
والمحروم منهم بخاصة •

ومما يسترعى النظر أنه لم يرد فى النصوص الانكارية حقوق
أفراد الأسرة وواجب المنكر نحوهم ؛ وان الاشارة الوحيدة فيها
عن الزواج هى أنه لا ينبغى أن يخالف فيه أوامر الدين ونواهيه !
أما فى العصور الأخيرة فقد كانت الجرائم الجنسية مستنكرة فى
فائمة الخطايا • ويبدو أنه لم يكن لأفراد الأسرة الواحدة من
الحقوق والواجبات قبل بعضهم بعضا غير ما كان لهم منها نحو أفراد
الأسر الأخرى • وليست هناك أية اشارة فى أى عصر من
العصور الى الفروض الواجبة نحو الاخوة والأخوات وأبناء الأعمام
والأخوال وبناتهم ، وأن وشائج القرى والروابط العائلية لم تكن
أبدا فيما يبدو فويه كما كانت فى الأقطار الشمالية (١) • ومع ذلك
فقد كانت العلاقة بين الآباء والأبناء قوية جدا والحقوق والواجبات
بينهم مراعاة •••

ويبدو أن النصوص الانكارية أقدم عهدا من دستور الزواج ،
اذ ليس فيها الا اشارة واحدة الى الرباط الزوجى الدائم الذى ساد
المجتمع المصرى فيما بعد ألا وهو عدم اشتراط الحصول على تصريح
دينى لاتمامه ، ذلك التقليد الذى كان متبعيا فى معظم الأقطار

(١) يتصد بالأقطار الشمالية الأقطار الأوربية •

الاسيوية • أما في مصر منذ العصور الأولى حتى عهد الأسرة
التاسعة عشرة ، فقد كان الزوج ينظر اليه كأنه تزيل مقيم في
منزل سيدة (١) •

ولا أدل على ذلك من أقوالهم المأثورة التي نحتزى منها
ما يأتي :

لا تكن فظا غليظ القلب لسيدة في منزلها ، ولا تشر الى شيء
ثم تقول لها : ما هذا ؟ اتنى به ، عندما تكون قد وضعت في مكانه ،
وأنت تراه بعيني رأسك فيه ••• انك عندما تلتزم الصمت تكشف
عن سجاياها ، وان من تمام سعادتك أن تعاون يداك يديها •

وتتمثل قوة الرابطة الزوجية في تلك القصة القديمة
للمساح السحري (٢) ، فقد حكم على الزوجة الخائنة التي أهدرت

(١) قد يبدو هذا غريبا لنا ولكنه يعتبر شيئا منطقيا في مجتمع قام على
نظام الأسرة ، فقد كان المصريون القدماء ينتسبون الى أمهاتهم ، وكانت البسمة
الوارثة للمفضلة لأملاك والديها ، فكانت تراث المنزل والأثاث والأراضي الزراعية
وما عليها ، ولهذا السبب كان الاخوة يزوجون بأخواتهم حتى يحصروا الميراث
في الأسرة ، ولهذا السبب كان الزوج يعتبر ضيفا دائما في منزل الزوجة •

(٢) مجمل القصة أن زوجة لأحد رؤساء المرتلين لأحد فرائمة الدولة
القديمة أحببت أحد الفتيان فأرسلت اليه خافضتها بهدية فاخرة وتسعوه
ليقابلها في حديقة بيتها ، فلبى دعوتها ، وكان يوافقها في الحديقة ، ويظللان
يمرحان حتى الغيب ، وكان الفتى يسبح في البحيرة التي في الحديقة ، فرآه
حارسها فأخبر سيده بما يعرى ، ولما علم الزوج بذلك ، وكان ساحرا ماهرا ،
صنع من الشمع ما على هيئة تمساح ، وأعطاه للحارس الأمين ، وقال له :
خذ هذا منك الى الحديقة وحين ترى الفتى يسبح في البحيرة ، ألق التمساح

كرامتها مع أجنبي في الحديقة بالموت حرقا من غير أن يكون في ذلك العهد الواقع في القدم نص على ذلك العقاب في قانون منبع آنذاك ، على الرغم من أن الموت حرقا كان عقابا للخيانة الزوجية فيما تلاه من عهود .

ويستخلص من الأقوال المأثورة في عهد الأسرة الخامسة أن العرف كان يجيز أن يتصل رب الأسرة اتصالا غير شرعى بأية امرأة من نساء الأسرة ، من غير أن يسيء ذلك إلى سمعتها ، ولا يحط من قدرها بين الناس .

على الرغم من أن النص الكهنوتي لقائمة التبرء من الخطايا

في الماء ومره بأن يعرض عليه ويمسك به في قاع البحيرة . وفعل الحارس ما أمر به . وانقلب التمساح الصغير من الشمع تمساحا ضخما قويا غرس على فخذه الفتى بنواجذه وجره إلى قاع البحيرة . ودعاه الزوج إلى فرعون وقال له : هل أدلك على عبيد من أعاجيب أيامك السميدة !

قال الملك : نعم

نساء الزوج تشعه الملك في ركب حافل باتباعه حتى وصلوا إلى البحيرة ، ونادى الزوج على التمساح فخرج وبين فكيه الفتى فأمره أن يتركه ، فما كاد يتركه حتى حال التمساح المائل لعبة صغيرة على هيئة تمساح من الشمع ووقف الفتى كاسف البال مطرقا من الخجل .

وسأل الملك الزوج عن خطب الفتى ، فقص عليه قصته مع زوجته !

فغضب الملك على الفتى بأن يلتقمه التمساح ، فألقى في الماء وألقى وراءه التمساح ، وكان ذلك آخر عهده بالدنيا ، وقضى على الزوجة الخائنة بأن تحرق حية ، فحرق حزاء وفاقا لخيانتها زوجها .

الذى يرجع تدوينه الى العصور الأخيرة فيه ذكر لقانون الزواج ، وتأکید لحقوق الزوج على زوجته ؛ على الرغم من ذلك فقد كانت الذرية تنسب الى الأم ، كما سبق أن ذكرنا ، وكان للدخال منزلة هامة فى الأسرة تفوق منزلة العم • كما كانت جميع العقارات الثابتة ملكا للزوجة ! وكان الزوج اذا ورث منزلاً مثلاً من أخ له أو اشتراه من ماله الخاص ، يسجله فور ايلولته اليه باسم زوجته ، على أن يؤول الى أولادها فى الوقت الذى تراه •

على أن النظام الأبوى أى النظام الذى يكون بمقتضاه الأب رب البيت ، والمهيمن على شئونه والمالك للثروة ، واليه ترجع أموره ، واليه ينسب البنين والبنات ! ان ذلك النظام أخذ يظهر وينتشر ويخضع له الناس ويتبعونه فى عهد الدولة الحديثة ، وفى عهد الأسرة التاسعة بخاصة ، نتيجة للتأثيرات السامية ! ولكن تملك المرأة لمعظم ثروة الأسرة استمر متبعاً الى ما بعد ذلك العصر بزمان طويل ، ولا يزال باقيا فى بعض جهات مصر حتى وقتنا هذا ! ففى صحراء سيناء لا تزال المرأة هناك تملك الخيمة (١) وقطعان الغنم ، وتعلق ثروة الأسرة النقدية فى برقمها !

ولقد كانت الهيئة الحاكمة فى مصر القديمة تشعر شعورا قويا بضرورة حماية المحكومين ورعايتهم والسهر على مصالحهم ومعاملتهم

(١) يذكر المؤلف أن الرجال من بدو سيناء ينامون تحت ظلال الصخور ، ولا ينامون فى الخيام أبداً .

بالعدل والاحسان • وكان الوازع لهم فى ذلك متانة أخلاقهم •

وكثيرا ما كان الحكام يدونون فى مقابرهم ما كانوا يقومون به
من أعمال البر والاحسان الى رعاياهم ، راجين من الآلهة تقديرها ،
ومثوبتهم عليها •

ومن أمثال ذلك قول أحدهم :

لقد أعطت الحبز للجائع ، والكساء للعارى ، وأفسحت مكانا
فى زورقى لأولئك الذين لا يستطيعون العبور لأمر من الأمور •
ولقد كنت أبا لكل يتيم ، وزوجاً لكل أرملة ، وحمى من الريح
الصرصر للمقرورين ، وجار اللاجئين ، وأماناً للخائفين ••
وكنت أتكلم بالخير ، •• ولقد جمعت مالى بالطرق المشروعة
العادلة •

ومن أقوال آخر :

عندما ظل النيل منخفضاً خمسة وعشرين عاماً ، ولم تكن
مياهه تفى برى أراضى الأقليم الذى كنت أحكمه ، استوردت لأهله
الحنطة من الجنوب فى أثناء تلك السنين العجاف ، فلم يحل لذلك
بربوعه جوع ولا بؤس ولا شقاء حتى جاءت السنون الخضراء فى
اثر فيضانات النيل الغامرة •• ولقد كنت أطعم الأطفال بيدي ،
وأواسى الأراامل ، ولم أترك فى عهدي فقيراً بائساً محروماً • ولقد

عملت جاهدا على كسب محبة الناس بالحق ، ليعلو بينهم ذكرى ،
وينوهون بشأني ، وأجازي على أعمالي الخيرة في الآخرة ..
وهذا يدل على أن الوازع الديني لارضاء الآلهة كان السبب
المعترف به .. للقيام بعمل الخير •

ولقد كان الشعور بالعدالة بين الناس فويا عند المصريين
القدماء ، وإن كلمة « معات » (١) لم يكن معناها العدالة المعنوية
فحسب ، ولكن كانت تدل على العدالة العملية • ولم يكن يكتفى ..
بمعرفة الحق واتباعه ، ولكن كان ينتظر ممن يعينهم الأمر اظهار
المودة والعطف على من يستحقونهما •

ومن أقوالهم في ذلك :

إذا كنت قاضيا فرحب بالاستماع الى من يتقدم اليك بظلامة ،
وشجعه على أن يفضي اليك بما عنده ، ودعه يفصح لك عما في
قلبه ، وإن بشك في وجهه واظهار العطف عليه يحملانه على
قول الصدق والاعتراف بالحق ولو كان في غير مصلحته ! .. وإن
من سمو الأخلاق وحسن التربية الأصفاء له في حلم وسماحة
وعطف •

(١) كانت العلامة الدالة على هذه الكلمة « معات » معناها الصدق ، كما سبق
أن ذكرنا ، وكانت توضع في مكان بارز في دور القضاء ، ودور الحكم ، وفي المنازل
وفي المقابر ! وهذا دليل قاطع على تمسك المصريين القدماء بالصدق والعدل .

ولم يكن ثمة أدعى لحسن نية المصريين القدماء في كل العصور ، وطاعتهم لأولى الأمر منهم ، والعمل بنصائح حكمائهم من الحكم بينهم بالعدل والقسطاس ، واعطاء كل ذي حق حقه •

ولقد كان من نصائح ملوك الأسرة الثامنة عشرة لوزرائهم حين ما كانوا يتولون مهام مناصبهم التزام العدل المطلق بين الناس جميعاً ! لا فرق بين غنى وفقير ومالك ومملوك ! وألا يماثلوا الأغنياء ، لأن الناس اذا ما اختصموا سواسية وان المبل الى أحد المتخاصمين رجس عند الآلهة •

ولقد كان التفاني في التمسك بالصدق شعار اخناتون العاهل المتالى (١) ، الذى أضاف الى القابه ، الجملة الآتية « الذى يحا فى الصدق والصدق » •

(١) اخناتون هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، حكم مصر وهى فى قمة عزها وأوج مجدها وقد ورث ملكا عريضا مؤثلا ، ولكنه انصرف عنه الى التفكير فى الكون وموجده ، فامتدى الى أن هناك الها واحدا يسيطر على هذا الكون ، وأنه خالق كل شيء ! وتتمثل قوته أكثر ما تتمثل فى الشمس أقوى الكائنات فى اعتقاده ، لذلك اتخذ قوسها رمزا لاله الواحد القهار وسماه «آتون» . وألغى عبادة جميع الارباب والآلهة التى كان يعبدها المصريون القدماء وغيرهم من الأمم الأخرى ، وعلى رأسهم الاله آمون رع أقوى تلك المبودات ، وبذلك أثار سخط أقوى طوائف الشعب المصرى ، الا وهى طائفة الكهنة ، وأخذوا يكيّدون له ، فلما ضاق بهم ذرعا شيد عاصمة جديدة له فى مكان قرية نل العمارة الحالية ، وانتقل اليها هو ووزرائه ومحبيه والمتحسسون لدينه الجديد ، تاركا طيبة عاصمة الامبراطورية ومقر عبادة آمون رع ! وسما عاصمته الجديدة اخيت آتون أى أفق آتون • وكان دين اخناتون يتمثل فى حقيقتين •

ولقد ظل شعار المحاكم المصرية التمسك بالعدل المطلق بين
الناس حتى آخر عصر البطالة . وفي ذلك يقول المؤرخ المعروف
ديودورس الصقلي :

لقد كان البطالة يولون المحاكم اهتماماً خاصاً ، ويعنون بها
عناية فائقة لاعتقادهم أن اللوائح والأحكام التي تصدرها ذات أثر
فعال في أخلاق الأفراد وسلوك الجماعات ، وذات أهمية بالغة
للمصالح العام .

ولقد كانوا يعتقدون أن خير وسيلة لتقويم الناس توقيع
العقاب في الوقت المناسب على المسيئين والمذنبين ، ورفع الحيف
والظلم عن وقع عليهم أحدهما أو كلاهما . . الى أن يقول :

(١) الوجدانية

(٢) الحقيقة

ولقد بلغ من تمسكه بدينه الجديد وإيمانه به ، والتعصب له أنه محا
أسماء آلهة المصريين جميعهم وآمون بخاصة ، والمنقوشة على آثار الملوك الذين
جاءوا قبله ، من معابد وقصور ! وكان يمحو كلمة آلهة من النصوص لأنه - في
اعتقاده وملته - لا يوجد إلا إله واحد .

وبعد وفاة اخناتون عاد خليفته وزوج ابنته توت عنخ آتون الى طيبة تحت
ضبط كهنة آمون ، وألغى عبادة آتون ، واستبدل اسم توت عنخ آمون باسم
توت عنخ آتون .

وقد تعقب كهنة آمون اتباع دين اخناتون ، وقضوا عليهم ، فهجرت قل
العمارنة أو أخيت آتون ، وعفا عليها الزمن .

وهكذا انتهت تلك الفترة القصيرة الالامعة في تاريخ مصر ، وضاعت في غمار
التعصب والرحية أرقى مرحلة في التفكير الديني وأسمائها الا وهي الوجدانية

ان البطالة كانوا يرون بنافذ بصيرتهم أنه اذا قدر للأحكام
التي يصدرها القضاة على المخالفين للقانون أن ترفع بالرشوة ، أو
بالحظوة أو المودة فلن يكون هناك سوى الفوضى والاضطراب في
المعاملات وفي النظم البشرية كافة .

ولا يوجد بين أيدينا لسوء الحظ الا نصوص قوانين كانت
مطبقة في مصر القديمة في عهود تاريخها الطويل المتأخرة .
ويشير كلمنت (١) الى ثمانية كتب للقانون لم يعد لها وجود
الآن .

ويتبين من منظر لاحدى محاكم العدل في الأسرة الثامنة
عشرة وجود أربع اخوته وضع على كل منها عشرة ملفات (٢) .
ويبدو من ذلك أن القانون كان قد نسق ورتب أحسن ترتيب
من قبل .

وتنسب القوانين الخاصة بالملكية الى الفرعون يوكوريس (٣) .

(١) كلمنت مؤرخ اسكندري عاش في اواخر القرن الثاني الميلادي .

(٢) قراطيس من البردي .

(٣) يوكوريس هو الاسم اليوناني للفرعون «باك - ان - رن - اف» الذي
حكم حوالي سنة ٧٢٠ ق . م . وهو أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين . وقد
ذاعت شهرته بسبب القوانين التي سنّها ، وفي أثناء حكمه غزا الاليوبيون مصر
واستولوا على الوجه القبلي ، وقد تصدى لهم يوكوريس ولكنهم هزموه ، وقبضوا
عليه وحكموا عليه بالموت حرقا ، وبوفاته سقطت مصر كلها في أيدي الاليوبيين .

ومما جاء فيها أن الدائن الذي لا يستطيع أن يبرز سنداً مكتوباً تسقط كافة حقوقه في المطالبة بدينه ، وأن التسلف بفائدة يعقد مبرم بين الدائن والمدين لا ينبغي أن تربو فيه الفائدة على جملة المبلغ المقرض ، مهما طالت مدته .

وأنة يجوز للدائن أن يستصدر حكماً بالحجز على المدين وفاء لدينه ، ولكن لا يجوز بحال حبس المدين لعدم سداد ما عليه من دين . ولكن كانت عقوبة التأخير في سداد الدين في مواعده شديدة ، فقد كان منزل المدين يرهن ضماناً لقرض فدره ست أوقات من الفضة فإذا لم يرد القرض كاملاً بعد حلول الموعد المحدد بشهر على الأكثر كانت تفرض على المدين غرامة تساوى المبلغ كله أو المتبقى منه بعد سداد بعضه مرة ونصف المرة .

وفي عهد أخناتون كان يوجد قانون دولي للملكية ! وآية ذلك أن ملك الأشياء (١) طالب بمصر بأموال وممتلكات أحد رعاياه الذي جاء مصر ومات فيها ، لأسرته في الأشياء . وقد اصدر الملك أمازيس (٢) قانوناً يحتم على كل شخص أن يقدم اقراراً في كل سنة ميّناً كسب عمله ووسائله . وإذا لم يقدّم باعداد هذا الاقرار

(١) الأشياء هي جزيرة قبرص . وهي تسمية اشورية لها .

(٢) أمازيس : الاسم اليوناني للفرعون احمس الثاني احدثاً قراعة الاسرة السادسة والعشرين .

بأمانة عرض نفسه للحكم عليه بالاعدام • وكان ذلك القانون ينص على كافة التزامات الشخص ، ويفصلها بدقة •

وفي عهد الأسرة السادسة والعشرين وهي الأسرة التي ينتمى إليها الملك أمازيس كان الشخص إذا أثقلته الديون نتيجة لما أنفق في أثناء مرضه أو في غير ذلك من الأزمات التي يتعرض لها ، - كان عليه أن يبرم عقدا مع الدائن يصبح بمقتضاه هو وأولاده الموجودون آنذاك ، والذين سوف يولدون بعد ذلك أرقاء له يعملون تحت امرته حتى يوفون دينه ، على أنه لم يأت ذكر لزواجه •

وترجع أقدم وصية عرفت في تاريخ مصر القديمة الى عهد الأسرة الثانية عشرة (١) • ومن الواضح أنها كانت موضوعة تبعاً لنظام مستقر موطن ، يفرض تسجيل كل وصية تسجيلاً رسمياً • وسوف نبحث موضوع الوصايا بالتفصيل في الفصل الخاص

(١) لم تعد وصية الأسرة الثانية عشرة هي أقدم وصية ، فقد عثر في الحفائر الحديثة على عدة وصايا ترجع لعصور أقدم نبيها فيما يلي :

(أ) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الرابعة : ففي الوصية الأولى يوصي الوزير نيكادورع بأمواله الى أفراد أسرته • وفي الثانية يوصي ننتي بمال قد آل اليه من والدته الى زوجته وأخيه •

(ب) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الخامسة أحدهما صادرة من نكمنخ وفيها يوصي بضيقاته الى زوجته وأولاده • والثانية صادرة من «وب - ام - نفرت» الى ابنه «ايبي» وهذه الأخيرة ذات أهمية بالغة لدقة تسجيلها ووضوحها ، وقد كشفها العلامة الاستاذ سليم حسن في الجيزة ونشرها في كتابه :

Excavations of Giza, Vol. II, p. 190.

« بالحياة العائلية » ويلي ذلك فترة طويلة لم نعر فيها على أية وصية حتى العصر الاغريقي ، وفيه نجد وصايا تركها بعض كبار المحاربين الاغريق في عهد بطليموس الثالث : وكانت العادة المتبعة عند تحرير تلك الوصايا أن يعين الملك منفذا لها أو بمعنى آخر محكمة القضاء الملكية . . . وكانت أوصاف الموصى تذكر بالتفصيل ؛ ففي احداها دون ما يأتي :

انه (أى الموصى) يتمتع بعقل سليم وفهم جيد ، وأنه يبلغ حوالى الثمانين من عمره ، وأنه قصير القامة ، له أنف أفنى وعينان براقتان ، وأنه أصلع الرأس ، وذو أذنين طويلتين ، كما كانت تذكر أوصاف أربعة ممن شهدوا تحرير الوصية والبلك نص احدى الوصايا :

لقد أوصى (١) (فلان) بكل ما ملكت يده الى « اكسيوزيا » ابنة « ديزولوس » وهى سيدة من اقليم تراقيا باليونان . وختم وصيته بقوله :

ولا أترك شيئاً لمخلوق آخر . ولم يذكر فى الوصيه عما اذا كانت زوجته أو قرية له .

(١) توجد وصية أخرى من عهد الاسرة الثانية والعشرين . وفيها يوصى الكاهن الأكبر « يوريث » لابنة « خا - ان - وابت » . ولابن ابنه من بعده بخمسمائة وستة وخمسين أروادا من الأراضي الزراعية وباعليها من أبقار وأنعام أخرى وأبار وأشجار .

وقد وصفت القوانين الخاصة بالأراضي الزراعية في عصر مبكر . وقد دعا الى ذلك تلك التقاليد التي كان يتمسك بها المزارعون البدائيون لضرورتها لهم . فكان رئيس القبيلة (ولعله يقصد شيخ القرية) هو مالك الأرض . وكان عليه أن يمنح الأرض لمن يعمل فيها ، على أن تعود الى حوزته في حالة وفاة الشخص بدون ورثة ، ولا يوجد ما يشير الى استرجاع الأرض بطريق القهر أو الاجبار .

ويذكر متس (Meten) وكان موظفاً عظيم الشأن في الأسرة الثالثة - ثمانية أنواع للملكية الأرض الزراعية ، حصل عليها بوسائل مختلفة نذكرها فيما يلي :

١ - هبة ملكية - وكان للملك الحق في استردادها !

٢ - منحة من الأب الى ابنه .

٣ - التملك بمقتضى وثيقة رسمية ، ويبدو أن التملك في هذه الحالة كان وراثياً وكانت الأرض قابلة للانتقال من يد الى أخرى .

٤ - عطاء ملكي ، شأنها شأن رقم ١ .

٥ - تملك خق استغلال الأرض بشروط ملزمة .

٦ - منحة من الأم .

٧ - حجة وقف من الأم للأبناء •

٨ - منحة من الأب الى أبنائه •

وهذه كلها يمكن ارجاعها الى أربعة أنواع من التملك •

وكان من الضروري كى يمتلك شخص أرضاً بطريق الهبة أو الوراثة أو الشراء أن يتقدم لاثبات شخصيته فى مكتب تسجيل الأراضى ، ثم يدفع رسوم نقل الملكية اليه ، وهذا الأجراء هو الدليل القانونى للتملك ، وبغيره لا تثبت ملكيته للأرض • على أن هبة ابريز (١) الى بتاح (٢) جميع الأراضى الساحلية المطلة على النيل عند منف تير التساؤل ، الذى كثيراً ما رددته الناس فى الأزمان الحالية عن المعنى المقصود من تلك الهبة ! اذ لا يعقل ، كما هو المعروف ، أن كل شخص كان يعيش على تلك الرقعة الواسعة من الأرض الممنوحة لبتاح قد أصبح رقيقاً تابعاً للأرض تنتقل ملكيته بانتقالها من مالك الى مالك آخر ! الأمر الذى يحملنا على الظن أن تلك الهبة لم تكن الا تنازلاً من الملك عن ايجار تلك الرقعة ، أو الضريبة عليها لسدنة الاله بتاح ! وكانت كلتاها من حق الملك !

(١) ابريز هو الاسم اليونانى للفرعون «حج - ايب - رع» ٥٨٨ ق.م - ٥٦٦ ق.م وهو أحد لمراثة الأسرة السادسة والعشرين •

(٢) بتاح اله منف ، وقد سبق الكلام عنه فى الفصل الاول •

وقد ذكر بما لا يدع مجالا للشك في نصوص الهبات أن
السكان لن يبعدوا عن الأرض الموهوبة .. وعلى ذلك فإن
المستأجرين لها والمقيمين عليها لن يضاروا .

وتوجد عقود للايجار مدونة على ورق البردى يرجع
تاريخها الى العهد الروماني ، ومنها يتبين أن هناك نوعين من
الايجار :

الأول مقابل قيمة محددة .

الثاني بطريقة المشاركة في غلة الأرض .

ولقد كانت قيمة الايجار المحددة تتراوح بين بوشل (١)
واحد وسبعة بشات ونصف البوشل للفدان ، وتبلغ في المتوسط
٣٨٨ بوشل .

أما الايجار بطريق المشاركة فكان يتراوح بين نصف
المحصول وأربعة أخماسه ، ويبلغ في المتوسط ثلثي المحصول .
وبما أن الفدان في إنجلترا يغل في المتوسط ٣٠ بوشلا فلا
يجوز أن نفرض أن الفدان في مصر مع جودة أرضها يقل عن هذا
المقدار ، لذلك يكون متوسط الايجار المحدد لم يبلغ سوى ثمن
ما يحصل عليه مالك الأرض بطريقة الايجار بالمشاركة .

(١) البوشل مكيال انجليزي يقدر بنحو ٣٦٢٥ من اللتر ، والأردب يساوي

حوالي ٥ بوشل .

وفى بعض الجهات كان يوجد نظام المزارع الجماعية بين أهل القرية الواحدة ، وكان الايجار الذى كانوا يؤدونه بالمشاركة عن الأرض التى يستغلونها يكفى لتسديد كافة الضرائب والالتزامات الأخرى المربوطة عليها ، سواء أكانت ضرائب عامة أميرية أم التزامات خاصة بمالك الأرض .

وكانت نظم الجهاز الرسمى للبلاد تلتزم أصولاً معلومة مرعية من الرسميات ومن أمثلة ذلك ما ورد فى قصة سنوحى (١) من أن جوقة من الأميرات قامت باشهاد قصيدة فى مدح الملك سنوسرت الأول ، وتمجيد شعوره الطيب لعفوه عن سنوحى الهارب .

ولقد كانت للقصر تقاليد تراعى بدقة عندما يسمح لرجال الحاشية بدخول القصر للمثول بين يدى الملك ! .. وكان الحرص على التزام هذه التقاليد يزداد كثيراً عندما كان يؤذن لعامة الشعب

(١) سنوحى ، وصحتها سنوحى ، كان أميراً من أمراء الإمبراطورة المالكة فى عهد الملك أمنمحات الأول (حوالى ٢٠٠٠ ق.م) أول ملوك الأسرة الثانية عشرة . وعندما توفي هذا الملك كان سنوحى يقود حملة ضد الليبيين ، فلما طلفه خبر وفاة الملك توقع الشبر من الملك الجليل سنوسرت الأول ، لخلافه . لكن قد هجر بينهما فى أثناء ولاية الملك الراحل ، ففر إلى الشام حيث تزوج ابنة أحد رؤساء القبائل هناك ، وعاش فى تلك البلاد ، ثم هاوده الحنين إلى وطنه العزيز مصر ، فأرسل يستعطف الملك سنوسرت الأول فرد عليه يستلعيه إلى مصر ، لحضر سنوحى ومثل بين يديه فمفاغته ، وضرب صقما عما بذر منه فى حقته ، وأمضى سنوحى بقية عمره فى مصر .

والأجانب بالدخول للمثول بين يديه .. وكان مما يفخر به كبير أمناء القصر الفرعوني قدرته الفائقة على ترتيب الأمراء كل وفق منزلته . على أن أخصائون العظيم ، وكان كما نعلم يحمل لقب « الذى يجي فى الصدق » قضى على كثير من تلك الرسمىات ، فلم يكن على الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، حرج عنه أن يسعوا إليه ، ويجمعوا فى ساحة قصره فيهللون ويرقصون ، فيطل عليهم - هو وزوجه وبناته - من شرفة القصر ، ويثر عليهم الزهور تحية لهم .

وظلت التقاليد مرعية حتى جاء الرومان !

وفى عهدهم أخذ الموظفون الرومانيون سلطات لم تكن لأمتالهم من قبل ، وابتدعوا لأنفسهم اختصاصات جديدة . وفى عام ٤٧ م أذاع حاكم مصر العام (كابيتو) قرارا شديد اللهجة يندد بذلك ! فقد بلغه أن الموظفين الرومان فى ليبيا قد اغتصبوا أملاك الناس تحت ستار الضرورة الضاغطة والمنفعة العامة ، ولم يكن مثل هذا الاجراء مصرحاً به مهما كانت الظروف للداعية له ، ولذلك فقد أصدر أمره لجميع الموظفين على اختلاف درجاتهم بالامتناع عن أخذ شئ من الأهالى الا بتصريح خاص منه ، وأن ليس لهم الا حق المبيت فى دورهم عندما يزورون قراهم لأعمال رسمية ! وأن الموظف الذى يفرض أى مبلغ من المال على أحد الأهالى مقابل خدمة عامة يؤديها له ، فانه (أى الحاكم العام) سيوقع عليه غرامة قدرها عشرة أمثال

ذلك المبلغ ، ويمنح المجنى عليه الذى يتقدم اليه بالبلاغ عن هذا الأمر الفاضح مكافأة تعادل أربعة أمثال المبلغ المذكور .

وكان المسجلون المليون يقومون بتسجيل كافة مصروفات المقاطعة وإيراداتها ، وكل عجز فيها يعاقب الموظف المتسبب فيه بأن يدفع ما يساويه ستين ضعفاً .

أما العقوبات الأخرى التى كانت ترفع فى مصر القديمة على الأهلين لذنوب جنسها أو مخالفات ارتكبوها فقد كانت تتسم بالاعتدال ، إذا ما قرنت بالعقوبات التى كانت ترفع على سكان الأقطار الأخرى . على أن عقوبة بعض الذنوب فى بعض العصور كانت نهاية فى الشدة والقسوة ، فقد حكم على زانية فى عهد الأسرة الخامسة بالحرق أمام بعض النسوة ، والبقاء الرماد المتخلف من حرقها فى النيل ! غير أننا لم نثر فى العصور التالية على مثال واحد من هذا النوع الصارم من العقاب حتى العصر الرومانى ، عندما كثرت عقوبة الحرق بسبب الاختلاف فى المذاهب المسيحية . وقد حفظت لنا من حسن الحفظ قصة عزل أحد حكام المقاطعات فى عهد الدولة الوسطى : وكانت جريمته أنه تستر على بعض أعداء الملك بلخقائهم فى العبد . ويبدو أنهم كانوا عملاء أسرة منافسة للأسرة الحاكمة . وكانت العقوبة التى وقعت عليه حرمانه من الهبات الملكية التى وهبت له ، وحرق جمع الوثائق والمستندات الخاصة

بأَملاكه .. وعزله من منصبه من غير أن يوقع عليه عقوبات
بدنية .

وفي الأسرة الثامنة عشرة نرى المنعجب بن حابي (١) يعلن
أولئك الذين ينتهكون حرمة القانون ؛ ويتزل بهم عقابا صارماً
جزاء وفاقاً ؛ على أنه يبدو من قوله أنها عقوبات أدبية وليست
بدنية .

وفي عهد الأسرة العشرين دبرت إحدى زوجات (٢) أحد
فراعتها مؤامرة لاغتياله ولما كشفت قدم المشتركين فيها
للمحاكمة ، وكان الحكم ارغامهم على الانتحار ، أما الذين ثبت

(١) حابي أحد الحكماء المفكرين ، عاش في اواخر الأسرة الثامنة عشرة .

(٢) لقد قامت بتدبير هذه المؤامرة . هي زوجة الفرعون العظيم رمسيس
العالث لاغتياله ليخلوا مكانه فيتولاه ابن لها منه بدلا من ابن غيرها ولما
المهد ومالك الحق الشرعي في تولية العرش بعد موت أبيه . وقد اشركت
معها في هذه المؤامرة بعض كبار رجال البلاط الملكي وبعض ضباط الحرس
ولرجالهم ، ولما استمد المتآمرون لتنفيذ جريمتهم كشف أمرهم ، وقبض
عليهم ، وعلى الرغم من أن المؤامرة موجهة لشخص الملك ، ولقتله ، فقد
شاعت عدالته أن يترك الأمر للقضاء فأمر بتشكيل محكمة خاصة لمحاكمة
المتهمين بما فيهم زوجته ، وشدد على المحققين وانقضاء - أن يتبعوا العدل ،
فلا يدينون شخصا بريئا ، ويبرئون شخصا مذنباً ، وبعد هذا مثالا واتم
لعدالة ذلك الفرعون العظيم ، على الرغم من أنه - كما الحقنا - كان الهدف
المنشور من هذه المؤامرة الفاترة .

عليهم أنهم كانوا يعلمون بها ولم يبلغوا عنها فقد حكم عليهم
بجدة أنوفهم وقطع آذانهم (١) •

وقد امتاز حكم الاتيويين (٢) بروح الاعتدال ، فلقد قامت
ثورة ضد بمنخى ، فلما أخمدتها وسلم اليه المؤتمرون لم يحكم على
أحدهم بالقتل (٣) •

ويروى هيرودوت أن شباكا لم (٤) يأمر بقتل أحد من المصريين
لأية جريمة ارتكبها كاتبة ما كانت ، وإنما كان الفضاة في أيامه

(١) يروى أنه في أثناء التحقيق في هذه المؤامرة بمكنت بعض السوسة
المتهمات من اغراء بعض رجال الشرطة المكلفين بحراستهن بالتوجه في صحبتهن
الى منازل بعض القضاة المنوط بهم التحقيق حيث أقرهن ببعض الغرائب
لكي يحكموا لصالح المتهمين ، ولكن انكشف أمرهن وقبض عليهن وعلى القضاة
والحراس وحكم عليهم جميعا بجدة أنوفهم وقطع آذانهم جزاء وفاقا على ما ارتكبوه •

(٢) المقصود بالاتيويين هنا النوبيون، وقد سبق شرح ذلك في مناسبة سابقة •

(٣) لم تكن هذه ثورة بمعناها المعروف ، لأن بمنخى كان فاتحا لما يسلم له
فتح مصر كلها ، وكانت مصر آنذاك أقساما ، وكان كل قسم منها يحكمه ملك
صغير أو أمير ، وكان معظم أولئك الملوك أو الأمراء لبيبيين أو سوريين ، وكان
الصراع بينهم على أشده ، ولذلك سهل على بمنخى فتح مصر • وكان أشد
أولئك الملوك الصفار يأسا الأمير تفنخت ، أمير صالحجر الذي ضم أقسام
مصر السفلى تحت لوائه ، ثم ترمم حركة المقاومة ضد بمنخى ، ولكنه هزم
بعد نضال باسل ، فلم يسلم وأوى إلى المستنقعات الشمالية ورفع راية
العصيان غير أن انصراف أعوانه عنه وتخاذلهم اضطره آخر الأمر إلى الخضوع
للمنخى •

(٤) شباكا هو خليفة بمنخى •

يحكمون على مرتكب جريمة القتل بالاشغال الشاقة غاملا في
السود *

ويقول ديودورس أن الفرعون بوكوريس استبدل بعقوبة
الاعداء الأشغال الشاقة في حفر الترع مع وضع القيود الحديدية في
أرجل المحكوم عليهم بذلك *

أما في أيام الرومان فقد كانت أقصى عقوبة أن يساق المجرمون
زمرأ للعمل في مناجم الذهب في الصحراء الشرفية ، اذ كان من
المستحيل عليهم الهرب لندرة الماء فيها ، ومع ذلك فقد كان المحكوم
عليهم توضع في أرجلهم الأغلال ، ويساقون سوف الأغنام بالضرب
بالعصى والسياط ليعملوا في المناجم ليلاً ونهاراً ، ولا يريحونهم حتى
يخلصهم الموت من ذلك العذاب الأليم *

أما العقوبات التي كانت توقع على مخالفى دين الدولة
أو مذهبها ، فقد كانت من جنس العقوبات التي كانت توقع على
أمتالهم في أنحاء الامبراطورية الرومانية الأخرى !

ويبدو أن اجراءات المحاكمة في مختلف عصور التاريخ
المصرى لم تختلف كثيراً في عصر عنها في عصر آخر ! اذ ليس

لدينا معلومات دقيقة كافية تمكتنا من الموازية بينها في العصور المختلفة !

ولعل خير ما تفعله هو أن نستعرض في ايجاز ما نعرفه عنها في كل عصر .

١ - ففي الدولة القديمة كان هناك محكمتان : محكمة الشمال ذات الدوائر الست . ومحكمة الجنوب ذات الثلاثين عضوا (١) .

ولم يحدث الا في حالة واحدة ، وجد فيها قاض يعمل في المحكمتين معاً .

ومما يدل على أن هاتين المحكمتين كانتا منفصلتين ، تلك الألقاب التي كان يحملها موظفو كل منهما . وقد عرفت ألقاب تسعة رؤساء لمحاكم الشمال الست الفرعية ، وألقاب خمسة وعشرين من القضاة العظام في محكمة الجنوب وذلك بالإضافة الى بعض ألقاب الشرف .

(١) يقول ديودورس ان هذه المحكمة كانت تتكون من ثلاثين عضوا يختارون من قضاة هليوبوليس ومنف وطيبة بمعدل عشرة قضاة من كل مدينة ، ويجتمع هؤلاء وينتخبون من بينهم رئيسا لهم ، وترسل المدينة التي ينتخب عضوا من اعضائها رئيس للمحكمة عضوا آخر ليحل محله .

محكمة الشمال
اللقب.

٥	٨	وزير وقاضي قضاء
١٣	٣	الأول بعد الملك (١)
٨	١	كاتم أسرار الملك
١٣	١	قاضي « عزمير » (٢)
١٠	١	آن موتيك

وكان الوزير يرأس محكمة الدوائر الست بصفة تكاد تكون
دائمة ، على حين كان نائب الملك رئيسا لمحكمة الجنوب !

وفي عهد الأسرة الثالثة وفي العهد التالية كان الوزير (٣)
يجمع بين وظيفته كوزير ووظيفة قاضي القضاء « سبختي » . وكان

(١) كان هذا اللقب يطلق على حاكم المقاطعة منذ عهد الملك سنفر ، الأمر
الذي يدل على أنه كان تحت نفوذ الملك المباشر .

(٢) «عزمير» معناها المشرف على حفر الترع ، وكانت تطلق في الأصل
على حاكم المقاطعة دلالة على أن أهم عمل له هو الاشراف على الري والصرف
في مقاطعته ، وفي عهد الأسرة الرابعة أضفى عليه لقب قاضي ، وأصبحت له
سلطة قضائية على السكان الذين يحكمهم .

(٣) يلاحظ أن وظيفة الوزير بمعناها المعروف لم تعرف الا في عهد الأسرة
الرابعة كما سبق أن اشرنا ، إذ كان كل ملك قبل الأسرة الرابعة يختار أحد
العظماء المقربين له كمستشار له ، يقوم بما كان يقوم به الوزير بعد ذلك .
بمثال ذلك الحكيم والمهندس العظيم امحتب في عهد الملك زوسر أحد ملوك
الأسرة الثالثة .

ينتمى دائما الى احدى الأسر الغنية ذات الجاه والنفوذ ، ان لم يكن من الأسرة المالكة نفسها ، على أن يكون قد سبق له أن شغل أحد المناصب الهامة ، ومنصب رئيس الكهنة بخاصة . كان مقر عمله بهو « خا » العظيم ، وهو بهو ذ واجهة مكشوفة ، وعلى جانبيه صفان من الأعمدة . وكان يسمى « البهو الظليل » . وقد عثرنا فى قبر « ر خمارع » (الأسرة الثامنة عشرة) على ما يزيدنا علما ومعرفة من هذه الناحية ، فقد كان بهو « الخا » هو المكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بملكية الأراضي الزراعية والعقارات ، لكى يرجع اليها عندما تتطلب احدى القضايا ذلك . وكانت جميع الوصايا تعد لها ملفات مرتبة هناك . وكذلك الشأن فيما يختص بسجلات الحدود وتقدير الضرائب ، وكافة أنواع المستندات الرسمية الأخرى .

وكانت العادة أن تقدم المظالم والمتمسكات التى تتطلب حكما ضائيا الى محكمة الوزير ومن ثم تحال الى القاضى المختص . ومن الطبيعى أن هذا القدر الكبير من الأوراق والمستندات لابد أن تتكاثر

(١) «خاء» كلمة ميريوغرافية معناها بهو .

(٢) «رخمارع» وزير مشهور فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ماصر الملك العظيم تهمس الثالث وقد كشفت مقبرته ضمن مقابر الاشراف فى القرنة بالاقصر .

ولهذه المقبرة أهمية قصوى تفوق غيرها من مقابر الاشراف الآخرين لاحتوت عليه من النقوش والكتابات والرسوم التى تشرح بالتفصيل مهام الوزير فى مصر الفرعونية .

وتتراكم سريعاً • ومن أجل ذلك فصلت مستندات الجنوب من مستندات الشمال •

ويبدو أن قضايا الأقاليم كانت تحال الى محاكمها الخاصة بها ، ماعدا القضايا الهامة فقد كانت محكمة خا مختصة بالحكم فيها •

وفي الدولة الحديثة كانت القضايا المحلية يعهد بها الى محكمة تتألف من هيئة من الموظفين المحليين ، وهم « رجال المدينة العظام » الذين كانوا يمثلون المحكمة العليا ، وعند نظر القضايا المتعلقة بملكية الأراضي الزراعية ، كان يرسل مندوب يمثل المحكمة العليا ليشارك مع هيئة المحكمة المحلية في الفصل فيها • أما المحكمة العليا ، أو كما كانت تسمى « البيت الكبير فقد كانت هيئة دائمة تتألف من كبار الموظفين ، وهي تشبه مجلس الوزراء في الوقت الحاضر • ولقد كان تأليف الهيئة القضائية في محكمة « تاو » يختلف تبعاً لنوع القضية ، كما تختلف هيئة المحلفين في بريطانيا في الوقت الحاضر تبعاً لذلك • وكان كاتب المحكمة المحلية يشغل وظيفة ثابتة ، وكان عمله الاشراف على تنظيم الاجراءات التي تتبع في عرض القضايا ونظرها والحكم فيها !

ويبدو أن الدعاوى التي كانت ترفع الى تلك المحكمة لم تكن تقدم مكتوبة ، كما هو الحال الآن ، وانما كان القضاة يستمعون الى دعوى المدعى ، ورد المدعى عليه ! وعند اصدار الحكم في صالح أحد المتخاصمين ، كان الطرف المحكوم له يطالب خصمه بقيمة أتعاب

المحكمة (١) . وكان المتقاضون ، كما أشرنا ، يتولون الدفاع عن وجهه نظرهم ، وتقض النهم الموجهه اليهم أمام المحكمة . ولم نضر في أية قضية على وجود وكلاء أو محامين عن المدعين والمدعى عليهم قبل العهد الروماني والذين كان يطلق عليهم في ذلك العهد « الظهير أو النصير » .

ولقد كان لأعضاء هيئة المحكمة وطائفت أخرى ، ولم يكونوا من رجال القانون المحترفين مهنة القضاء ، ذلك لأن المصريين المثقفين كانت لهم دراية كافية بالقانون تمكنهم من تطبيقه ! وقد كان كاتب المحكمة يقوم بمهمة التوجيه فيما يتعلق بسود القانون التي تنطبق على القضايا المختلفة التي تعرض عليهم ، وكان لمركزه من الأهمية ما لمركز سكرتير المحكمة في الوقت الحاضر .

وفي عهد الأسرة العشرين لم يكن آنذاك غضاظه عند المصريين في أن يتقلد الأجانب مناصب القضاء . ولقد كان في المحكمة التي نظرت إحدى القضايا في ذلك العهد أربعة من القضاة الأجانب ضمن هيئتها التي كانت تتكون من أربعة عشر قاضيا . ويرجع ذلك الى كثرة الأرفاء الاجانب في ذلك العهد ، والذين تحرر كثير منهم وقفز بعضهم الى مناصب ذات سلطان ، كما فعل المماليك بعد ذلك !

(١) يفصل رسوم القضاة

وأوفى قضية وصلت إلينا هي محاكمة لصوص المقابر (١)
فى عهد الأسرة العشرين ، ويغلب على الظن أنها كانت تهمة لفقها
حاكم بر طيبة الشرعى لحاكم برها الغربى للكبد له لما كان بينهما من
عداوة ، ولقد سارع الى تحقيقها الوزير ومعه الكاتب الملكى ،
فثبت لهما أن ما جاء بالبلاغ دافع وه ، اذ وضح بعد فحص المقابر
أنها كلها سليمة لم تمسسها يد عدا واحدة فقط (٢) !

(١) مرجع هذه المحاكمة الى عصر الفرعون رمسيس التاسع ا حوالى
١١٠٠ ق.م) وهى تلفى ضوءا ساطعا على حالة ائدولة المصرية فى ذلك العهد ،
ومابلغته من ضعف وانحلال اديا الى تراخى مخطتها على شئون الامن والنظام ،
والى اهمال حراس المقابر فى البر الغربى بظلمة ما اعمى اللصوص سرقتها .
وقد تم القبض على بعضهم ، وخوكموا وحكم عليهم بالاعدام .

(٢) كانت طيبة يحكمها آنذاك اميران تحت سلطة الوزير ، وكان احدهما
يحمل لقب امير المدينة وكان يختص بالجزء الشرقى أى مدينة الاحياء ،
ويحمل الآخر لقب امير الغرب ، ورئيس شرطة مدينة الاموات ، وكان يختص
بالجزء الغربى من المدينة .

وكان امير المدينة يدعى «ياسره» ، وامير الغرب يدعى «بويرو» وكان بين
الامين عداوة دفينية بسبب منافسة احدهما للآخر ، وكان كل منهما يشجع
مردوسى خصمه على فعل اخبار الفوضى والاضطراب فى ادارة رئيسهم ، ولقد
التهز ياسر لفرصة سرقة احدى مقابر البر الغربى فسارع الى تقديم بلاغ عنها
للمحاكمة العاجا ، وكانت - كما اشرنا - تتكون من الوزير وموظفين كبيرين ،
فارسلت المحكمة لجنة تحقيق الى «الجبانة» للبحث والبحرى ، فقامت هذه
اللجنة بمهمتها خير قيام ، ومحصت محصيات عشر مقابر حامت الشبهات
حول سرقتها ، فثبت لها أن مقبرة واحدة هى التى امتدت اليها ايدي
اللصوص ...

ويبدو أن نتيجة الفحص لم تعجب ياسر ، الذى اصر على أن يلاشه
مصحح وأن عدد المقابر التى امتدت اليها يد اللصوص عشرة لا واحدة ، وهذا

ولقد أدى غلبة النفوذ الدينى على النفوذ السياسى ، الذى تميزت به الأسرة الحادية والعشرين الى طريقة الاستشارة أى الاستشارة الالهية ، فكان كبير الكهنة يأتى بلوحتين ويكتب عليهما حكمين متضادين ، ويضعهما أمام تمثال الاله آمون ، ثم يدعوهم أن يختار احدى اللوحتين ، فيشير الاله الى الحكم المختار ، وكان ذلك الاجراء بكرر مرتين . ولا نعرف على وجه اليقين عن كيفية هذه الاشارة . . . ولقد ذهب ماسيرو الى أن تمثال الاله آمون كانت له ذراعان قابلتان للحركة يقوم الكهنة بتحريك احدهما خفية تبعا لأهوائهم . وكانت هناك وسيلة أخرى لاستشارة الآلهة عند حدوث نزاع على ملكية مساحة من الأرض ، فقد كان الكهنة يحملون قارب الاله على اكتافهم ، وعندما يشعرون بثقل وزن القارب ، يكون ذلك اشارة من الاله الى اصدار حكمه ، وكان ذلك يحدث وفقا لأهواء الكهنة . وكانت تلك العقيدة سائدة فى اسبرطة .

بابلانغ الامير للملك راسا على حين تقدم بويرو ان يلتمس من الوزير النظر فى عقاب ياسر على بلاغه الكاتب ، فعقد الوزير جلسة حضرها اعضاء المحكمة العليا ومحضت تقرير اللجنة ، فأصدر حكمها بعدم صحة الاتهامات التى تقدم بها ياسر ، كما حكمت بادانته .

وللاسف الشديد لم تثبت البردية الى سجلت عليها هذه العصية الطريفة وهى بردية «ايوت المشهورة» تطور هذا النزاع بين الاميرين ونهايته . . . ولكن . يبدوان المحكمة العليا لم تثبت عدم صحة اتهامات ياسر كلها ، الاله وان كانت قد ثبت ان مقبرة ملكية واحدة فقط قد سرقت ، فز أنه قد ثبت لها فعلا أن عددا من مقابر الامراء والمقابر الأخرى قد سرقت فعلا مما يدل على أن بلاغ ياسر كان قاصرا على سرقة عشر مقابر ملكية .

ولقد لجأ الكهنة الى طريقة الوحي أى استشارة الآلهة لتوطيد مركزهم ، حتى أن الوصايا وتقل الملكية كانت تصدر بناء عن وحي الهى ، وتمتد أحكاما سماوية لاتقبل النقص أو الأبرام •

ولم يكن الحاكم العام لمصر فى العصر الرومانى يتمتع بسلطات الوزير القضائية ، لأن تلك السلطات كانت تمنح الى الوكيل القضائى (١) (Dikaidates) ، الذى كان يصحب الحاكم العام فى تنقلاته التفتيشية على المحاكم ، ويقوم بعمل القاضى فى القضايا الكبرى ، التى كان القضاة المحليون يقومون بأعدادها له • وكان يصدر مرسوم امبرطورية بتعيينه ، ويتم اختياره عادة من بين الفرسان الرومانيين • وبهذه الوسيلة توزعت سلطة الوزير القديمة •

وكان فى الاسكندرية فى العصر الافريقى مندوب قضائى للحاكم العام (Archidikastes) وكانت سلطته تمتد الى جهات أخرى غير الاسكندرية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالقضايا التى تحفظ سجلاتها فى الادارة العامة للسجلات التى كان مركزها بالاسكندرية (٢) •

(١) كان الديكاديتس هو الوكيل المباشر للحاكم العام ، فيما يختص بالمسائل القضائية وكانت السلطة القضائية العليا فى مصر من اختصاصه • ولا كان لايشترط فى الحاكم العام أن يكون ملما بالقانون ، كان لزاما عليه ان يستعين بالديكاديتس فى المسائل القضائية •

(٢) فى تلك الادارة كانت تحفظ الوثائق القانونية لكافة الماطمات •

وقد نشأت هذه الوظيفة فى عهد البطالة ... ويبدو أن اختيار المتقاضين تحويل قضاياهم اليه من جهات أخرى بالبلاد انما يرجع الى أنه كان المختص بالنظر فى قضايا الاغريق أينما وجدوا ، كما كان الشأن فى المحاكم القنصلية التى كانت تنظر فى قضايا الأجانب فى مصر قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية .

أما فى الأقليم فقد كان حكام المقاطعات مختصين بالنظر فى القضايا البسيطة واصدار الحكم فيها . وكان لرؤساء البوليس الحربى (Centurion) سلطات مماثلة ، فوق ما كان لهم من اصدار الأمر بالسجن المؤقت على الخارجين على القانون .

وكانت اذا وقعت حالات سطو واغتصاب للمال أو اساءة استعمال الموظفين للسلطة ، تقدم لمثل القيصر للنظر فيها ، فاذا ثبتت صحتها بعد فحصها ، اتخذ الاجراءات الرادعة لاعادة الأمور الى نصابها .

ويعد المؤرخ ديودورس خير من كتب عن القانون الجنائى المصرى ، وسجل نصوصه . ومن هذه النصوص الحكم بالاعدام على شاهد الزور ، ومنها الحكم بالجلد بالسياط والحرمان من الطعام ثلاثة أيام سوا على من يهمل فى مد يد المساعدة لامسان تعرضت حياته لخطر الموت ، وعلى من أهمل فى الارشاد عن لصوص رآهم يسرقون ؟ ومنها أن من اتهم شخصا زورا ، وقمت عليه العقوبة التى يحكم بها عادة على ذلك المتهم البرىء لجريمة لم يرتكبها ، ومنها

الحكم بالاعدام على من قتل نفساً ، سواء أكانت نفس حرة أو عبد .
ومنها أن الآباء والأمهات الذين يقتلون أبناءهم أو بناتهم يحكم
عليهم بأن يعرضون أمام ملاء من الناس وقد علقت برقابهم جثث
أبنائهم أو بناتهم ، ثلاث مرات . (١) . أما قتل الوالدين أحدهما
أو كليهما فكان عقابه التمثيل بجسم الابن القاتل (٢) ثم حرقه حياً
بعد وضعه على الأشواك . وكانت النساء الحوامل يؤجل تنفيذ الحكم
فيهن الى ما بعد الوضع (٣) . ومنها أن من ينقل أخباراً الى الأعداء
يستفيدون منها يقطع لسانه . ومنها أن من يطفئ الميزان أو الكيل ،
أو يزيّف الأختام أو النقود ، أو يغش الذين يعاملهم ، أو يغير في

(١) يفسر ديودورس حكمه المصري في تلك العقوبة بقوله : « لم ير
المصريون » أنه من العدل أن يقتصوا الذين منوا بالحياة على أولادهم ، بل
كانوا يرون أن العدل أن يصرفهم عن مثل هذه الجرائم بتوقيع عقوبة تعمر
قلوبهم عصراً ، وتبعث في نفوسهم الألم والعذاب الذين لا يفارقانها إلا أن
يلتقوا بهم ، ويحملانهم على التوبة والغدوم على ما اقتضت أيديهم . انظر
وهيب كامل ديودورس الصقلي في مصر ص ٧ .

(٢) ومن أمثلة التمثيل أنه كانت تقطع من أحسامهم قطع صغيرة لاصدق
حجم الأصبع .

(٣) يعلق ديودورس على هذه العقوبة بقوله « لقد رأى المصريون أنه من
الظلم أن يشارك الجنين البريء أمه المذنبة في جريمتها ، وأن يقتل من اثنين
لأنهم لم يرتكبا إلا واحداً منهما . وأهم الاعتبارات كلها أنه من غير المقبول أن
يقضى بالموت على الجنين وهو لا ينتمى الى الأم وحدها ، وإنما بشاركتها ليه
الاب الذي لم يرتكب جرماً .

وقد نقل الاغريق هذا القانون : وهيب كامل ديودورس الصقلي في مصر

ص . « ٧٥ » .

نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة ، كان عقابه قطع كلتا يديه (١) •

ومن تلك النصوص أن الاغتصاب عقوبته قطع عضو التناسل ؛ أما عقوبة الزنا من غير اكراه الزانية فكانت ألف جلدة للزاني ، وجدع أنف الزانية •

ولقد أدى الارتقاء المطرد لتنظيم الزواج على مر السنين في مصر الى سمو المثل العليا للأخلاق ، وبالتالي الى حرص الفتيان المصريين الذين يبلغون سن الزواج على الاقبال على الزواج ممن يتوفر فيهن سمو الأخلاق وحسن السلوك من الفتيات وترتب على ذلك بقاء عدد كبير من الفتيات ممن كان سلوكهن دون المستوى المطلوب عائسات •

وبينا نجد أن مصر قد بلغت ذلك الرقى منذ آلاف السنين ، فان أوروبا لم تعرف الزواج المنظم الا منذ ألف سنة على التقريب • وفيما عدا ذلك فقد كان هناك بعض المسائل التي لاتخضع عادة لأحكام القانون أو الاجبار الأدبي ، ولكنها كانت مع ذلك على جانب كبير من الأهمية لأنها تبين عن الاتجاهات العقلية للمصري القديم • وفيما يلي نورد لك أمثلة على ذلك :

(١) وجهة نظر المصريين في ذلك ، كما ابته ديودورس ان العقاب ينزل بالعضو الذي استخدمه المجرم في ارتكابه جريمته جرحا لايندمل الى يوم ممانه ، فيكون في رؤيته عظة للآخرين ، ، يصرفهم عن اقتراف أمثال هذه الجرائم ، المصدر السابق ص ٧٨ •

ففى الأسرة الخامسة كانت حب الناس واكرامهم والترحيب
بالغريب الطارق من الأمور المرغوب فيها لدى المصريين القدماء حتى
لناكرى الجميل !

وفى ذلك يقول أحد حكمائهم :

إذا كنت كريما مع أحد الناس ، وصنعت معروفا له ، كأن أنلته
حقا من حقوقه ، فمن الخير أن تتناسى هذه المكرمه ، ولا تذكره بها
ما لم يذكرها لك هو .

ولقد كان النبلاء والحكام يباهون بنشر لواء الأمن والطمأنينة ،
والعدل والاحسان بين الناس فى كافه انحاء الاقاليم التى يحكمونها
فى سنوات القحط وسنى الرخاء على السواء :

ولنستمع الى أحدهم وهو يقول :

« لم يوجد فى عهدى فقراء ، ولم يحدث أن جاع أحد فى
أيام ولايتى . »

وفى أثناء المعركة البحرية العظيمة (١) التى خاضت الأسرة
العشرون غمارها دفاعا عن مصر ضد الغزو الأجنبى ، نرى المصريين

(١) وقعت هذه المعركة فى البحر المتوسط شمال غرب مصر بين الملك
ومسيس الثالث ، لانى ملوك الأسرة العشرين وبين حلف قوى مكون من
الليبيين وسكان جزائر صقلية وسردنيا وكريت وغيرهم وكان أولئك الغزاة قد
عزموا على مهاجمة شمال غرب الدلتا بعرا وبر ، وحشدوا لذلك عسكرا
عظيما من السفن ! ودارت معركة بحرية هائلة بينهم وبين مصر ، هزم فيها
الغزاة وحطم الاسطول المصرى معظم سفن أساطيلهم الجتمة ، وبلغت
ضحاياهم ١٢٥٠٠ بين قتيل وغريق ، وكما أسر منهم ألف أسير ، وقد سجل
رمسيس الثالث اخبار هذه المعركة على جدران معبدته بمدينة هاير .

فى المعركة المنفوشة على حيطان معبد هابو (١) وهم يقتدون الاء
من احدى سفن الغزو التى بدأت تقوص فى الماء •

وفى الاسرة الخامسة والعشرين نرى بعضى الفاتح النوبى
وقد استاء أشد الاستياء من الأهمال الذى تسبب عنه هلاك بعض الخ
جوعا فى طيبة • وكان يرجو الحاميات المصرية فى المدن بالتس
كلما أوغل فى البلاد حقنا للدماء • ومن أقواله الماثورة انه يود
يرى أهل منف فى أمان مطمئنين سالمين ، وأن لا يتسبب عن الحر
التى يخوضها بكاء الأطفال الأبرياء ••• وما يروى عنه أنه لم يقة
أحد من المصريين الا فى ساحات القتال •

ويقول ديودورس : ان المصريين هم أكثر شعوب اله
تقديرا للمعروف ، الذى يسدى اليهم ••••

ولقد احتل الشعور بمحاسبة النفس حيزا فى عقل المصر
وتفكيره فى عهد الدولة الحديثة ، وفى أواخر عصرها بخاصة ، وله
ذلك راجعا الى ظهور عبادة آتون (٢) ، التى تحث الناس على السلو
المثالى ، فنرى المصرى فى ذلك العصر الزاهر يتوسل الى ال
آلا يعذبه على ذنوبه الكثيرة ••••• حتى يصبح جديرا بسك
دار النعيم •

(١) هابو هى التسمية القبطية للمنطقة التى يوجد بها معبد الملك رمسيس
الثالث فى البر الغربى للاقصر • ومازال هذا المعبد باقيا الى اليوم فى حا
حسنة نسبيا •
(٢) آتون هو الاله الذى عبده اخناتون ، ولشر عبادته ومعناه قرء
الشمس •

الفصل الرابع

الحياة الخاصة

الظروف المناخية في مصر وأثرها في شكل المساكن

ان مناخ مصر قد جعل المأوى في ربوعها أقل أهمية عند سكان مصر عنه عند كثير من سكان الأقطار الأخرى ، والأقطار الباردة بخاصة ! ولهذا نرى أن بعض البدو من سكان مصر لا يزالون يأوون الى الحيام ، وأن بعض سكان قراها يأوون في بعض أشهر السنة الى عرائش من البوص لتقيهم وطأة الحر وعصف الرياح في أثنائها ، وأنه حتى في المنازل التي يبنونها باللبن أو الحجارة فان البهو المكشوف مسرح طبيعي لحياتهم المنزلية .

ولقد كان الانسان البدائي في الأزمنة الغابرة يقنع أينما حل في بقاع الأرض المختلفة بوسائل من الوقاية أقل كفاية منها في الوقت الحاضر ، سواء أكان ذلك في الملبس أم في المأوى ، ولذلك راض نفسه على أن يقرش الأرض ، كما يفعل سكان أقطار أوروبا .

الشرقية (شرقى أوروبا) الى اليوم ! ولقد كان عندما يجلس على مقعد عال ويدلى قدميه ' بندفع الدم البهما ويزداد ضغطه فبهما ، يجد نفسه مدفوعا الى رفعهما ووضعهما على مقعد آخر .

وكان المصريون القدماء يفترشون الأرض فى أثناء تناولهم الطعام ، ويرفعون احدى ركبتيهم الى أعلى ! ولم يعرف عنهم أنهم كانوا عندما يجلسون يسندون ظهورهم الى متكأ ، كما كان يفعل الاغريق والرومان عند تناولهم الطعام !

ولا ريب أن الأوضاع المختلفة التى كان المصريون القدماء يتخذونها فى جلوسهم ترجع الى عصر ما قبل التاريخ ! ويمكن اجمالها فيما يلى :

(١) لقد كانوا يضمون الركبتين عند جلوسهم على الأرض مع توجيه القدمين الى جهة واحدة ، نستين ذلك من الرسوم البدائية التى ترجع الى العصر الحجري القديم . وقد استمر النساء دون الرجال يتبعن ذلك الوضع الى عهد الأسرة الثانية عشرة .

(٢) وقد كانوا يفترشون الأرض مع خفض احدى الركبتين ، ورفع الأخرى !

وهذا ما تشاهده فى صورة الالهة ايزيس وهى تحمل ابنها

حورس ، التي ترجع من غير ريب لعصر ما قبل التاريخ !

(٣) وكان الوضع السائد بين الكتبة هو جلوسهم مع جعل الساقين متقاطعتين ووضع القدمين تحت الركبتين (١) .

(٤) أما الصناع فقد كانوا يجلسون راكعين بينا تكون القدمان ممدودتين الى الخلف ، كذلك كان يفعل الضيوف .

(٥) وعند تقديم القرابين كانوا يركعون مع ارتكاز القدمين على الأصابع في وضع رأسي .

(٦) ويبدو أن جلوس القرفصاء مع اتجاه الركبتين الى أعلى قد بدأ في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وهو وضع يستلزم أن يكون الفخذ أطول من فصبة الرجل ، وهذا الأسلوب في الجلوس شائع بين المصريين في الوقت الحاضر (٢) .

(٧) وفي حالات نادرة تتطلبها طبيعة بعض الأعمال كانوا يقترشون الأرض مع جعل الركبتين الى أعلى بينا تكون الساقان ممدودتين الى الأمام . وعندما كانوا يريدون التعبير عن الخضوع أو الخضوع ، فقد كانوا يضعون اليدين متقاطعتين على الكتفين .

وكان المتبع عند الدفن في عصور ما قبل التاريخ وضع الجثة

(١) وهي التي سمي الآن الجلوس القرفصاء

(٢) انه شائع بين سكان القرى غير المتعلمين ، وقد اخطئ بين المتعلمين .

بحيث تتخذ شكل القرفصاء ، مع سحب الركبتين نوعاً ما الى أعلى ، وهو الوضع الطبيعي الذي تتبعه في يومنا في الوقت الحاضر . أما دفن الجثة مع جعلها ممدودة ، فقد بدأ اتباعه في عهد الأسره النانه ، ولا يزال هو الوضع الذي يتبعه المصريون اليوم في أثناء نومهم .

وكان الرجال والنساء ، اذا ما دعوا الى الولائم ؛ ساولون الطعام معاً وهم جلوس على الحصر ، ذلك على الرغم من أن منازلهم كانت تحتوي على أجنحة للرجال وأخرى للنساء !

ولقد كانت الدور الكبيره في عهد الاسره النانيه عشرة تشتمل على ممرين ، بمتدان من الباب الخارجى الى الداخل . وكان أحدهما يؤدي الى الأبهاء وحجرات سيد القصر والى المطابخ ، أما الآخر فكان يؤدي الى الجناح الخاص بالسيدات !

وسوف نصف تخطيط المنازل ورسومها وابنيها في الفصل الأخير من هذا الكتاب تحت عنوان المباني !

أما الأناث كما يبدو من السادج الخاصه بالأسرات الباسه والعاشره والحاديه عشره ، فكان يتكون من أريكة طويلة ومقاعد في الطابق العلوى من المنزل ، ليجلس عليها أهله للتمتع بالنسيم البارد المنعش ، وعلى حامل تصف عليه جرار الماء وأكوابه ، ورحاة لطحن الغلال كانت توضع على قاعدة في أسفل السلم ، وفي حجرة النوم مقعد يستخدم للراحة والاستجمام ؛ يرتكز على غصن ذى شعبه

مثبت في إحدى حوائط الحجرة (١) •

المدافئ : وكانت مدافئ المنازل المستعملة في عهد الأسرة الأولى من الفخار ، وكانت حافاتها مرتفعة لمنع الرماد من التبثر ، وكان لبعضها حافة مصنوعة على هيئة أقصى ملتوية حول نار موقدة ، كما تفعل الثعابين التي تأوى الى المنازل ، وكان المصريون لا ينالونها بأذى لاعتقادهم أنها تقوم بحراسة المنازل من الفيران التي كانوا يعتقدون أنها تحمل عدوى الطاعون ! (٢) •

وفي عهد الأسرة الثانية عشرة كان المصريون يضعون موقدا كبيرا من الفخار في وسط البهو لتدفئته !

تمسك المصريين بالنظافة

ولقد كان المصريون يتمسكون بالنظافة تمسكا شديدا ، وكانت ملابسهم ، وملابس الكهنة بوجه خاص تصنع من الكتان (التيل) لأن الملابس الصوفية كانت في ملتهم واعتقادهم مرتعا خصيبا محببا للهوام والحشرات ، وكانوا يحرصون على غسل ملابسهم في فيرات قصيرة وبغناية خاصة •

(١) هيردوت الجزء الثاني ص ٣٥ •

(٢) كان المصريون يعتقدون أن ثعبان البنزلي هو الاله أجاتوديهون الذي يحرص على طرد الفيران من المنزل منعا من انتشار الطاعون الذي كانت تحمل عدوا •

كانوا يغتسلون بالماء البارد أربع مرات كل يوم مرتين في
النهار ومرتين في الليل ، كما كانوا يحلقون رؤوسهم وأذقانهم ،
لا بل وأجسامهم مرة كل ثلاثة أيام ! وكان مما يثير سخطهم
وسخريتهم أن يروا الشعور المرسله الكتة في صور الرعاة أو بعض
الأجانب ، وكانوا يصورون الرجل الريفى وقد طال شعر رأسه ،
كما صوروا شعور بعض التوار وقد طالت حتى تدلت على أكتافهم .
ولقد كان غسل الملابس من الأعمال المنزلية التي استحقت في
نظر المصريين القدماء تصويرها بالتفصيل على جدران المقابر ،
ويتضح من هيئة الحلل الرسمية أن النشا كان يستخدم دائما في
تثبيت طياتها .

ولقد كان المصرى شديد العناية بآداب المائدة (١) . فقد ورد
في سفر التكوين من التوراة أنه كان لكل من كبار الموظفين
المصريين ، وعامة الشعب المصرى والمهاجرين السوريين طريقتهم
الخاصة في تناول الطعام ! .

(١) يتبين ذلك من نصائح الحكيم بئاح حنن لابنه اذ يقول له : اذا كنت
من بين الجالسين على مائدة من هو اكبر منك مقاما ، فخذ ما يقدم لك ، ولا تأكل
الا مما يوضع أمامك ، ولا تطيل النظر الى ما وضع - من طعام أمام غيرك ، لان
ذلك مما تشتمز منه النفوس !

وانظر بسحياك الى أسفل الى أن يحبك الضيف .

انظر الادب المصرى القديم جزء (١) ص ١٧٩ ، تأليف الاستاذ الكبير سليم

حسن .

الحياة الاجتماعية - ١٩٣

ويقول هيرودوت : ان المصريين القدماء لم يكونوا يستعملون
السكين ، أو السفود أو أى وعاء خاص باغريقى ، أو يتناولون
لحما قطعه سكين أحدهم ، ويرجع ذلك الى عقيدة المصرى بأن
معدن الحديد نجس ، وكانوا يؤمنون بأن عظام الاله ست الشرير
مكونة منه (١) . وكانوا لذلك يصنعون مداهم من البرونز .

وكان المصريون يجلسون فى أثناء تناولهم الطعام على

(١) لانعلم علم اليقين سبب ربط المصريين بين الاله ست والحديد ، ولعل
سبب ذلك أنهم كانوا يعتبرون الحديد معدنا (أسويا) ، اذ أنه أول من استخدمه
فى صنع آلات الحرب هم لحيثيون الد أعداء المصريين ، وكانوا كما تعلم من
سكان غربى آسيا كما أن الهكسوس الذين غزوا مصر ، وعاثوا فيها فسادا قد
(جاءوا) من غربى آسيا أيضا فوق أنهم عبدوا الاله ست دون غيره من آلهة المصريين
الأخير ، ولهذا كله ربط المصريون بين كراهيتهم للهكسوس الآسيوبى الأصل
وبين المعدن الذى كان يستخرج من بعض بقاع آسيا الغربية وبين الاله ست
الذى عبدوه !

هذا هو السبب البادى ، أما السبب الحقيقى فى مدم ذبوع استعمال
الآلات الحديدية رغم انتشار استعمالها فى غربى آسيا ، فهو أن تكاليف نقله
من مناجمه التى كشفها المصريون منذ عصور أسره الأولى ، كانت ناهضة
لبعدها من الدلتا ووادى النيل ، على حين أن السحاس الذى نجح المصريون فى
تحويله الى يرونز ، كانت مناجمه قريبة !

على أن الحديد ، كما سبق أن الحقنا ، قد وجد منذ العصور الأولى ،
ولانجزم بنجاح المصريين فى صنع آلات قبل عهد الأسرة الثانية عشرة ، اذ وجد
فى مقبرة الملك توت عنخ آمون شئ من الحديد ! ثم أخلت الآلات الحديدية
بعض عليها فى قبور من خلفوه من القراعنة ، ثم كثر استخدامها فى عهد الأسرة
الخامسة والعشرين ! وقد عثر فى بلدة نقرطيس على أفران لصهر الحديد ،
ترجع لعصر الأسرة السادسة والعشرين .

الحصر (١) ، وكانوا يستخدمون السكين اذا اقتضى الأمر ذلك ! ولم تكن الشوك معروفة لهم آنذاك ! أما الملاعق فقد استعملوها فى عصر ما قبل التاريخ (أى قبل عصر الأسرة الأولى) ولكن أحجامها كانت صغيرة ، ومصنوعة من العاج ! وقد وجدت ملاعق صغيرة الحجم مصنوعة من البرونز كانوا يستخدمونها للدهون العطرية فى عصر الأسرة الثانية عشرة ! .

كما كانوا يستعملون ملاعق مصنوعة من البرونز أيضا على هيا المجرفة (الكريك) فى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، وقد ادخل الاغريق المجرفة التى كانت ولا تزال تستخدم فى نقل السوائل من آنية الى أخرى ! .

ولقد كان المصريون يحسسون بعض السوائل بقطع البوص (القاب) أو الانابيب المرنة كأعطاء الحيوانات ؟ .

وان استعمال المصريين لأكواب النحاس ، والتى ذكرها هيرودت فى تناولهم الشراب لمن الأمور المألوفة اليوم فى شوارع القاهرة

(١) يقول العالم أدمان أن الحصر استخدم للجلوس عليه قبل عصر الدولة القديمة ، ولكن منذ أوائل هذه الدولة استبدلت المائدة القليلة الارتفاع والتى يتكون جزؤها العلوى من حجر مستدير بها ، فاستخدمها النبلاء والافنياء بادئ ذي بدء ، ثم استخدمها بعد ذلك الناس جميعا ، واستبدل بها الأمراء والأثرياء مائدة طويلة (مرتفعة) . انظر مصر والحياة المصرية فى المصور القديمة : تأليف درانكه : ترجمة الاستاذين عبد النعم أبو بكر ومكرم كمال : ص ٢٠٢ .

وغيرها من المدن المصرية (١) •

ولقد استعمل المصريون قرب الماء منذ عصر ما قبل التاريخ ،
وقد وجدت بعض السدادات المصنوعة من العاج أو الحجر لسد
فوهاتها •

ولقد بدأ ظهور المدى النحاسية التي كانت تستعمل لسلخ
جلود الحيوانات خلال الحضارة الثانية من حضارات ما قبل
التاريخ ! •

وانك لتشاهد شكل قرية الماء ، وقد ربطت من طرفيها بحبل
من جلد تحمل به ، في الرسومات التي ترجع لعصر الدولة القديمة،
وهي شبيهة بالقرية التي يستعملها السقاويون في الوقت الحاضر •

(١) كان المصريون يمرحون كثيرا في الحفلات ، وكانوا يكثرون من شرب
الخمور التي كانت تفقد لهم اترانهم فيزيطون ويصخبون ! وكانت بعض نساءهم
يشاركنهم في ذلك في كثير من الاحيان ! وهناك في احدى مقابر طيبة صورة على
أحد جدرانها تمثل سيدة افرطت في شرب الخمر فبدأت لترنج فسأوت اليها
احدى خادمتها لتقدم لها كأسا به مسائل ، كان معروفا لديهم اذ ذاك من
خصائصه المساعدة على القيء ، فتفرغ مافي جوفها !

ولكن الى جانب ذلك كان عقلاء تلك العصور وحكماؤها ، وحفظتها على
الاخلاق الكريمة لا يوافقون على تلك الحياة العابثة الماجنة ، فيقول الحكيم آني
في نصائحه الى ابنه خونسو حنب :

لا تعرط في شرب البجعة ، لان لشاربها فلتات لسان ، يستقيح صدورهما
منه ، من يقيق ويعود اليه رننده ، وهو دائما منبوذ محقر من الناس حتى
من امثاله الذين يشاركونه في تعاطيها !

ومن نصائحه أيضا لا تدخل بيت السكر ، ولو كان دخولاك يعود
عليك بالخير !

وفد وجدت في أقدم السجلات التي دونها المصريون القدماء،
ما يشير الى شربهم للجنة والخمر ولقد كانت
الخمر تقدم في الحفلات والولائم ، ولم يك ثمة لوم أو تريب على
شاربيها ، والسكاري منهم بخاصة حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة!
ففي عهد الأسرة السابعة عشرة ، كان الخدم يقدمون لضيوف أسيادهم
كؤوس الخمر ليشربوها حتى النماء لتدخل عليهم السرور ويقضوا
وقتا سعيدا ! وفي ذلك تقول سيدة من أهل ذلك العصر للساقى
« اعطنى ثمانية عشرة كأسا من الخمر لأننى أحبها حبا جما ! ويظهر
أن تبايها بحب الخمر لم يكن آنذاك مدعاة لتوجيه النقد أو اللوم
اليها أكثر من الذهاب لمشاهدة حلبة ملاكمة أو مصارعة فى وقتنا
هذا ! »

وفى عصرى الفرس والبطالة أدى انهيار أسس الحياة القومية
المصرية الأصيلة بتأثير عاداتهما وتقاليدهما وسلوكهما التى كانت
تختلف جد الاختلاف عن عادات وتقاليد وسلوك المصريين الى
التردى فى حمأة الترف والاستهتار والانغماس فى تعاطى الخمر
وغيرها من المسكرات ! »

وسائل المحافظة على الممتلكات

لقد كانت الأختام تستخدم منذ ما قبل الأسرة الأولى فى ختم
الوثائق التى تثبت تملك الناس للعقارات والممتلكات الأخرى على

اختلاف أنواعها ، محافظة عليها من ادعاء المدعين ! •

ولقد استقينا علمنا بمصور الأسرات المصرية الأولى من بصمات الاختام الرسمية على الأواني والجرار الملكية •

ولقد استمر استعمال تلك الاختام الى عصر الأسرة السادسة والعشرين ! فكانت الصناديق والحقائب والرسائل ، وكذلك الجرار الكبيرة والأبواب تربط بالحبال ، ويوضع قدر من الصلصال على العقدة ، ثم تختتم بالخاتم • وكانت تلك الاختام على هيئة اسطوانات تمرر على الصلصال ؟ وكان ذلك في عصر الدولة القديمة ! وما جاء جاء عصر الأسرة الثانية عشرة حتى كانت تلك الاختام الاسطوانية قد استبدل بها أخرى مستوية ! •

ويبدو أن ذلك حدث في عهد الأسرة الثامنة وكان أقدمها
اختام الملك تلولو (١) •

ولقد استعملت الأقفال لأول مرة في العصر الروماني ! وكان القفل آنذاك يتكون من مزلاج تثبته عندما يراد قفل الباب مقاطات اسطوانية صغيرة من الخشب ، ويرفعها مفتاح اذا أريد فتحه ! •

(١) هو الفرعون نفركارع نونو ، حكم في الدلتا في عهد الأسرة الثامنة اى في فترة الاضطلال والتسيب والفوضى ، التي أعقبت سقوط الدولة القديمة، ويدل اسمه على أنه من أصل سامي ولذلك لا يستبعد أن يكون من أحد القبزاة الاقوياء الذين هزوا الدلتا من الشرق .

وقد أصبح القفل. فى أواخر العصر الرومانى على هيئة مزلاج
ذى ثقب ثبّت فيه أسنان من الخشب تسقط فى تلك الثقب ، وكان
المفتاح يستعمل لرفع هذه الأسنان من الثقب ، ويؤدى فى الوقت
نفسه عمل المقبض للمزلاج ! وهذا ما يشاهد فى ريف مصر فى
الوقت الحاضر •

بعض العادات والتقاليد

من التقاليد التى كانت متبعة فى العصور الأخيرة أنه كان اذا
أخطأ رجل أو امرأة خطأ بسيطا أمرت المرأة أن تركع على
ركبتيه ، ثم تضرب على كتفها بعصا قصيرة ! أما الرجل فكان يطرح
أرضا منكبا على وجهه بعد أن توثق بداء ورجلاه من خلاف وينهال
عليه ضربا وجيعا ! •

ومن العادات المرعية أن الرجل اذا مثل أمام أحد العظماء
ينحنى وتلمس يده ركبتيه ! وكان ذلك هو الشأن فى أيام هيرودوت
الذى روى أن تلك الطريقة كانت هى الاسلوب السائد لتحية
العامة للعظماء ! •

أما اذا مثل أحد أفراد العامة أو أحد صغار الموظفين أمام
الملك فكان يختر على الأرض ساجدا وتلمس جبهته الأرض ، كما
يفعل المسلمون فى سجودهم فى أثناء الصلاة ! أما كبار الموظفين
فكانوا يكتفون ظهورهم ، وبخاصة فى عصر الاسرة الثامنة عشرة •

وكان اذا جاء ضيف منزل وجل لزيارته ، وكان متغيبا ،
سارعت ابنته الرشيدة لاستقباله وهى باشه ، طلقة الحيا ، مبدية
الود والسرور بمقدمه .

أما سلوك المصريين عامه ، وفى عهد الأسرة النابه خاصه ،
فاننا نستشعره من أقوال آتف ! فاستمع قوله :

انى ممن يحترمون الناس ، ويذللون لهم الصعاب التى
تعرضهم ، ويكتسبون ما فى قلوب الناس ، انى حازم ولبق اذا ما
عزمت على أن أحول دون حدوث ما يصيب الناس بالضرر ، أو
أسوى أمرا عسيرا ، انى طيب القلب ، ولست سريع الغضب
والانفعال ، ولست ممن يمسكون بتلابيب الناس ويطرحونهم
أرضاً ، مهما كانت الأسباب الداعية الى ذلك ، انى ممن يواسون
الحزانى ، بأن ألقى فى مسامعهم بالفاظ عذبة تسببهم أحزانهم . !

ويقول أنى وهو من أشهر حكماء الأسرة التاسعة عشرة :

اذا أردت أن تصلح بين المتخاصمين ، فأحسن انتقاء الألفاظ
التي تلقىها على مسامعهم ، فان الخطاب الجيد يميل قلوب الناس
إليه فيقبلونه قبولا حسنا ويعملون به ، واذا طهر الصديق قلبه
من الشرور ، حسنت أعماله ، وانتفع بها أصدقاؤه ، وأصبح بذلك
بمأمن من تقدمهم إياها ، فحذار من فقد صداقة الخلان .

ولقد كان المجلس المحلى للسراة مدرسة لآداب السلوك ! وفى

ذلك يقول الحكيم : اذا كنت رجلا ناجحا وعضوا في المجلس فاحصر
ذهنك فيما يبشر بالنجاح وان صمتك أجدى عليك من القاء الأقوال
جذافا من غير تبصر !•

ولقد كان من التقاليد المتبعة تقديم القرابين وصلوات الشكر
قبل اقامة الولائم • ولقد ذكر يوسف اليهودى (١) المؤرخ أنه
عندما استقبله بطليموس الثانى (فيلا دلفوس) أبعد المنادين
(Heralds) المقدسين وأولئك الذين يقومون بذبح الضحايا ، والذين
كانوا يتلون صلاة الشكر ، ولكنه استدعى القس اليزار (١) وطلب
منه أن يتلو صلاة الشكر ، فوقف بينهم ودعا فى صلاته للملك
ورعيته بالهناء والسعادة •

وكان من التقاليد المرعية آنذاك أنه اذا دعى بعض سراة
المصريين الى وليمة جاؤوا منزل الداعى فى عربات يحف بها الخدم
ذات اليمين وذات الشمال ، وذلك اذا كانت منازلهم تبعد عن بيت
الداعى بعض البعد ، أما اذا كانت قريبة منه ، جاؤوا مشيا على

(١) كان يعيش يوسف اليهودى فى الاسكندرية فى أوائل القرن الأول
الميلادى ، وقد ألف كتابا للرد على مطامع العالم السكندرى ابيون ضد اليهود ،
وقد نقل عن المؤرخ المصرى مانيثون جزءا من كتابه الذى ألفه للتحديث عن
الهكسوس ، وكان هدف يوسف من ذلك أن يثبت أن يهود مصر من نسل
ملوك الهكسوس الذين غزوا مصر وتربعوا على عرشها حقبة طويلة من الزمن ،
وقد تلاعب بالالفاظ كشأن أفراد قومه لتحقيق غرضه • ولقد خدم يوسف
تاريخ مصر من غير قصد ولا رغبة منه ، لأنه نقل لنا جزءا من كتاب مانيثون القيم
الذى فقدناه !

الأقدام ! وكان خدم الداعي يقفون في حديقة منزله مصطفىين لاستقبالهم ، وليقدموا لهم الشراب والفاكهة من أوان مرصوصه أمام باب المنزل ! ثم يرشدونهم الى مكان الوليمة ! •

فاذا ما جاءوه قدم لهم الخدم أواني مملوءة بالماء لغسل أيديهم ! وكانت أوان الماء الذي كان الضيوف يغسلون به أيديهم في الولايم الملكية من الفضة الخالصة ! وكانت تقدم للضيوف بعناية حتى لا ينسكب منها قطرة ماء على الطنافس ، فاذا ما اتخذ الضيوف مجالسهم ، طافت عليهم غادات حسناوات ليضعن أكاليل الزهور حول أعناقهم ،

= (١) هو الكاهن الأكبر لمعد اليهود في اورشليم آنذاك ! ويشير المؤلف الى مذكره يوسف اليهودي عن الترجمة السبعينية للتوراة ومؤداها أن الملك بطليموس الثاني أراد أن يترجم التوراة الى اللغة اليونانية خدمة ليهود الاسكندرية الذين كانوا يؤلفون جالية كبيرة كانت تسكن في دلتا (ومكاليه في الشاطبي العالي) فأرسل الى اليزاد كبير الكهنة بأورشليم ، رسالة يطلب فيها سبعين عالما ويقول يوسف أن هؤلاء عكفوا على ترجمة التوراة ، منزولين بعضهم عن بعض ، ولا أتموها بعد سبعين يوما ، قودلت تراجمهم بعضها ببعض فوجدت أنها تطابق بعضها بعضا ! وينسب دكتور ابراهيم نصحي الى أن « الشواهد التاريخية تدل على أن هذه القصة مخترعة لأن ترجمة التوراة امتدت طوال القرون الثلاثة السابقة ليلاد المسيح (انظر تاريخ مصر في عهد البطالمة • ج ١ ص ٢٧٠) •

اما بيفان فيذكر أن التوراة لم تتم ترجمتها كلها ، كما ورد في رواية يوسف اليهودي ، ولكن ما ترجم منها كان كتب القوانين الخمسة فقط (انظر Bevan : The Ptolemaic Dynasty, p. 112) ولعل السبب في ذلك يرجع نسيان يهود الاسكندرية آنذاك لغتهم العبرية وتفاههم باللغة اليونانية الامر الذي دعاهم الى طلب ترجمة القوانين الخمسة ، لانهم كانوا يحاكمون وفقا لقانون موسى •

ويضعن الدهون في هيئة أقماع مخروطية الشكل على رؤسهم
العارية أى على شعورهن المصفقة ، التي كانت تمتص الدهون
وكأنها قطع من الاسفنج سكب عليها بمض الماء ! كما كن يضعن
في يد كل ضيف زهرة من زهور اللوتس ! ثم تدار بعد ذلك
كؤوس الشراب عليهم ! •

وكانت الراقصات الهيفوات وعازفات الموسيقى والمغنيات
بشرح برقصهن وموسيقاهن وأغانيهن صدورهم ، ويضيفن على
الحاضرين جميعا جوا من المرح والسرور ! فلذا ما انتهت الوليمة ،
عرض المضيف على ضيوفه وهم سكارى نموذجاً لموميا في تابوت
طوله ذراع أو أكثر قليلاً •

وكان بلوتارك (١) يرى أنه كان يقصد بذلك حث الضيوف
على التمتع بمباهج الحياة الدنيا قبل أن يصيروا ان أجلاً أو عاجلاً
كهذه الموميا ! •

على أن هذا العمل كان يمثل ناحية من نواحي التفكير المنظم
الذي اتصف به العمل المصرى منذ القدم ، كما يتبين ذلك من
الأغنية التي كانت تغنى في أحفالهم ! •

(١) بلوتارك مؤرخ روماني عاش في أوائل القرن الثاني الميلادي ، جاء مصر
واقام فيها وكتب كتاباً عن العقائد والتقاليد والعادات المصرية القديمة ، وأهم
ما جاء في كتابه ما ذكره عن قصة ايزيس وأوزيريس •

صنع نصب عينيك التمتع بالموسيقى والغناء
واطرح جانباً أسباب الأسى والألم
ولا تذكر إلا المرح والسرور
حتى يحين يوم الرحيل

الى المكان (١) الذى يخيم عليه الصمت !

وهناك لون آخر من ذلك المزيج من الفرح والحزن والمرح
والأسى ، يتمثل فى أغنية مانيروس (٢) ، وهو الابن الوحيد لأول
ملك من ملوك مصر القديمة ، وقد خطفته المنون وهو غض الالهة !
ولقد خلد المصريون ذكره فى هذه الميثية الحزينة التى أطلق عليها
بعد ذلك : لحن أدونيس لفناء الكون ! .

هذا وتمثل الرسوم الموجودة على بعض الآثار المصرية
الضيوف وهم جلوس وليس أمامهم موائد (٣) ، بينما يقدم لهم
الخدم صحاف الطعام الواحدة تلو الأخرى ، ويذكر اثنايوس أنه لم

(١) يفصد القبر !

(٢) هذا هو تفسير هيرودوت لهذا النشيد ، ويضيف على ذلك أنه كان
ينشد فى فينيقية وقبرص وغيرها من الأقطار المجاورة لمصر ، وأنه يشبه النشيد
الذى كان ينشده الأفريق باسم لينوس ، ويعلق الاستاذ وهيب كامل على ذلك
بقوله : ان كلمة مانيروس يبدو أنها حورت من العبارة المصرية « ما - ان -
هرا » ومعناها جئنا ثانية . (انظر كتاب هيرودوت فى مصر فقرة ٧٩) .

(٣) يلاحظ ما سبق أن قلناه عن أرمان بهذا الخصوص راجع حاشية سنة

١٩٣ (ص ٥) .

تكن توضع للضيوف موائد على الاطلاق ، وانما كانت تقدم لهم صحاف الطعام ، وهو تقليد كان يتبعه سكان أقطار البحر المتوسط ، وأنه لا يزال متبعا في أسبانيا (١) حتى اليوم .

ولقد كان العشاء عند المصريين أفخر من العشاء عند الفرس !

ولقد كان في المدن المصرية في العصر الروماني حدائق عامة تقام فيها الولائم ، ويؤمها الرجال والنساء والأطفال للمرح والترفيه عن النفس ! وخير مثال لها حدائق اليوسس (Eleusis) (٢) وحدائق كانوبس (Canopus) (٣) بضواحي الاسكندرية ! وفيها كان روادها ينغمسون في حياة بوهيمية اباحية صاخبة ، فكانت ترى جموعا من الرجال والنساء آناء الليل وأطراف النهار ، يستقلون الزوارق ، وقد أطلقوا لأنفسهم العنان في الغناء والرقص ، مع

(١) استرابون : الكتاب الثالث .

(٢) مكانها الآن المنطقة التي تشغلها أحياء الابراهيمية واسبورتنج والحطيرة وحدقة النزهة ، وكان قسمها الشمالي يعرف باليوسيس الحمامات .

(٣) وهي ضاحية أبو قير الحالية ، التي كانت مزدهرة في العصرين لاغريقي والروماني ، وسميت بذلك لأن فرع النيل المسمى الكانوبي كان يصب في البحر على مقربة منها ! وكان بها معبد للاله سيرايس ذاعت شهرته في هذين العصرين وكان يقصده المرضى طلبا للشفاء ! وقد مكنها بعض القديسين في العهد المسيحي ومنهم القديس الأنبا كير الذي اشتقت من اسمه اسم الضاحية أبو قير . هذا وقد أخذت المدينة تضيق عتدا عندما اتسد الفرع الكانوبي ، وتحول الى فرع رشيد !

التحرر التام من كافة حدود السلوك القويم والتقاليد المرعية (١) ! •
ولقد كانت تقام فى الجبانات ولائم جنائزية ، ومازلنا الى
اليوم نرى بعض الأسر تزور مقابر أمواتها احياء لذكراهم ، وتقضى
بعض الوقت فى غرف خاصة ملحقة بها ! •

تعداد السكان

لقد حفظت لنا الآثار المصرية عددا كبيرا من القوائم الخاصة
بتعداد بعض الأسرات فى عصر الأسرة الثانية عشرة ! ومن ذلك على
سبيل المثال لا الحصر بيان بأسماء أفراد أسرة هيرا ابن الجندي تحوتى
بالفرقة الثانية من الفرو النظامية العسكرية بمدينة « وعسرت »
الشمالية (٢) • ومن بين أولئك الأفراد زوجته شبنست ابنة سات
سيدو ، وابنه سنفرو ، ووالدته حار أختى (Harakhni) وأחותه
كات سنوت ولكتن وايزيس ورودت وسات سنفرو ! •

ولقد عثر على قائمة بأفراد أسرة سنفرو بن هيرا يرجع تاريخها
الى السنة الثالثة من حكم الملك سخم كارع ، ذكر فيها اسم أمه ،
واسم جدته ، واسماء عماته ! •

(١) كان أهل الاسكندرية يستملون القوارب بعد تزيينها بمختلف الزينات ،
ويتجهون بها شرقا نحو مدينة كانوب سالكين قضاء كانت تصل بينهما وبين
الاسكندرية ، وسط مظاهر الفرح والبهجة والسرور وكان كثير من الموبقات
ترتكب فى تلك القوارب حتى ذاعت شهرة هذه الملاهى الماجنة ، حتى اطلق على
جميع أنواع الملاهى الماجنة آنذاك اسم ملاهى كانوب الفاجرة •
(٢) مكانها بلدة سان الحجر الحالية جنوب بحيرة المنزلة •

وقد أدى أفراد تلك الأسرة يمين الولاء والطاعة للملك في
حضرة الوزير وأحد العظماء العشرة للموجه القبلى وكان يدعى
متومحات وثلاثة آخرين ، ثم سجلت أسماؤهم فى سجل خاص !
وكانت أفراد كل أسرة تسجل مرة أخرى فى العام التالى لوفاة ربها ،
باعتبار أن ابنه أصبح ربها وعائلها ! وبعد مرور عامين على وفاة
العائل الأول كان أفرادها يؤدون يمين الولاء أمام الوزير نائباً عن
الملك ! وبحضور أحد أعضاء مجلس الثلاثين ، وثلاثة من المسجلين
الرسميين كشهود ! •

وهذا يبين مدى الدقة التى وصل إليها نظام التسجيل فى مصر
القديمة ، حتى فى حالة عدم وجود ثروة أو ممتلكات لعائل الأسرة
المتوفى !

وكان التسجيل قد شمل جميع أفراد الأسرة بما فيهم الأطفال
وهم فى مهودهم ! •

ولقد كان أساس الأسرة المصرية يرتكز على نظام الأمومة
فقد كان الزوج سواء أكان موظفاً أو تاجراً أو زارعاً ، يتبوأ مركزاً
ثانوياً فيها ، وكانت الزوجة تتبوأ مركز الرياسة فى تدبير شئونها ،
كما كان البيت أمانته ورياشه ملكاً لها ، وإذا ماتت ورثها بناتها
لا أبناءها ! ولهذا كان زواج الأقارب محبباً ! ولا يزال حتى
وقتنا هذا زواج بنات الأعمام بابناء أعمامهم مفضلاً على زواجهم من
الغريباء ! ولعل علة هذا حرص الأسر على ألا تتوزع ممتلكاتها بين

الغريباء ! فتنصم عراها ! وفى ذلك يقول ديودورس المؤرخ المشهور:
لقد كان القانون فى مصر خلافا لتقاليد الشعوب الأخرى كافة
يجيز ان يتزوج الاخوة من أخواتهم(١) ! وقد ورد فى قصة
ستنا (Setna) ما يأتى : ليس لى الا هذين الطفلين فمن الصواب
أن يتزوج أحدهما الآخر . ولقد قال روماني : انك فى أننا تستطيع
أن تتزوج أختك من أمك أو أبك ، ولكن فى الاسكندرية تستطيع
أن تتزوج من شقيقتك ! وينبغى لنا أن نذكر فيما يختص بعادة
زواج الأخ من أخته عند قدماء المصريين أن تلك العادة لم تكن
مقصورة عليهم بل كانت سائدة فى أقطار كثيرة من فارس الى
بريطانيا ! على أن موانع الزواج من الأقارب التى نظمها العرف
ثم القانون لم تنشأ الا فى العصور التاريخية المتأخرة . وتعتبر نظم
الزواج من أحدث نظم الحياة التى خضعت لسلطان القانون ، ولقد
أدى نظام الأمومة القوي المتين فى مصر القديمة الى أن تأول الثروة
العقارية كما قدمنا الى النساء دون الرجال ! وكان ذلك من
الحوافز القوية التى أغرت الأخوة بالزواج من أخواتهم لكى

(١) قد يبدو من الغرابة بمكان زواج الملك سنفر وريمسيس الثانى من
ابنتيهما ، ولكن كما يقول المؤلف : ان هاتين العاليتين كانتا الوحيدتين لهذا
النوع من الزواج فى التاريخ المصرى القديم كله ، وبذلك يكون ذلك استثناء
لا قاعدة وعلى ذلك لا يتنبهى أن يقال أن المصريين القدماء كانوا يتزوجون
بناتهم !

ولا نعلم حتى الآن علم اليقين السبب الذى حدا بهما الى هذا
الزواج !

يحفظون بالميراث ، اذ كان الزواج من الأخت يؤدي الى الجمع بين ممتلكات الأم وميراث الأب ، أما فيما يتعلق بزواج الأب من ابنته فليس لدينا أمثلة لذلك في حياة عامة الناس ، ولكن لدينا مثلين مؤكدين في حالتى ملكين من عظماء الملوك ألاوهما سنغرو ورمسيس الثانى فقد تزوج كل منهما ابنته ! •

وقد يكون وراثه العرش مفصوره على فرع الأمهات فى عصر ما قبل التاريخ ! ولكن فى عصر الأسرة الأولى كانت الوراثة محصورة فى الأبناء • أما فى عصر الأسرة الثانية فقد اعترف بحق النساء فى تولى الحكم نتيجة لسيطرة اتباع الاله ست على سياسة الدولة (١) ، وبذلك استرد البنات حقهن فى عصر وراثة العرش عليهن دون الأبناء • ولم يتول سنغرو أول ملوك الأسرة الرابعة العظام الا لأنه تزوج بابنة آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة (٢) • ولكن لم تلبث أن أصبحت وراثة العرش قاصرة على الأبناء ، وفى عصور الاسرات الحادية عشرة والثامنة عشرة والثالثة عشرة بخاصة ! ولكنها عادت فصارت حقا للنساء ، فى عصور

(١) يرى بعض المؤرخين ان اتباع الاله ست الشرير كانوا يعتقدون هذا المبدأ تشبها بالهيم ست الذى تزوج اخته نفتيس ! ومع ذلك فلم يكن هريبادا أن يتزوج ست من اخته فقد تزوج الاله أوزيريس الغير من اخته ايزيس كما جاء جاء فى قصة ايزيس وأوزيريس وست المشهورة •

(٢) لقد تزوج سنغرو من حبيبته حرس ابنة سلفه الملك حو وأعقب منها الملك خوفو العظيم •

(٣) يرى البعض أن النساء ظلن يتمتعن بذلك الحق فى عهد الاسرتين الثامنة والعشرين والثالثة والعشرين •

الأسرات النعنه عشرة والتاسعة والعشرين والواحد والعشرين (١)
وما كان تولى ملوكها العرش مرهونا بالزواج من وريثاته الشرعيات .
وقد ابتدعت الأسرة الخامسة والعشرين قانونا يقضى بمشاركه
الأخوات اخوتهن فى وراثة العرش حتى ولو كن كاهنات ! ولقد
كان يتبع هذا النظام نظريا فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ! فقد
كان الملوك يتزوجون زواجا سوريا من وارثات العرش ، قبل توليه !
وقد كان الملك بقيم فى مقر الملك فى الشمال بينما تقيم الملكة شريكته
فى الملك فى طيبة متربعة فى منصب كاهنة عظمى ! ولم يكن آنذاك
مانع قانونى بحول دون الملك وزواجه من أخرى ! وكثيرا ما كانت
أولئك الملكات الكاهنات تبين قيات اذا لم يكن لهن ناث ! .

ويرى بعض المؤرخين أن قميز ملك الفرس عندما طلب القربى
من ملك مصر امازيس (٢) بالزواج من أحد بناته كان يهدف الى
أن يصير لأبنائه منها الحق فى تولى عرش مصر . ولما فتح قميز مصر
كان عزاء المصريين أنه تمت الى ملوكهم بصلة النسب (٣) .

(١) يرى البعض أن النساء ظلمن يتمتعن بذلك الحق فى الاسرتين الثامنة
والعشرين والثالثة والعشرين أيضا .

(٢) هو الملك احمس الثانى من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ! وقد كان
أحد كبار الموظفين فى بلاط سلفه الملك ايريس فعاصر عليه ونجحت المؤامرة ،
فنهض وخلفه على عرش مصر .

(٣) يقول هيرودوت أن قميز أراد أن يتقرب من الملك امازيس (هكذا
ينطق الاغريق لفظ احمس المصرى) فأرسل اليه يطلب يد ابنته ، فأرسل اليه
الاميرة نيتيتس ابنة الملك الخلوخ ايريس بدلا من ابنته ، وأن قميز كشف
خدعته ، فحلف قميز أن يعاقبه عقابا صارما .

ولما تولى البطالة حكم مصر اتبع ملوكهم نظام الزواج من أخواتهم ، فتزوج بطليموس فيلادلفوس أخته أرسينوى على الرغم من استنكار مواطنيه المقدونيين ذلك ! واستمر اتباعهم لذلك التقليد طوال عهد حكمهم لمصر ، فكان العرش والحال هذه كملكات الأسرة الأخرى يتوارثه عمليا أو نظريا فرد من أفراد فرع الأم ! وكان يتزوج الاخوة أخواتهم الشقيقات أو غير الشقيقات الوارات الشرعيات للعرش ، ليصبحوا ملوكا ممثلين الاله رع أو الاله آمون على الأرض ! فلقد كان معنى اسم الملك توت عنخ آمون ، الصورة الحية لآمون ! ولما ادعى الكهنة المصريون أن الوحي نزل عليهم وانبأهم بأن الابسكندر هو ابن الاله آمون صدقهم المصريون فتوطدت دعائم سلطان ذلك القائد المقدوني المظفر على عرش مصر •

وكل ما سبق ذكره يتعلق بالناحية السياسية المبحثة الخاصة بوراثة العرش ! ولا علاقة له بمن يتخذهم الملوك زوجات لهم من نساء مصر ، أو من بنات الأمراء أو الملوك الأجانب اللاتي يتزوجوهن زواجا سياسيا • ومن أشهرهن الفجر ابنة ملك الحبشين التي أضفى عليها لقب « الزوجة الملكية العظمى » سيدة الأرضين معات نفرو رع ، (Moat-nefro-Ra) ابنة عاهل خيتا (١) العظيم •

(١) خيتا هي التسمية المصرية القديمة للحيتيين •

ولقد صوب حياه الحریم على آثار تل العمارنة ، فرى فى الصورة
الفتيات الحسنات یرقص بعضهن ، ويعزف على الآلات الموسيقية
بعضهن ، ويصفف بعضهن سعورهن ، وتناول بعضهن الآخر الطعام !
كما ترى بعض غرف المنازل وقد صفت فيها المقاعد وزينت بالمرایا !
ووضعت فى جوانبها الصناديق !

ولقد كان تعدد الزوجات متبعا بين ملوك مصر كما كان متبعا
بين معظم ملوك الأقطار الأخرى !

ولقد برهنت الحوادث ومجريات الأمور فى عصور كثيرة على
أهمية زواج الملوك المصريين بأميرات أجنبيات كرابطة من أقوى
الروابط وأفضلها ، التى من شأنها أن تدعم المحالف السياسى بين
مصر والأقطار الأخرى .

وقل أن رى أطملا من زوجتين أو أكثر لأسر الطبقات العالية
التى تركت آثار مسئلة فى عدد من التماثيل ، غير أن أكبر مجموعة
من تلك التماثيل الأثرية ، تمثل زوجة رب الأسرة الأولى ، وكانت
عاقرا ، وبجانبها خمس زوجات أخريات لهن كلهن أطفال ، وكان
عددهم اثنى عشر ، خمسة بنين وسبع بنات . ويبدو أن الزوجة
الأولى تزوجها رب الأسرة على الرغم من أنها لم تكن آنذاك فى
مقتبل العمر لأسباب اجتماعية ، اذ أنها كانت احدى المزيّنات
الملكيات ، على أن تعدد الزوجات لم يقف عقبة فى مصير الأبناء ،

فقد كانوا يعتبرون جميعا أبناء شرعيين ، مهما كانت منزلة الأم التي أنجبتهم ! على أن الكهنة أو القساوسة كانوا يتزوجون بواحدة ! وكذلك كان الشأن بالنسبة لعامة الشعب !

ولقد كانت حقوق الوراثة الشرعيين تحاط بعناية كبيرة فقد كانت تحددها وتبينها وثائق ومستندات رسمية ! ولقد عثر الباحثون على وصية لأحد أبناء خفرع أحد ملوك الأسرة الرابعة وباني الهرم الثاني ، يوصي فيها لابنته بضيعتين ، ولما توفيت وهو على قيد الحياة ، أوصى بها لزوجته ، أما ممتلكاته الأخرى في أربع عشرة قرية من قرى الريف ، فقد أوصى بها لزوجته وأبنائه موضحا فيها نصيب كل منهم ! *

ولدينا بعض الوصايا والوثائق في حال جيدة ترجع الى عصر الأسرة الثانية عشرة ، منها وثيقة يرجع تاريخها الى السنة التاسعة والعشرين من حكم الملك أمنمحات الثالث تتضمن شراء آحى سنبل ابن شبت أمراةين اسيويتين من قبيلة العامو وطفليهما ، وقد وجدت مسجلة في مقبرة الوزير ختي *

وبعد ذلك بخمسة عشرة عاما أى في السنة الرابعة والأربعين من حكم ذلك الملك نفسه ، نجد وثيقة تملك ، أو وصية ، أوصى فيها آحى سنبل والشهير بغنخ رن بجميع ضياعه وممتلكاته الأخرى من منازل وعقارات أخرى وما ملكت يده لأخيه ورفقاء حياته المخلصين *

ويبد وأن آحى سنب صاحب الوصية قد توفي بعد كتابه وصيه
بوقت قصير ، ويتبين ذلك من تسجيلها بعد مضي أربعة أشهر في
مصلحة السجلات ، ومن تسجيل أخيه واح وصية يوصى فيها بجميع
ما أوصى له به أخوه لزوجه شفتوتيتا (Sheftu-Teta)
وذلك بعد مضي خمسة أيام فقط من تاريخ تسجيل وصية آحى
سنب ! ومما ذكره واح في وصيته لزوجه انها حرة في أن تهب ذلك
الميراث حال حياتها أو توصى به بعد موتها لمن تشاء من أبنائها الذين
انحدروا من صلبى ! ومنها انى أوصى لها بالاربع الاماء الاسيويات
من قبيلة العامو اللاتى ورتهن من أخى « عنخ رن » وهما الرقيقتان
وابنتاهما اللاتى سبق ذكرهن ، ولا بد أن تكون الابتان قد بلغتا آنذاك
السابعة عشرة) •

ثم يوصى بأن يدفن في مقبرته الخاصة ، ومعه زوجته دون
سواها ! •

وقد عين صديقا له يدعى جيو وصيا على ابنه ، وبأتى بعد
ذلك أسماء الشهود الثلاثة على ما جاء بهذه الوصية ! •
وهذا يلتقى بعض الضوء على نظام الرق فى مصر القديمة (١)

(١) لقد انتشر نظام الرق فى مصر فى عصرى الدولتين الوسطى والحديثة ،
لانهما كانا عصرى الفتوحات المصرية العظيمة التى شملت ربوعا كثيرة من الشرقين
الادنى والاولى وقد هادت الجيوش المصرية الظافرة بعد استيلائها على اقطار
كثيرة بعدد كبير من الاسرى - رجالا ونساء وأطفالا - فكانوا يباعون ويؤجرون ،
شانهم شان السلع والبضاعات • وكان الملك الغازى يتركهم لمن اسرهم تارة ،
وتارة يوزعهم جميعا على الجنود الغازين جميعا •

ذلك أنه كان لكل من هاتين المرأتين الرفيقتين من العامو طفلة واحدة
وقت شرائها ، وبعد مضي خمسة عشر عاما ظل عددهن في الوصية
الثانية أربعاً ولم يذكر معهن أطفال آخرون ! وهذا دليل قاطع على
أنهما لم يتزوجا ، ولم يتسرى بهما أحد .

وان أقدم وثيقة لعقد الزواج المصرى عثر عليها الأثريون يرجع
تاريخه الى سنة ٥٩٠ ق.م وبما أن نصه يتفق تماما مع نص عقد آخر
عثر عليه ويرجع تاريخه الى سنة ٥٥٠ ق.م ، فانا نرجح أنهما كانا
نموذجاً ظل متبعاً حقبة طويلة . وفى هذا العقد نص على أن « ا » قد
حضر الى منزل « ب » ليطلب يد ابنته (ج) ، على أن يقدم
(ب) ٦ أوقيات من الفضة وخسين مكيلا من الحنطة كدوطة لابنته
« ج » ، وأن يتعهد (ج) بأنه اذا هجر زوجته (ج) كارها أياها ،
أو بسبب رغبته فى الزواج بأخرى ، يقوم برد الدوطة ، ويستثنى من
ذلك هجره أياها لارتكابها جريمة الزنا ! وبأن يورث من نتيجته له
من الأطفال نصيبا يذكر مما تركه له والداه .

ولقد كانت تلك « الدوطة » تقدر بحوالى عشرين جنيها
مصريا (١) .

ولقد قدرت دوطة أخرى بنحو ثلاثين جنيها ! .

(١) مقدرة بما يساويه الجنيه المصرى وقت تأليف الكتاب أى فى سنة ١٩٢٣م

وقد تسلمت إحدى البنات عند زواجها ، من أبيها دوطه
فدرت يكات واحد أى بحوالى جنيه واحد ! وقد تعهدت بدفع
نصف مقدار الدوطة فوق الدوطة نفسها لزواجها اذا هجرته ! .

ولقد كانت صيغة الطلاق المصرى كالآتى : لقد هجرتك
كزوجة لى ، وانتى أفاروك وليس لى مطلب على الاطلاق ! كما
أبلغك أنه يحل لك أن تتخذى لنفسك زوجا آخر متى شئت ، وفى
عقد زواج ليهودى من اليهود الذين كانوا يسكنون الفنتين (١)
يرجع تاريخه الى ٤٤٢ ق . م ما يأتى .

آشور يتزوج مفتاحيا ابنة محسيا . ويعطى محسيا الزوج
خمسة شاقل (٢) « ويعلق على ذلك بقوله له « لقد تقبلت هذه الهبة
وأطمأن قلبك الى ذلك ، ويقدم محسيا لابنته الملابس وأدوات الزينة ،
كما يقدم للزوج هدايا محددة أثمانها فى العقد ، فإذا مات آشور
من غير أن ينجب من مفتاحيا فسوف يؤول اليها كل أملاكه ! والأمر
بالمكس ! .

(١) هى جزيرة واقعة أمام مدينة أسوان ، وقد سماها الأفريق بهذا الاسم
وهو تحريف للاسم المصرى القديم أبو أى جزيرة الفيل ، وقد يكون السبب فى
ذلك كثرة من الفيل بها فى عهدهم ! ولأن يقطنها جالية يهودية كبيرة فى العصر
الفارسى .

(٢) الشاقل عملة بابلية تساوى نصف أوقية من الفضة تتراوح قيمتها
بين ريالين ونصف الريال وخمسة ريالات وكانت هذه العملة منتشرة فى فلسطين
والشام ! ويبدو أن سكان فيلة اليهود وقد جاعوها مطرودين من بلادهم بعد
أن دمرها ملوك بابل وآشور ، قد احتفظوا بالتعامل بتلك العملة البابلية .

وإذا متلت الزوجة أمام القضاء وقالت : انى أطلق آشور زوجى
فان عليها آنذاك أن ترد له الشاقلات الخمسة ، كما تدفع له كلما
أعطاه لها من نقود وتعيد له ما قدمه من هدايا ! وعندئذ تكون حرة
طليقة تذهب الى حيث تشاء ! والأمر بالعكس •

أما اذا طرد آشور مفتاحيا من بيته من غير أن يطلقها حق
عليه أن يدفع لها مبلغا وقدره عشرون كبهز (Kebhes)

ويقر آشور فى العقد أنه لا يحق له أن يصرح بأن له زوجة
أخرى غير محسبا ولا بنين غير بنيه منها ! واذا ما صرحت بذلك فانه
يجب على أن أدفع لها خمسة عشر ضعف ما لها :

ثم يلى ذلك توقيع أربعة شهود :

كما وجد عقد زواج آخر يرجع تاريخه الى عصر البطالة ،
تشابه شروطه العقد السابق ! ففيه قدم الزوج الى الزوجة
مهر مقدار خمسة جنيهات (١) ، وتعهد أن يعطيها راتبا شهريا مقداره
عشرة شلنات ثمنا لأدوات زينتها ، ومثله لنفقاتها الشخصية ! وفيه
يقول للزوجة : ان ابنك البكر منى سوف يرث كل ما أملك من
عقار فى الحاضر والمستقبل وانى أقر واعترف أنك زوجتى ، فاذا
أهملتك أو اتخذت لنفسى زوجة أخرى غيرك فسأدفع لك ما يساوى

(١) مقدار القيمة بالجنيه المصرى وقت صدور هذا الكتاب سنة ١٩٢٣ •

مائة من الجنيهاً (١) ، كما أقر أن عقود التملك الخاصة بنصف
ممتلكاتي التي ورثتها عن أبي ، وكذلك عقود الممتلكات التي ورثتها
من أمي سوف تؤول اليك .

ولم يرد في العقد شيء خاص بالطلاق ! ولكن جاء ذكر غرامة
يدفعها الزوج في حالة فسخ عقد الزواج ! وفي عقد آخر كان المهر
سبعة جنيهات وغرامة هجر الزوجة ثلاثين جنيهاً (٢) وقد عثر على
وثيقة زواج يرجع تاريخها الى العصر القبطي وكانت لابن أحد
القساوسة ، جاء فيها :

بما أن مشيئة الله قد اقتضت أن يرتبط أحداً بالآخر برباط
الزواج المقدس الصحيح وفقاً لتقاليد الرجل الحر والمرأة الفاضلة ،
فاني أعطيك مهراً مقداره ستة عشر شلناً (٣) ذهباً ، لكى تصحى الى
بنتي كأمرأة حرة ، على أنى أقدرك كأنك قطعة منى ، فلا أقلل من
شأنك ولا أهملك ، ولا أهجرك الا اذا اضطررتى سبب شرعى هام (٤)
فاذا حدث ذلك فساقوم بدفع سبعين شلناً لقاء ذلك ! وبالعكس .

وهذه المبالغ مقدرة قيمتها بالعملة الحالية تساوى ثمانية جنيهات
للمهر ، وثلاثين جنيهاً للطلاق .

وكما نجد عقداً يرجع تاريخه الى القرن الثانى عشر ، ينص

(١) ، ٢ ، ٣) بالعملة المصرية فى سنة صدور الكتاب وهى سنة ١٩٢٣ .

(٤) لعله يشير الى رهينة الزوج .

على أن المهر مائة سوليدى أى خمسمائة جنيه ، على أن يدفع خمسها
فورا ، ويدفع الباقي فى خلال خمس سنوات •

وهناك عقد يرجع تاريخه الى سنة ١٢٨٠ م ، وشروطه مطابقة
لشروط العقد السابق !

من هذا نرى أن المصريين كانوا يعتقدون فى جميع عصور
تاريخهم المختلفة حتى العهد المسيحى ! أن وثيقة الزواج لم تكن
الا عقداً كثيره من عقود الصفقات التجارية الأخرى خسارة فادحة
للطرف الذى يقوم بفسخه !

وكثيرا ما كان ينص فى العقد على اعادة قيمة ما دفع من المهر
والهدايا فقط من غير جزاء على فاسخه ! ولكن ما جاء القرن الرابع
للميلاد حتى كثر النص فى العقود على غرامات كبيرة لمن يقوم
بفسخها ! ولعل ذلك التغير يرجع الى التأثير الاغريقى !

وليس فى كل عصور التاريخ المصرى حتى فى العصر المسيحى ،
أثر ما لزواج دائم أبدا ، لاتنقسم عراه ، كما أنه لم تستدل على
ما يشير الى اقامة أحفال دينية خاصة بالزواج ، أو الى وجود نوع
من الطقوس خاصة به ! وربما كان هناك أحدهما أو كلاهما ، ولكن
لم يسجل عنهما شئ مطلقا لا فى عصور مصر الفرعونية ولا فى
عصر البطالة الذين كانوا يعنون بعناية كبيرة بالحفلات المختلفة !

ويقول ديودورس :

لقد كانت عقود الزواج في مصر تنص على منح الزوجه السلطة على زوجها ، وكان الازواج آنذاك يتعهدون باطاعة زوجاتهم في كل ما يؤمرون به .

على أننا لم نعر على أى أثر يدل على ذلك فى العقود التى نعرفها ، ويحتمل أن يكون منشأها مبالغة لاحدى الزوجات الوارثات بادعائها حق القيام بادارة ممتلكاتها بدون معارضة أحد من أقارب زوجها .

وعلى الآثار المصرية نرى الزوجة المصرية على قدم المساواة مع زوجها ! وقد كانت الزوجة فى اعتقاد المصريين ضرورية لزوجها فى الحياة الآخرة ! وقد كان يوضع فى قبور الرجال تماثيل أو رسوم لزوجاتهم ، واذا عز ذلك كان يستبدل بها نماذج من الفخار عليها صورة الزوجة ! .

ولقد منح القانون للمرأة المصرية حرية التعامل اذا كانت تعرف القراءة والكتابة . . . واليك مثل لذلك أورلياثيسوس (Aurelia Thaisous) وشهرتها لوليانا ، ابنة أحد كتبة الأسواق المتقاعدين ، تذكر فى طلب لها لجهة من جهات الاختصاص أنها قادرة على الكتابة بسهولة تامة ، ولهذا فان من حقها أن تتصرف فى شئونها بنفسها . وبعد مضى أربعة أعوام ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ ق م نجدها قد قامت بشراء منزلين وقطعة من الأرض .

ولما كان الزوج مسئولاً عن الوفاء بديون زوجته ، فقد كان السبيل آنذاك الى التخلص من الأفلاس أن يقوم بطلاق زوجته ، بعد أخذه لما دفعه لها من مهر ، ثم تعلن إفلاسها فيما يختص بممتلكاتها (١) ، ثم يعود فيتزوجها ثانية ، على أن يحرر وثيقة ، قبل اتمام عقد الزواج الثانى تخوله حق الحجز على ممتلكاتها بحيث اذا حدث طلاق جدى بينهما فيما بعد لا يفقد الزوج حقه فى المطالبة بقيمة الصداق الذى دفعه للزوجة • على أن الحقوق الشرعية لذريتهما كانت تلقى كل رعاية خلال تلك التطورات •

وكان فرع الأم يوضع موضع الاعتبار الأهم فيما يختص بالنسب ! فقد كان اسم الأم يذكر دائماً ، أما اسم الأب فكثيراً ما يغفل ذكره ! وكان الابناء اذا اتسبوا يذكرون اسماء أسلاف أمهاتهم ، لا أسلاف آبائهم ! ولم يكن الأب الا حامل لقب ، أما الام فكانت واسطة عقد الاسرة ! ويستثنى من ذلك شافلى بعض الوظائف التى يرثها الأبناء بحكم القانون عن آبائهم أباً عن جد ! فانهم كانوا ينسبون الى الآباء لا الأمهات وكانت الممتلكات العقارية يرثها الابناء عن الأمهات سيدات البيت !

(١) فى ذلك العهد كانت بركة الاب تنتقل بعد موته الى اولاده وأولاد اولاده ، ولم يكن هناك قانون يمنع توريث الحفيد اذا مات أبوه ، كما كانت التركة تؤول اذا لم يكن للمورث اولاد ولا احفاد الى الاخوة والاختوات كما كانت انصبة الاولاد فى الميراث متساوية ، ولم يكن هناك تمييز بين الذكور والاناث •

ولقد كانت مكانة الحال ووالد الأم تسمو مكانة العم ووالد
الأب •

ولقد رأينا في الفصل الأول أن توارث مختلف الصناعات
والحرف لم يتقيد قط بنظام الطبقات ، بيد أن العرف كان يقف
أمام كل شخص حائلا إذا أراد الخروج عن نطاق مهنة والده ...

ولقد كانت الوظائف الدينية بخاصة يرثها الأبناء عن الآباء
بسبب ما تتطلبه إقامة الطقوس والشعائر الدينية من تدريب دقيق
فضلا عن أنها كانت دائما موضع التبجيل والاحترام ومصدر هبات
ومنح لتقليديها ! ولقد كان أهم استثناء لهذه القاعدة تنصيب الملك أحد
أبنائه في منصب من المناصب الدينية الرفيعة كمنصب الكاهن الأكبر
لمنف أو هليوبوليس ! .. ويحدثنا أحد الكهنة في عصر الأسرة
التاسعة عشرة بقوله :

لقد تعطف الملك وقرر بعدما تبين له أن أبنائي قد انحدروا
من صلبى أن يعينهم كهنة يعملون تحت رعايته السامية • اننى
الكاهن الأكبر للاله آمون ، فأصبح ابنى كاهنا ثانيا لى فوق وظيفته
كمدير مساعد للقصر الملكى ! وسوف يمنح حفيدى منه ألقاب
الكاهن الرابع لآمون والأب المقدس ، والقس •

ولقد شاهد هيرودوت فى منف مجموعة من التماثيل الحشوية

يبلغ عددها ٣٤٥ تمثالا ! وقد أخبره مرشده أنها لكبار كهنة الاله
بتاح ، الذين توارثوا هذه الوظيفة ابنا عن أب ! •

وقد كان منصب الكاهن الأكبر لبتاح في العصر الروماني
مفصورا على الابن الأكبر وكان الابناء الآخرون يعدون خارجين على
القانون ان هم أحدهم يتولى ذلك المركز •

ولما كانت ورائه العقارات الثابتة تنحدر عن طريق الأم ، كان
من الطبيعي أن يقع واجب كفالة الوالدين احدهما أو كليهما على
عائق بناتهما دون أبنائهما ! •

ولقد كان هذا الأمر من الأمور التي أثارت دهشة الاغريق
الذين كانوا يزورن مصر •

ولقد سبق ذكر قصة ابن الملك خفرع (١) وما ورثه من
ممتلكات عقارية وهناك حالة لاحقة لذلك التاريخ تختص بكاهن يسمى
« نكعنخ » (٢) الذي كان له الحق في أن يوصى بما يشاء من أملاكه!
لقد أراد نكعنخ هذا أن يوصى بضيعتين يملكهما لأولاده من بعده

(١) كان كاهن لالهة حاتحور في عهد الاسرة الخامسة ، وقد اشتهر بذلك
الوصية التي سجلها على احد جدران مقبرته ! وقد ذكر فيها أن ملكيته لهذه
الاراضي يرجع الى عهد الملك منقرع ! وانه عين كاهن في عهد الملك اوسركاف .
(٢) ورث من جده وكان يدعى خنوكا احدى هذه القبياح ! وتقدر مساحتها
بنحو ٤٠ فدانا أما الضيعة الاخرى وكانت مساحتها نحو ٤٠ فدانا أيضا وحببت
له كمرتب من الدولة مقابل قيامه بأعباء وظيفة كاهن لالهة حاتحور •

على أن يقسمان بينهم بالتساوى ، كما أوصى أن يقوم كل منهم
بوظيفة كاهن التى يشغلها لمدة شهر بالتناوب (١) ! وإلى جانب ذلك
وضع شروطا للتصرف فى أملاكه الخاصة (٢) .

وفى عصر الأسرة الثانية عشرة كان العرف يفرق بين الضياع
التى يرثها الأشراف عن آباؤهم التى كان يحق لهم أن يوصوا بها
لأبنائهم ، وبين الضياع الحكومية التى كانت يمنحها لهم الملك طول
حياتهم جزاء لهم على اخلاصهم وولائهم له ! .

وكثيرا ما كان الأب المورث ينص فى وصيته عدم تصرف
الورثة فيما تركه لهم من ممتلكات بالبيع أو التجزئه كما لو كانت
موقوفه ! وكان يذكر فى بعض عقود التوريث « انها موروثه
لشخص واحد ، ولا تورث الا لشخص واحد » وكان أحيانا يعين
الشخص الثانى بأن ينص على أنه « الحفد ، أو الحفيدة » ! .

(١) وصح تكميح فى وصيته التزامات وظيفته بوصفه كاهنا أعظم للالهة
حاتحور فى يد جماعة من أسرته تحت اشراف امه الاكبر ، وبذلك أصبح جميع
أولاده يستفيدون من وظيفته ، على أن يقوم بالعمل بأعباء وظيفه الكاهن الأعظم
للالهة حاتحور ، كما دزع بينهم القيام بالشعائر الدينية التى يوجب ثوابها
لجده شلوكا الذى ورث عنه الخيمة الأولى .

(٢) كان تكميح يملك عشرين فدانا اوقعها على ان يصرف ربعها على اقامة
شعائر دينية يوجب ثوابها له بعد وفاته ، ووكّل مهمة القيام بها لاربعة من أولاده
لم يذكرها فى الوصيتين السابقتين ، ويبدو أنهم من أم شير أم ابناله الذين
ذكروا فى الوصيتين !

وكان من أهم واجبات الابناء تقديم القرابين الى أرواح آبائهم
وأجدادهم كما هو الشأن الآن فى الصين والهند . وكان الابن الأكبر
يلقب بمائل أمه (ايون - موت - اف) وكان يلبس جلد النمر
عندما يقوم بتقديم القرابين الجنائزية لروح والده ! •

وفى ذلك يقول الأمير زاو الثانى (١) :

لقد احتفلت بدفن والدى الأمير زاو فى موكب هخم فوق كل
مواكب الأحفال التى أقيمت لأقرانه من أمراء الجنوب ! فلقد توسلت
فى ذلة وخضوع السائل الى صاحب الجلالة ملكى نقر كارع ، عاهل
الوجهين القبلى والبحرى أن يأمر بصرف تابوت وأقمشة ، وفدر من
العطور من الخزانة الملكية من أجل والدى زاو المتوفى زد على ذلك
أنى هيات كل شىء بحيث يجمعنى وأبى زاو مقبرة واحدة حرصا
منى على البقاء دائما الى جواره • ولم يمنعنى من بناء مقبرتين
احدهما له والأخرى لى ، نقص فى مواردى المالية ، وانما دفنى الى
بناء مقبرة واحدة رغبتى فى التمتع برؤيته كل يوم •

ولقد منح زاو الثانى كل ما طلبه من ملكه فى سهولة ويسر ،
ولعل السبب فى ذلك أن أباء زاو الأول كان أخا لزوجتى الملك
ببى الأول •

ولقد كان حقا على الأبناء عند تشييع جنازة آبائهم أن يطرحوا

(١) عاش ذلك الأمير فى عهد الملك ببى الثانى •

الثيران أرضاً ثم يقوموا بحرها ، وانك لنشاهد صور هؤلاء الابناء وهم يفعلون ذلك ! واسماؤهم منقوشة على جدران مقابر آبائهم ! وكانوا يقومون عدا ذلك بصيد الطيور وتقديمها قرايين لهم ! وهذا ما فعله الملك رمسيس الثانى لأبيه الملك سيني الأول ! كما هو مصور على جدران معبد أبيدوس •

وكان المصريون القدماء ينظرون الى تعليم الابناء كأنه واجب تمليه عليهم محبتهم لهم ! •

ولقد قال أحد حكماء الأسرة الخامسة :

إذا كنت رجلاً ناجحاً فى عملك ، ووهب لك الإله ولداً من فضله وكرمه ، فاذا سلك هذا الولد سراطاً مستقيماً واقتفى فى الحياة أثرى ، وسهر على رعاية مصالحك •• فعليك أن تمنحه كل ما تستطيع من بر وعطف ورعاية ، ولا بدع فانه ولدك الذى سوف يخلقك فى حمل شعلة روحك المقدسة ، وهى روح الآباء والأجداد التى حملتها قبله ، ولا تدع قلبك ينصرف عن محبته مهما كانت الأسباب التى قد تدعوك الى ذلك •

ولقد كان الأطفال يلفون فى لفافات من الأقمشة منذ نعومة أظفارهم وتحملهم الأخوات الكبريات أو الأمهات وراء ظهورهم تارة وعلى صدرهم تارة أخرى ، وكان من أحب وسائل التسلية الى نفوسهم عندما يشبون عن الطوق صنع لعب من الصلصال على

هيئات مختلفة ، وهم يمرحون ويلعبون على جوانب الترع والقنوات القريبة من فراهم الريفية ، كما يفعل اليوم أبناء بعض القبائل الأفريقية ! وكانوا يحملون أحسن ما يصنعونه من اللعب الى بيوتهم للتسلية بها في أثناء وجودهم فيها .

وإذا اتبعت لك فرصة وشاهدت صور بعض منازل قدماء المصريين على جدران معابدهم ، لرأيت في داخل بعضها صور لعب أطفال على هيئة تماثيل وخنازير وأغنام ورجال وقوارب وتوايت وموميات .

وان صنع نماذج للأشخاص أو للأشياء لم يحرمه الاسلام تحريماً قاطعاً ، فقد شاهدت منظرأً لصبي يجر كتلة من الصلصال ثبت عليها أربعة عصي ، نشرت فوقها قطعة من القماش ، وهو يفسر ما تعنيه تلك اللعبة لأخته ، قائلاً : هذا هو هودج العروس . وكان يوجد غير ما يصنعه الأطفال من لعب لأنفسهم أنواع أخرى من اللعب يصنعها الكبار لهم من الخشب من بينها دمي تتحرك ، بيد أن تلك اللعب لم تكن تثير اهتمام الأطفال كتلك التي يصنعونها بأيديهم !

وكان الأطفال المصريون يلعبون بالدواة (١) وبكرات الجلد

(١) يقصد ما يسمى العامة بالنحلة .

المحشوة ، وبكرات من الخشب * وأخرى من الجوارب القديمة
المحشوة •

ولقد كانت تلك اللعب يستخدمها الأطفال المصريون في العائهم
الى عهد قريب •

وكان الطفل فى مصر الفرعونيه يبدأ حياته المدرسية فى سن
مبكرة ، كما هو الحال فى مصر الآن ! ولا يمكن أن يكون لهذا
النوع من الحياة المدرسية آنذاك أثر فعال فى نشأة التلميذ لأنها لم
تكن تؤهله الى استيعاب موضوعات دراسية عميقة ، اد كان هذا
النوع من التعليم مجرد مران رتيب للذاكرة ، كما هو الآن ، دون
محاولة لفهم المعاني وادراكها • ولقد كانت بعض المدارس تلحق
بدواوين الحكومة المختلفة لاعداد طائفة من الموظفين للنهوض
بالأعمال الحكومية •

ولقد كان يوكل الى الكهنة القيام بتدريس الموضوعات التى
تتطلب بحثا عميقا كالكتابة الهيروغليفية والحساب والهندسة والفلسفة
وعلم الأخلاق •

وأقدم كتاب من الكتب التى كانت مقررة دراستها فى حوزتنا
الآن هو الجزء الخاص بالتبرؤ من الخطايا والذنوب من كتاب الموتى
المشهور ، وهو يتألف من فصول ، يشمل كل فصل منها على
خمسة بنود • وهى طريقة ابتدعها المصريون القدماء لتساعد الذاكرة

على الحفظ عن طريق العدد بالأصابع ، ويبدو أنه يرجع تاريخ تأليفه الى عصر ما قبل الآسرات ، وآية ذلك أنه خال من ذكر أى شيء يتعلق بواجبات الأفراد في الأسرة •

ولقد كانت ألواح الفخار أداة استعمالها التلميذ المصرى للمراغة على الكتابة ، وما لبث أن استعمل لهذا الغرض تلك الألواح الفخارية بعد طليها بطبقة رقيقة من الجص لمنع تسرب الحبر الى مسامها • كما ساعد طلابها على سهولة مسح الكتابة لاستعمالها مرة أخرى ! • والواقع أن جزءا كبير من إنتاج المصريين القدماء الأدبى حفظته لنا تلك الألواح الفخارية التى عثر عليها فى بعض مقابرهم •

ولقد ورد فى قصة وقعت أحداثها فى عصر الأسرة الخامسة أن آية امرأة من نساء الطبقة الراقية تستطيع قراءة الهيروغليفية (١) الخاصة بذلك العصر ، غير أن الكتابة بها لا ينقصها الا « كاتب قدير وعالم جليل » •

ولهذا كان يدرّب من كان يريد الكتابة تدريبا دقيقا مضنيا لاحتوائها على مئات الرموز ! وآية ذلك أنه قد عثر علماء الآثار المصرية على كتابات ملأى بالأغلاط وغير واضحة المعنى ! الأمر الذى يدل على أنها صادرة من أشخاص غير محترفين للكتابة ! •

(١) تتألف حروف هذه اللغة من حروف اللغة الهيروغليفية بعد اختصارها وحذف بعضها ليسهل على الكاتب استعمالها ، وكانت سائدة بين الكهنة ولذلك أطلق عليها الإغريق هذا الاسم ومعناه الخط الكهنوتى •

ولقد كان فى استطاعة العداد (١) المصرى فى عصور مصر الأولى أن يحصى السفن القادمة والراحلة وحمولاتها ، ويردون أسماء ما تحمل من بضائع وغيرها ! •

ولقد عثرنا على بعض الرسائل التى يرجع تاريخها الى العصر الرومانى فام بتحريرها الفلاحون تحتوى على أخطاء كثيرة ، كما عثرنا على كتابات فى الموضوعات المختلفة غير الرسمية تحتوى أيضا على أخطاء كثيرة على الرغم من صدورها من نسخيات كبيرة ! •

ومن الغريب أن ابنة كاتب لأحد الأسواق زعمت انها تستطيع الكتابة فى سهولة ويسر ، ذلك على الرغم من أن ابياها وغيره من الكتاب المحترفين لم يكونوا معصومين من الأخطاء فى عمليات الاحصاء التى كانوا مكلفين بها ، كما كانوا يخطئون أحيانا فى العمليات الحسابية من جمع وطرح ! •

ولقد كان أطفال الطبقات الراقية يذهبون الى مدرسة الحضانة التى كانت ملحقة بالقصر الملكى ، حيث كانوا يختلطون فيها بأبناء سيدات القصر وبالرهائن من أبناء أمراء سوريا ! •

وكان يشرف على تربيتهم هيئة كبيرة العدد من الوصيفات والاتباع ، وقد خصص للكبار من هؤلاء الأطفال معلمون كان يطلق

(١) الذى يقوم بعملية التعداد بجميع أنواعه من احصاء للسكان ، واحصاء حمولة السفن القادمة والراحلة : والمحاصيل المختلفة •

عليهم « الآباء المربون » الدين كان لهم حق الاشراف على تعليمهم وتنشئتهم . وقد سجلت لأولئك المعلمين فى مقابرهم رسوم وقد جلس على ركبتي كل منهم أحد الأمراء الصغار ! ولقد كانوا يمتازون بالقدرة العلمية الممتازة ، ولم يكونوا دائما من ذوى الحسب الرفيع ! . ولقد كان سموت ذا مكانة رفيعة فى الدوائر الرسمية ، كما أشرف على تربية الأميرة نفرو رع (١) ، وريثة العرش ، على الرغم من عدم ورود ذكر لآبيه وأجداده فى السجلات الرسمية ! .

ولقد كانت تنشئة الابناء فى القصر الملكى موضع فخر واعتزاز من جانب النبلاء ، وقد كانوا بشيرون اليها عند تدوين تاريخ حياتهم ! فيقولون انهم كانوا ممن أشرفوا على تربية أبناء الملك .

ولقد جرى العرف فى عصر الأسرة التاسعة عشرة على أن جميع الأطفال الذين يولدون فى يوم ميلاد ولى العهد لهم الحق فى تنشئتهم معه فى القصر الملكى ! وقد يكون علة هذا أنهم يشاطرونه نفس الطالع ، فيحق لهم أن يشاطروه نفس المصير ! .

وقد عثرنا على أحصاء لهؤلاء الأطفال يبلغون فيه ١٧٠٠ طفل ، ويبدو أن هذا الرقم صحيح ! فاذا علمنا أن نسبة المواليد كانت تبلغ فى مصر القديمة ٦٠ فى الألف كما هو الآن ، وأن ربع هذا العدد

(١) ابنة الملكة حاتشبوت .

(٢) أى فى تاريخ صدور الكتاب ! .

يموت قبل بلوغ سن الالتحاق بالمدارس ، فانه ينحتم أن يكون عدد سكان مصر آنذاك ١٤ مليوناً . وهذا يؤكد دقة المصادر التي كان يعتمد عليها المؤرخ المشهور ديودورس .

وان السيل الذي كان يسلكه أى موظف مصرى منذ ولادته حتى يوافيه أجله يتمثل خير تمثيل فى تاريخ حياة باكن خنسو (Bakenkhonsu) فقد ولد قبل عام ١٣٢٠ ق م وبعد أن سلخ أربع سنوات من عمره فى دور الطفولة ، وأثنى عشر سنة فى دور العبا تقلد منصب أحد كهنة آمون فى سن السادس عشرة ، واستمر متربعا فيه حتى سن العشرين ، ثم تقلد بعد ذلك منصب الأب المقدس لآمون ، لمدة اثنى عشرة سنة ، ثم منصب الكاهن الثالث لآمون من الثانية والثلاثين الى السابعة والأربعين ، ثم منصب الكاهن الثانى لآمون من السابعة والأربعين الى التاسعة والخمسين ، ثم منصب الكاهن الأكبر لآمون من التاسعة والخمسين الى السادسة والثمانين ، وكان تقلده هذا المنصب الأخير فى عهد رمسيس الثانى ، ولقد ظل يشغل ذلك المنصب الى عهد رمسيس الثالث ، الذى تولى عرش مصر فى (١) سنة ١٢٠٢ ق م . وعلى ذلك يكون هذا الموظف قد عاش ١١٨ سنة على الأقل أى من سنة ١٣٢٠ ق م الى سنة ١٢٠٢ ق م .

(١) لانه ولد قبل عام ١٢٢٠ ق م ، ومنه يكون مولده قبل ذلك ببضع سنين ، كما أنه حضر عهد رمسيس الثالث وقد يكون قد عاش فى ذلك العهد بضع سنين أخرى .

هذا ولم يتدهور التعليم في مصر في العهد الفارسي ، اذ أنه يؤثر أن دارا ملك الفرس أمر باعداد كافة الأدوات والآلات والأجهزة اللازمة لتدريب الشبان المصريين على شئون الطب والجراحة .

أما في العهد الاغريقي فقد كان نظام التعليم يقضى بتنقل طالبي العلم المصريين من مختلف المدن لزيارة مشاهير العلماء لتلقى العلم على أيديهم ، ولكنه لم يلبث أن انهيار بسبب الحروب والاضطرابات التي حدثت بين الدول التي قامت عقب موت الاسكندر وانقسام امبراطوريته .

ولقد عانت مدينة الاسكندرية التي كانت عاصمة مصر آنذاك بسبب كثرة المدايح وأوامر النفي والتشريد التي حدثت في عهد بطليموس البطين حوالى سنة ١٤٠ ق.م وقد ترقب على ذلك انقراض عقد مدرسة الفكر العظيمة التي كانت قد ازدهرت في مدينة الاسكندرية ، فلاذ أساتذتها وعلمائها بالفرار الى مدن اليونان وجزرها ! وهناك أسسوا نهضة علمية جديدة في مناطق كان يسودها التخلف الفكرى في عهد حكم الرومان لها .

ان استعمال سكان أقطار البحر المتوسط للملابس أول مرة

(٢) هو بطليموس التاسع ، وقد اطلق عليه الاسكندريون لقب البطين من باب التهكم والسخرية لغرامته .

اتقاءً للبرد القارس والحر اللافت لم يعم الا في العصور الكلاسيكية ،
أى فى عهدى دولتى الاغريق والرومان ! أى أنهم لم يرتدوها فى
عصور ما قبل التاريخ ! •

أما فى مصر فقد بدأ استعمال الملابس فى عصور ما قبل التاريخ •
وقد بدأ الرجل المصرى بالتحاف جلود الماعز ، ثم لم يلبث أن
شد على وسطه حزاما (٣) • أما المرأة المصرية فقد كان أول رداء
لبسته ثوبا ذا أهداب ، ومن الغريب أن ذلك الثوب ذى الأهداب
لا يزال يستعمله بعض نساء بلاد النوبة حتى الآن ! ثم أخذ
المصريون يرتدون ملابس مصنوعة من أقمشة منسوجة من ألياف
الكتان ! •

راقده كانت المرأة المصرية فى عصر ما قبل التاريخ وفى أواخر
ذلك العصر بخاصة ترتدى أحيانا ازارا مصنوعة من خيوط الكتان
البيضاء ، وكان ضيقا حتى ليكاد يلتصق بجسمها ، ومتديلا الى ركبتيها •

أما فى عهد الأسرة الأولى فقد كان المصريون يرتدون العباءات
لوقايتهم من البرد ! وكانت تلك العباءات مبطنه أحيانا ! ولقد كان الملك
والأمراء والنبلاء يلبسون تحت العباءات صدرات وقمصان قصيرة
زيادة فى الوقاية من البرد ! أما العمال فقد كانوا يكتفون بقطعة

(٣) لقد كان يربط بهذا الحزام من الأمام ما يشبه الجعبة أو الكس لسر
العورة ، كما تدل رسوم الرجال على لوحة تارمر المشهورة •

من القماش تلف حول الأرداف ويربط طرفاها فوق البطن ! وقد ظل ذلك شأن عمال الزراعة حتى عهد الأسرة الثانية عشرة !
وفي عهد الأسرة الرابعة ابتكر صنع التنيات (١) في أثواب الطبقة الراقية آ لتساعدهم على التحرك في سهولة ويسر ! ثم تطور شكل الرداء منذ ذلك العصر حتى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، حتى أصبح يثبت بحمالة ترتكز على الكتفين أو يمتد من الحلف فوق الظهر ، ثم يثبت الى الصدر بحمالتين ترتكز على الكتفين . وقد استعملت الحمالات المتقاطعة في بعض الملابس التي كان يرتديها المصريون في عصر الأسرة الثانية عشرة وما بعدها ! بيد أن تصوير ذلك الزى المبتدع على جدران المقابر وعلى الآثار القديمة الأخرى لم يساير ذلك التطور الكبير الذي حدث في حياكة الملابس وتفصيلها . وما جاء عصر الأسرة الخامسة حتى بدأت النسوة يرتدين فساتين ضيقة جدا ، وطويلة بحيث تصل الى الكمين ، ولها أكمام ضيقة ولها فتحتان عند العنق ، واحدة من الأمام والأخرى من الخلف ، تسهلان لهن ارتداده ، وكان لكل من هاتين الفتحتين شريط يستعمل في ضم حرقها عند الحاجة !

ولقد كان المصريون منذ العصور الأولى وبخاصة الذين كانوا

(١) يخالف أرمات ذلك إذ يقول في كتابه مصر والحياة المصرية ص ٢١٦ ان التجديد الذي أدخل على الرداء في الأسرة الرابعة هو زيادة طوله واتساعه أما التنيات فلم تصنع الا في أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة .

يزاولون حرقاً يتعرضون في أداؤها لרטوبة الماء وبرد الهواء ، كانوا يلفون أجسامهم برداء يقيهم منهما ! بيد أن هذا الرداء كان قصيراً الى درجة أن أطرافه السفلى لا تصل الى الأرداف ، وكان لذلك يقصد به وقاية الجسم من البرد لاستره •

ولقد أدخلت في العصور التالية زيادات وتغييرات في الملابس جرياً وراء ستر الأجسام وحب المظهر ! ولقد كان الزي الرسمي للموظفين يختلف جد الاختلاف عن ملابسهم العادية • وكان الوزراء يرتدون دثاراً سميكاً طويلاً ، يتدلى الى الكمين •

وكان من عادة المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ أن يحلقوا شعر رموسهم ويضعون شعوراً مستعارة عند تعرضهم لحرارة الشمس •

ومهما يكن منشأ هذه العادة ، فقد استمر اتباعهم لها في أثناء عصور تاريخهم الطويل • ولعل سبب ذلك حرصهم على نظافة رموسهم ! •

وكانت النساء المصريات يقصرن شعور رموسهن ويضعن فوقها شعراً مستعاراً (١) • ولقد كانت الفتيات والسيدات المصريات وفي عهدى الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة بخاصة ، يصفقن شعور رموسهن ويصنعن منها ثلاث جدائل اثنتان يتدليان من الآمام ، وواحدة تتدلى من الخلف ، وفي حالات نادرة كان يحلق شعر الرأس الأمامى للخدمات ولا يترك منه الا خصلة واحدة على قمة الرأس ! •

الفصل الخامس

موارد البلاد المختلفة
وتجارتيها الخارجية

موارد البلاد المختلفة وتجاريتها الخارجية

نكتب فى هذا الفصل عن الموارد الطبيعية للغذاء والكساء فى مصر الفرعونية ، أى عن منتجات أرضها ووسائل توزيعها فنقول :

لقد كانت فصول السنة فى مصر القديمة أصاما لتنظيم أعمال سكانها ، ولا تقتصر أثر هذه الظاهرة الطبيعية على شئون الزراعة فحسب ولكنها كانت تشمل المظاهر المختلفة للنشاط البشرى • ويرجع ذلك الى أنه كان يوجد آنذاك فترة جفاف شديد وجذب يشمل البلاد من أقصاها الى أقصاها ، تتبعها فترة بفيض فيها ماء النيل ، يعقبها نماء ومحصول وفير • ولقد عرف المصرى القديم من تجاربه الطويلة المواعيد الآتية :

وهى أن مياه النيل تنخفض الى أدنى مستوى لها فى شهر يونيه.

ثم تأخذ في الارتفاع في مستهل شهر يوليه ، وتستمر في الزيادة خلال هذا الشهر ، ثم تبلغ مداها في الثالث والعشرين من شهر أغسطس فيحتفل المصريون بوقاء النيل ، ويقومون بفتح التسرع والقنوات لرى أراضيهم ، وقد يستمر مستوى الفيضان عاليا الى أواخر شهر أكتوبر ، ثم يأخذ مستوى مياه النيل في الانخفاض حتى لا يبقى على سطح الأراضي الزراعية قطرة ماء .

ويترك ماء الفيضان وراءه بعد انسلاخه عن الأرض طبقة من الغرين المخصب عليها ، وعندما تأخذ تلك الأراضي في الجفاف وتتحمل ثقل الانسان ، يخرج كل فلاح الى أرضه ، ويذر فيها الحب ، ويفطيه بآلة ابتدعها يطلق عليها أهل الصعيد الآن اسم اللوح ، ولا يمضي أكثر من اسبوعين حتى يأخذ الثبت الصغير في الظهور ، وتبدو الأرض مخضرة الجنبات ، وكانت هذه الظاهرة تعتبر تبشير الفصل الأول من فصول السنة ، وهو فصل النماء أو الانبات (١) .

(١) كان المصري يقسم السنة الزراعية لثلاثة أقسام متساوية ، تقابل ثلاث مراحل مختلفة في زراعة الأرض ، فالفصل الأول الشتاء ، ودون يبتدىء من أواسط أكتوبر الى أول فبراير ، وفيه كانت تدر الحبوب في الأرض بعد السلاج ماء الفيضان عنها وكان يسمى (برت) أى الخروج أى ظهور الأرض من تحت ماء الفيضان ، والفصل الثاني من أول فبراير الى يونيه وهو فصل الحصاد وكان يسميه المصريون «سمو» أى انسلاج الماء من الأرض ، والفصل الثالث فصل الفيضان وكان يسمى «اخت» من منتصف يونيو الى منتصف أكتوبر . وكان كل فصل أربعة شهور ، وكل شهر ثلاثون يوما ، وتتم السنة بإضافة أيام الشيء لخمس ، ولم يكن المصريون يسمون الشهور بأسماء خاصة بل كانوا يطلقون عليها عددا مضافا الى فصلها ، فيقولون الشهر

وفى أثنائه يخرج الزراع من قراهم بمواشيهم ، وقيمون فى حقولهم

= الأول من فصل الحصاد ، والشهر الثالث من فصل الفيضان وهكذا . ولم تسم بأسمائها المعروفة لنا الآن الا فى القرن السادس ، وهى السماه معبودات مصرية قديمة : فتوت اسم المعبود فتوت ، وهو طائر أبو منجل الذى كان يظهر آنذاك فى الحقول ويقضى على الديدان وآفات المزروعات الاخرى ، وقد جعله المصريون رمزا للعلم لما كان يوحى به مظهره فى آباء بحثه عن الديدان بالتأمل والتفكير . وبعبه نسه الى «أبيه» أى طيبة ، وهاتور نسبة الى الالهة هاتور أو حاتور وكيهك نسبة الى أحد الالهة المصرية ، وطوبة بمعنى الحظوة ، وأمشير أو مشير أى عفریت الزوايح ، وبرمهاث نسبة الى الملك أمنمحتب الذى الاله المصريون بعد وفاته ، وبرمودة نسبة الى الالهة الحصاد ، وشنس نسبة الى الالهة شنس ، ويؤونه وأصلها « بنى أنت » أى عيد وادى الملوك الحجرى ، ومازال هذا الشهر يسمى الى اليوم يؤونه الحجر وأبيب عيد الاله « أبيبى » . ومسرى ، وأصلها مس - رع أى ولادة الشمس .

أما أيام النسيء الخمسة فكان المصريون يسونها الخمسة الايام التى فوق السنة .

هذا ومازال العلاج المصرى الى اليوم يستخدم هذه الشهور فى تقويمه الزراعى ويقرون اسم كل شهر منها بما يتفق معه فى حالة المناخ أو الزراعة أو نوع المحصول كما يل :

- (١) فتوت مات الانتوت (كثرة البلح) .
- (٢) بابيه زرع يغلب النهاية (لوفرة المحصول) .
- (٣) هاتور أبو الذهب المستور (القمح) .
- (٤) كياك صباحك مساك (دلالة على قصر النهار) .
- (٥) طوبة أبو البرد والرطوبة اللى يطفى المجوز كركوبة .
- (٦) مشير يقول للرياح سر (دلالة على شدة العواصف) .
- (٧) برمهاث دبح الفيط رهاث (فيه ينضج المحصول) .
- (٨) برمودة دق بالعامودة (موسم الدومر) .
- (٩) شنس يكتس الفيط كنس (الحصاد) .
- (١٠) يؤونه الحجر (شدة الحر) .
- (١١) أبيب طباخ العتب والتريب .
- (١٢) مسرى تحرى فيها كل مرة عشرة (بداية الفيضان) .

أكواخا من عيدان البوص ، وبخاصة فى حقول البرسيم ، وكانوا
يربطون ما شيتهم فى أثناء النهار بحبال متصلة باوتاد لتأكل من نبات
البرسيم من غير أن تطأه بأقدامها فتهلكه .

ولقد كان سراة المصريين فى عصر الأسرة الأولى ينقلون بيوتهم
الخشبية من حافة الهضبة وقيمونها فى الوادى وسهل الدلتا ! وكانت
الغلات الزراعية من قمح وفول وشعير وحلبة وترمس تنضج فى ذلك
العهد ، كما هو الشأن اليوم فى غضون شهر أبريل ثم تحصد ،
وعندئذ تصبح الأرض قفراء جرداء لانبات فيها ولا ماء ، دات تربة
طينية سوداء صلبة تتخللها شقوق عميقة ! وعند ذلك كان الزراع
لا يجدون عملا يفهمون به إلاّ رعاية مواشيهم ! ولقد دفع ذلك الفراغ
بعضهم الى القيام بزراعة مساحات محدودة من الأرض العالية التى
تحف بالترع والقنوات ، ويرفعون الماء لسقيها بالشواذيف . وفى الوقت
الذى تبلغ فيه درجة الحرارة فى مصر أقصاها ، وينخفض ماء النيل
الى أقصى حد له ، يبدأ ماؤه فى الزيادة فتبدأ تباشير حياة جديدة ،
ولا يزال الماء يعلو حتى يصل الى مستوى الأرض الجافة ذات
الشقوق العميقة ، فيغمرها ! وعندئذ يبدأ فصل الفيضان ! وتبدو
القرى المصرية كما يقول هيرودوت كأنها جزائر بحرايجة ! وكان
المصريون آنذاك لا يجدون عملا مجديا يقومون به ، فيخلدون
للكسل . ولقد فكر بعض الفراعنة من ذوى العقول الراجحة ،
فقدروا ما يصيب العطل رعاياهم من تعود على القعود والكسل ،

فكلفوهم بإقامة تلك المنشآت العظيمة مثل الأهرام والمعابد ، التي تعد بحق من المفاخر الخالدة لتلك البلاد (١) .

وان منهاج العمل في مصر القديمة مسجل تسجيلا دقيقا في أوراق من البردى يرجع تاريخها الى العصر الروماني ، ومنها نعلم أن العمل خلال شهرى سبتمبر واکتوبر كان قاصرا على حراسة الجسور التي كانت تقسم الأراضى الزراعية الى حياض ، لوقايتها من الانهيار بفعل مياه الفيضان ، ويسقى المساحات القليلة من الأراضى الصالحة للزراعة التي لا يصلها ماء الفيضان لارتفاعها وقد سبق الإشارة إليها ! .

وكانت تبذر الحبوب في شهر نوفمبر كما ذكرنا ، وفى أثناء فترة نمو المزروعات المختلفة ، كانت تشذب أشجار الكروم والتخيل وفى شهرى أبريل ومايو ، كانت تحصد المحاصيل ثم تجمع وتدرس

(١) لا يرى معظم المؤرخين ما وراء بعضهم في بناء الهرم الأكبر العرفى المتعصب من جباه المظلومين ، ولا السياط ترتفع في أيدي الربانية القساسة ثم تهوى على ظهور الماملين والناصبين ، ولكنهم يرون فيه حكمة الراعى المسدود ، من رعيته ، البصير بأمورها .. وخلاصة رأيهم أن خوفو .. رأى العلاحين لا يشتغلون في الأرض الا أياما معدودات في أثناء بفر الحب وحرث الأرض وفى أيام الحصاد وجمع المحصول ، ويفعلون فيما بين ذلك في دورهم ويخادون يعملون نسيتا محليا ، رأى الملك الحكيم ذلك الفراغ الطويل فامتحن عليهم ان يتعودوا العمل ، ويتاصل بهم العمل ، فامر حكام الاقاليم ان يختاروا من سكانها من يصلحون للاشتغال بأعباء اقامة ذلك البناء الضخم المشخر ، على أن يؤجروا على عملهم ، ويعدم لهم العزاء (مصر الخالدة للمؤلف الاول ص ٤٢ - ٤٧) .

ثم تحمل الغلال المستخلصة الى المخازن المعدة لها ! •

ولقد كانت مناسيب مياه الفيضان تختلف في جهات الوادى المختلفة ! وفى ذلك يقول بلوتارك • كانت مياه الفيضان عند مفاوز جزيرة الفنتين تصل الى ٢٨ ذراعا (٤٨ قدما) على حين أنها كانت أمام منف نصل الى ١٤ ذراعا فقط (٢٤ قدما) كما كانت تصل قبل مصب أحد فراع النيل فى البحر المتوسط بقليل نحو ٦ أذرع فقط (١٠ أقدام) •

كما يقول المؤرخ بلينى • ان الفيضان اذا بلغ عند منف ١٢ ذراعا فقط حدث جذب مروع ، أما اذا بلغ ١٣ ذراعا أمنت البلاد شر الجذب ، واذا بلغ ١٤ ذراعا ، كان الفيضان متوسطا واذا بلغ ١٥ ذراعا كفى متطلبات الزراعة ، فاذا ما بلغ ١٦ ذراعا كان بهجة للنفوس •

وقد حدث أعلى فيضان فى التاريخ فى عهد الامبراطور كلوديوس (١) ، اذ بلغ ١٨ ذراعا • أما أقل فيضان سجله التاريخ فقد حدث فى عام ٤٨ ق.م اذ بلغ ٥ أذرع فقط ! وقد ذكر استرابون أن مياه فيضان النيل انخفضت انخفاضا شديدا عام ٤٠ ق.م ، ولكنه لم يذكر مقدارها ! •

ولتقدير ارتفاع مياه فيضان النيل أقيمت مقاييس فى أماكن

(١) حوالى عام ٢٦٦ م •

عدة ، أشهرها فى جزيرة الفنتين وطيه ومف . ويرجع بعض المؤرخين أن هذه المقاييس أقيمت فى أوائل عصر الأسرة الاولى ، كما يدل على ذلك تسجيلات ارتفاعات مياه الفيضان فى حوليات الملوك (١) وهذه الارتفاعات مسجلة بدقة تصل الى ١٦/١ من البوصة ، ولا بد أنها كانت ترصد فى أماكن فيها المياه ساكنة لا يهيجها تيار ، ويبدو أن فيضان النيل فى ذلك الزمن الغابر كان أقل تذبذبا بدليل أنه لم يتجاوز الفرق بين النهايات الصغرى والنهايات الكبرى فى مدى ٤٩ سنة سبعة أذرع على حين وصل ذلك الفرق فى العصر الرومانى ثلاثة عشر ذراعا ، كما لم يبلغ متوسط الاختلاف عن المعدل السنوى أكثر من ذراع واحد وكف واحد أى فدين اثنتين . ولعل سبب ذلك كان يرجع الى أن النيل كان فى ذلك العصر ينصرف الى مياه الأمطار التى كانت تسقط فى مساحات أوسع من المساحات التى تنصرف مياهها اليه الآن بما فيها البحيرات الاستوائية ، كما أن وسائل الرى الصناعى آنذاك كانت بسيطة ، ولعل أبسطها كان الشادوف (٢) وطمبور ارشيميدس ، أما الساقية التى لا يزال الفلاحون

(١) وجدت هذه التسجيلات منقوشة على الاثر المعروف بحجر بلرمو .
(٢) يرى بعض العلماء أن المصريين عرفوا الشادوف فى مصور ما قبل عصر الأسرة الاولى ، ولقد نقل كويبيل (Quibell and Green : Herakopolis 1902, p. II, pl. 74-75).
رسما لشادوف كان منحوتا على جدران مقبرة هيراكنبوليس بالقرب من ادفو ،
ترجع الى ذلك العصر الغابر .

فى مصر يستخدمونها بكثرة فى رى أراضيهم فانها لم تستخدم قبل
العصر الرومانى •

وفىما يلى أهم أنواع المحاصيل فى مصر القديمة وطرق زراعة
كل منها

الحنطة (القمح) لقد كان حبا يذرى كما هو الحال فى الوقت
الحاضر وتغطى بواسطة ما يسميه الفلاحون « اللوح » اذا كانت التربة
لاتزال لينه ، أما اذا كانت جافة وصلبة تتحمل وطء الثيران استخدموا
المحراث أو العزاقة فى تغطيته (١) •

وعندما تنضج الحنطة كان الفلاحون يستخدمون المنجل فى
حصدها ، ويجمعون سوقها ، ويدرسونها (٢) ثم يستخلصون حبوب
القمح ، ويعبئونها فى أكياس ، يحملونها الى بيوتهم أو الى الاسواق
ليبيعها وكانت سيقان الحنطة بعد درسها غذاء للماشية ! •

ولقد كانت العادة فى مصر الفرعونى أن يترك الزراع نصف
محصولهم من القمح فى سنبله ، ثم يربطونه حزماء ، ثم يحفظ فى
مخازن خاصة •

وكانت مخازن الحنطة نوعين :

-
- (١) لاتزال يستعملها الزراع حتى وقتنا هذا وهى شبيهة بالفاس •
(٢) كانوا فى العصور القابرة يستخدمون الثيران والحمر فى وطء السنبال
لتخليص الحب منها ثم لم يلبثوا ان ابتدعوا التوريج المستعملة الان فى ذلك !

١ - حظائر مخروطية الشكل مبنية بالطوب ، وكانت تستخدم لحزن السنابل •

٢ - حجلات سقوفها على هيئة قباب ، وكانت تستخدم لحزن الحبوب •

ولقد كانت تلك المخازن تغطى أرضها بطبقة سميكة من فتات الحجر الجيري منعا من تسرب الفئران اليها •

وأهم الحبوب التي كانت تزرع فى مصر الفرعونية القمح والشعير والذرة (١) •

(١) لا ريب أن المؤلف يقصد الذرة الرفيعة التي يسميها الفلاحون العويجة Millet التي كانت معروفة فى الممالك القديمة ، لأن الذرة الشامية corn المنتشرة الآن فى أرجاء العالم المختلفة لم تعرف الا بعد كشف أمريكا ، الا لم تكن سمو الا فيها ومنها نقلت الى اقطار العالم المختلفة ، كما أن الذرة الرفيعة نقلت الى مصر من اواسط افريقية ، وكانت أكثر ما تزرع فى اراضى الحياصى بالوجه القبلى . وهى بومنان :

(أ) صيفية وتسمى القبيضى ، وتبدأ زراعتها من منتصف مارس .
(ب) شبلية ويمتد بدأ زراعتها من يوليه الى أغسطس تبعا لموعد التصريح بطفى الشراقى ولا تزال مسألة زراعة الذرة العويجة فى مصر موضع جدال بين العلماء فبعضهم يجزم بأن المصريين القدماء مارسوا زراعتها ومنهم ماسبيرو الذى يقول أن المصريين القدماء زرعوها وكانوا يطلقون عليها اسم دبرامى أو دورانى ويستشهد على ذلك ببردية يرجع تاريخها الى عهد الاسره التاسعة عشرة (Maspero : Histoire de Peuples, Vol. I, p. 66) ويؤيد رأيه هذا ويلكسنسون (Wilkinson : Manners and Customs, Vol. II, p. 27) ويؤيد فريق آخر منهم أن الذرة كانت تزرع فى مصر القديمة وكان المصريون القدماء يسمونها «ات» أو «ديوت» (انظر قواعد اللغة المصرية القبطية لجورج صبحى ص ٩٣) =

وهي عهود الأسراب الأولى كان القمح يجفف بوضعه في أون كبيرة ثم تدلى في حفر عميقة ، بحيث ترتكز على قضبان من الفخار ، وتوقد حولها النار . وكان الغرض من تجفيفه حفظه من السوس .

الكروم : لقد كانت كروم العنب تزرع في مصر في العصور القديمة ، ولقد ظهرت معاصر العنب على الآثار التي ترجع الى منتصف عهد الأسرة الأولى ، على أن احدى الأساطير المصرية القديمة تدل على أن أوزيرس كان أول من ابتدع زراعة كروم العنب ، وأنه أول من صنع منه النبيذ ، الأمر الذي يدل على أن زراعة الكروم عرفت في مصر القديمة قبل عهد الأسرة الاولى بآلاف السنين وكانت الكروم في عصر الدولة القديمة تعتمد على عرائش ! أما في عصر الدولة الحديثة فقد كانت تزرع في وسط حدائق قصور الأمراء والعظماء على هيئة خمائل يستظلون بها في أشهر الصيف من وهج الشمس ! ولقد أوحى ذلك بطراز من طرز البناء حاكاه المهندس الذي اضطلع ببناء بهو الأعمدة العظيم في تل العمارة ، والذي بالغ في المحاكاه فطلى سقفه بالجص وزينه برسم شجرة من أشجار العنب .

= ولا يذكر ارمان في كتابه عن مصر . والحياة المصرية في العصور القديمة - ترجمة دكتور عبد المم أبو بكر والاستاذ محرم كمال ، شيئا عن زراعة الليرة في مصر . ويرمى أن كلمة يوت التي يؤكد بعض العلماء أنها الاسم المعري للورد ، كانت يطلق على نوع من الشوفان (انظر ص ٥٠٣ من كتابه المذتوب) ويؤيده المؤرخ الالماني شفييتورت ولكنه يذهب الى أن كلمة يوت كانت تطلق في مصر القديمة على نوع من الشعير ، على حى يقول دكتور سليم حسن ان زراعة الليرة في عصر الدولة القديمة لم يتم عليها دليل قاطع (مصر القديمة ج ٢ ص ٨٠) .

وكان العنب يجمع فى سلال ويحمل الى المعاصر لاستخراج النبيذ منه ! وكان النبيذ المستخرج من العنب أنواعا ، كان يطلق عليها أسماء مختلفة ، منها نبيذ بوتو ، ونبيذ اسنا ونبيذ مخفف ، ونبيذ أبيض . ولقد كان لنبيذ الدلتا فى عصر الاغريق شهرة واسعة ، ونبيذ مريوط بخاصة ! وكانت كروم العنب آنذاك تزرع بكثرة فى الفيوم وفى الواحات .

وكانت الخضروات تزرع فى معظم جهات مصر المختلفة ، وأهمها الفول والعدس والبازلاء ، وعندما كانت مياه الفيضان تأخذ فى الانحسار عن الأراضي التى كانت تحف بالوادي ، يسارع أصحابها الى زرعها بالبصل والكراث والثوم والخيار والقثاء بأنواعها المختلفة ! كما كان نبات القلقاس ينمو فى المناقع والمستنقعات ! وكانت ثماره عندما تنضج تجمع وتتقع فى الماء عندما كان يراد طهيها ! ويبدو أن العلة فى نفعها الرغبة فى التخلص من بعض عناصرها التى كانوا يعتقدون أنها ضارة بالإنسان ! وكانت تزرع بعض النباتات لاستخراج الزيت منها ، وأهمها القرطم والسمن والحس والسلجم (١) والكتان فوق استخراج الزيت من بذوره كانوا يصنعون منه المنسوجات الكتانية التى يتخذون منها ملابسهم المختلفة . ولقد كان يزرع فى العهد الرومانى أربعة أصناف من الكتان ! فكان الصنف الأول يزرع

(١) السلجم نبات من فصيلة الكرنب .

فى تانيس (١) والثانى فى بلوزيوم (٢) والثالث فى بوتو والرابع فى
دندره (٣) .

أما القطن فقد كانت مساحة الأرض التى كان يزرع فيها فى
العهد الرمانى قليلة جدا ، ولم يكثر زرعه واستخدام محصوله فى
صنع المنسوجات القطنية الا فى العصر الاسلامى ! .

أما أشجار الفاكهة فيبدو أن أول ما زرع منها فى مصر كان
نخيل الدوم والجميز والخروب ، أما نخيل البلح فقد استورد حبه
من العراق ، ثم زرع فى بعض جهات مصر وفى بلاد الصعيد بخاصة !
ولم يكن واسع الانتشار ! أما أشجار الرمان فقد كانت مساحتها قليلة
فى بادىء أمر زراعتها فى مصر (٤) وأكثر بقاع مصر زراعة للتين

(١) تانيس هى مدينة صالحجر الحالية ، وكانت العاصمة الثانية فى عهد
الاسرة التاسعة عشرة ، وبالحاضرة الاولى لمصر فى عهد الاسرة الحادية والعشرين ،
وهى غير مدينة تانيس التى اشتهرت فى العصر الاسلامى بمنسوجاتها والتى لا تزال
أطلالها باقية فى احدى الجور الواقعة فى شرقى بحيرة المنزلة !

(٢) بلوزيوم هى مدينة الفرما التى اشتهرت فى اثناء الفتح العربى لمصر ،
وتقع على بعد ٣٠ كيلومترا شرقى بور سعيد ، وكان فرع النيل البلوذى يصب
عندها ، وبه سميت وكان سبب اردعها ، فلما انسدت أصابها الاضمحلال !

(٣) دندرة بلدة صغيرة الآن وكانت لها شهرة عظيمة فيما مضى لوجود
معبد الالهة حتحور بها ، وتقع فى الضفة الشرقية للنيل فى مواجهة مدينة قنا ،

(٤) ادخلت زراعة الرمان فى مصر فى عهد الاسرة الثانية عشرة ، اذ ورد
وسم شجره ضمن مجموعة الاشجار التى أحضرها الفاتح العظيم تحتسمى الثالث
معه من بلاد الشام ، ورسمت فى عهده على جدران معبد الكرنك .

وفى عهد رمسيس الرابع كثرت زراعتها ، فأصبحت فاكهة محلية شائعة ،
ويجدر بنا أن نشير الى أن المصريين القدماء كان يسمون الرمان «رمن» الامر
الذى يؤكد أن أصل كلمة رمان مصرى قديم !

كانت ولا تزال هي الواقعة غربى مدينة الاسكندرية ! ويبدو أنه لم يكن واسع الانتشار فى مصر فى عصور تاريخها القديم ، ولعل السبب فى ذلك أن زراعته لم تكن تلائمها مياه الفيضان الغزيرة آنذاك .
وقد ظهرت أشجار النبق فى مصر منذ عصورها الأولى .

ولقد كان أهم ما كان ينمو فى مصر من الأشجار المنتجة للخشب عدا أشجار الجميز الطرفاء والبلبل والسنط والبرساء !
ولقد كانت الأخشاب المستوردة من الخارج تستخدم فى صنع الأثاث ، وأهمها التى كانت تتخذ من أشجار الصنوبر والأرز التى كانت يؤتى بها من الشام والأبنوس الذى كان يستورد من بلاد النوبة ! .

ولقد كان المصريون يزرعون الأشجار بكثرة حول المعابد ، كما كان الشأن حول الدير البحرى (١) وهرم اللاهون ! .

ولقد كانت النيران فى مصر القديمة نوعين : الزيرو الأفريقى وله قرون طويلة ، والنوع الثانى ذو قرون قصيرة . . ولم يكن النوع الأفريقى ذو القرون الطويلة قوى البنية متينا ، ولذلك فقد تعرض لأوبئة كثيرة . فانقرض سنة ١٨٦٣ م .

(١) يقع معبد الدير البحرى فى السر الغربى للنيل ازاء الاقصر ، حيث توجد توجد معابد الملكة حتشبسوت والملك متوحتب (من ملوك الأسرة ١٨) وكانت أشجار البخور تحيط بمعبد الملكة حتشبسوت التى أحضرتها البعثة التى أرسلتها الى بلاد الصومال من هذه البلاد .

وكانت هناك سلالة من الاغنام ذات قرون أفقية متلوية ! وكانت
كثرت انتشارا في عصر الدولة الوسطى ، ولكنها لم تلبث أن انقرضت
• • وكانت في مصر أيضا سلالة أخرى من الأغنام ذات قرون مقوسة ،
وهو النوع الذي نشاهده في تمثال جوبتر آمون (١) • ولا تزال
هذه السلالة موجودة في مصر المعاصرة • أما المعزى فقد كانت منتشرة
في عصور مصر القديمة المختلفة ! •

ولقد كان الخنزير موجوداً في مصر في عصورها المختلفة ، ولكن
المصريون كانوا يعزفون عن اقتنائه فكانت تقوم بتربيته إحدى
القبائل المنبوذة في حلف الصحراء ، ولعل سبب عزوفهم عن اقتنائه
انهم كانوا يعدونه مكرسا للاله ست الشرير • أما الحمام فعلى الرغم
من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الاله ست يتقمصه (٢) فكان

(١) اتخذ المصريون من الكشي ذى القرون المقوسة رمزا للاله آمون ، وهذا
هو السبب في تزيين مداخل معابد الاله آمون بتماثيل على هيئة كباش كما هو
الحال في معبدى الأقصر والكرنك !

(٢) يبدو أن نظرة المصريين للحمام كحيوان اقترن بعبادة الاله ست لم تنشأ
الا في عصر الدولة الحديثة بعد غزو الهكسوس لمصر ، فقد اتخذ ملوك الهكسوس
من الاله ست الها حاميا لهم • • وكان الحمام هو الحيوان الذى كان يعتقد أن الاله
ان الاله ست يتقمصه فقدموه وكان بعض ملوكهم يلقون أنفسهم « بعامين » أى
الحمام الشجاع وكانت مقابر المنمر في عهدهم مقدسة ، وكانت فخامة مبانيها
يفوق فخامة مباني قبورهم تكريما للحمام واجلالا لقامه ا. ولعل السبب في كراهية
المصريين للحمام كان تقمص الاله ست له في اعتقادهم ، وتقديس الهكسبوس
أعدائهم له !

لذلك مكروها ، فان حاجتهم اليه لحمل أثقالهم حالت دون نبذه والتقليل من شأنه . ويبدو أنه جىء من ليبيا اذ كان موجودا فيها قبل عصر الأسرة الأولى ! وما لبث أن عم استخدامه فى بقاع مصر المختلفة ، وبخاصة لحمل الزاد والماء اللازمين للمبعضات التى كانت تجوب الصحارى المصرية بهنا عن المعادن ! .

أما الجمل فقد كان عدة البدو الذين كانوا يقيمون فى الجهات التى تحف بمصر ، ولقد عم استخدامه فى حمل المحاصيل والبضائع وزاد المسافرين وبخاصة فى عهد الأسرة الأولى والأسرة التاسعة عشرة والأسرة الخامسة والعشرين (١) ! وكذلك فى العهد الرومانى ، وكان يستخدم آنذاك فى حمل جرار الماء الضخمة ، أما فى العهد الاسلامى فقد أصبح الوسيلة الرئيسية لحمل السلع والبضائع المختلفة والثقيلة منها بخاصة (٢) .

ولم يكن للخيول وجود فى مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، وقد استخدمت آنذاك فى جر العربات الحربية ، ويبدو أنها كانت خشيعة الجسم غير صالحة للركوب عندما جىء بها أول مرة ، ولكن

(١) أقدم تمثال للجمل هو تمثال صغير من الفخار يرجع تاريخه الى عصور ما قبل الأسرات (عصر نقاده) ثم عثر على تمثال صغير له يرجع الى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، غير أن أقدم ذكر للجمل ورد فى بردية انستاس التى ترجع الى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

(٢) يزعم المؤلف أن الجمل قد امت على ما كان ينمو فى الصحارى المصرية من نباتات وأشجار .

مصرعان ما ظهرت فى مصر ولييا سلالة منها قوية البنية ، متينة ، ذات صفات ممتازة وذلك عندما عنى بها وأحسن تغذيتها فى المراعى الخصيبة الغنية بنباتاتها . ويبدو أن موطن الخيل الأول كان فى أواسط آسيا ، وقد جاء بها منها الآريون الذين غزوا بلاد الهند وبابل (١) ، ولعلهم كانوا السبب فى هجرة الهكسوس من بلادهم وحملهم على دخول مصر .

ولم يستخدم المصريون الخيول فى جر المحراث ، فقد كانت تلك المهمة يؤديها الثيران فى العصور القديمة ، ولا تزال تؤدىها حتى اليوم (٢) .

كانت فى مصر القديمة ولا تزال حتى اليوم ، سلالات كثيرة من الكلاب ، مما يدل على أنه جىء بها من بيئات جغرافية مختلفة اختلافاً بينا فى طرق المعيشة ! وكان النوع ذو الحجم الكبير يستخدم فى الصيد والقنص ، كما كان النوع المتوسط الحجم منبوذاً يعيش على فضلات الطعام أما السلالات الصغيرة فكانت يحتفظ بها فى المنازل ليأتس بها أصحابها ويدللوها ! .

ولم تكن القطط (٣) موجودة فى مصر قبل عهد الأسرة الثانية

(١) وكان يطلق عليهم المؤرخون الكاسيين 'Kassites'

(٢) يقول المؤلف : أن هذه المهمة يقوم بها اليوم الجاموس والجمال والحمير فى حالات نادرة .

(٣) كان يوجد فى ذلك العصر القديم نوعان من القطط : القط النمر - أى الشبيه بالنمر فى هيئته - والقط الفهد .

عشرة ، فقد عثر على صورة لقط نحيل طويل العنق على آثار يرجع تاريخها الى عهد تلك الأسرة ، ولم يلبث القط أن قدسه سكان سينا اعتقادا منهم أن الالهة حاثور تنقصه ، وذلك في عهد الأسرة الثامنة عشرة •

ولقد كان من نتائج طول فترة الفيضان الذي كان يغطي الحقول شهرين وبعض الشهر أن اضطر المصريون الى خزن الطعام اللازم لمواشيهم وطيورهم الأليفة ، فكانوا يقدمون لها الطعام بأيديهم ، حتى التماسيح كانوا يقدمون لها الطعام أيضا بأيديهم باعتبارها من الحيوانات المقدسة (١) •

ولقد كان التفریح الصناعي للبيض من مبتدعات المصريين ، وكان غير معروف في الأقطار الأخرى ، ولقد كان المصريون يعدون للفراخ حظائر مصنوعة من الفخار ذات أبواب لوقايتها من غائلة البرد ومن الثعالب ليلا !

ولقد كان السمك الذي يصيده الصيادون المحترفون من النيل

(١) يروى استرابون كيف كان الكهنة المصريون في الفيوم يقدمون الطعام للتماسيح المقدسة .. وكان أحدهما يربى وحده في بحيرة ، وكان يألف الكهنة ويأنس اليهم ، وكان الناس يذهبون الى تلك البحيرة لمشاهدته وليقدموا له اللحم والنبيذ ، وقد ذهب معنا مضيفتنا الى البحيرة حاملا معه كعكة ولحما مشويا وابريقا مملوا بالنبيذ المحلى بالعسل ، فوجدناه مستلقيا على حافة البحيرة . ولما جاءت الكهنة فتح أحدهم فاه ، ودس آخر فيه الكعكة وسكب فيه النبيذ ، (وهيب كامل : استرابون في مصر فقرة ٢٨) •

ومن البحرين الابيض والأحمر يسهم بقدر كبير فى طعام المصريين القدماء ، والطبقات الفقيرة منهم بخاصة ، وأقدم منظر للسماك على الأنار المصرية الباقية ، ويرجع تاريخه الى أواخر عهد الأسرة الثالثة ، ترى فيه رجلا يشق جسم سمكة من الخلف ، بعد أن قطع رأسها وذيلها ورمى بهما . وفى أحد الأحتفال فى يوم العيد الكبير فى عهد الأسرة العشرين (١) قدم فيه ست آلاف سمكة لنحو عشرة آلاف شخص ، غير الذين كانوا يفدون كل يوم من أيام العيد الأخرى ، عدتهم ألف شخص ! وان تقديم ذلك العدد الكبير من السمك فى أيام عدة يؤكد لنا أن السمك الذى كان يقدم يحفظ فى أحواض كبيرة من الماء بعد صيده ! ولقد كان وزن السمك الذى يؤكل يوم ذلك العيد يساوى ما كان يؤكل فى أثنائه من لحوم الحيوان والطيور . ومن الغريب أن أكل السمك كان محرما على رجال الدين لسبب لا نعلمه . ولقد كان النوبيون يعتقدون أيضا بعدم طهارة السمك ، ويحرمون أكله ، ولذلك منع أمراء الدلتا فى عهد بعنخى من دخول قصره للمشول بين يديه لا لشيء الا أنهم يأكلون السمك ! ولم يسمح الا بدخول أحدهم بعد أن تأكد بعنخى أنه لا يأكل السمك ! .

(١) لقد كثرت الأحتفال فى عهد الملك رمسيس الثالث أحد ملوك الأسرة العشرين ! فالى جانب الأحتفالات الكثيرة بانتصاراته الكثيرة على أعدائه والتي كان يستمر الأحتفال بكل منها عشرين يوما ، كما كان عيد تنويجه عشرين يوما على حين كان عيد تنويج أسلافه يوما واحدا كما كان عيد الإله آمون فى عهد . يستمر نحو سبعة وعشرين يوما ، ونتيجة لهذه الأعياد أصبحت أيام العطلات الرسمية فى عهد ذلك الملك تكاد تساوى أيام العمل .

ولقد كانت صناعة الجلود من أولى الصناعات التي ابتدعها المصريون وبرعوا فيها ! ولقد كانت جلود الماعز تستخدم أحيانا في تكفين الموتى بدلا من المنسوجات ! ولقد كانت تلك عادة أهل الوبر (البدو) في فلسطين الى عهد الأسرة الثانية عشرة ! •

ولقد كان أهم الأسباب التي دعت سنوحى الى العودة الى مصر (١) خوفه من أنه اذا مات في منفاه لف جثمانه قبل دفنه في جلد الماعز الذي كان يكفن به آنذاك الفلسطينيون آنذاك ! •

ولقد كان صنع قرب الماء والفرائر من الجلود من الصناعات الهامة ، ولقد تمكن المصريون من اعداد الجلد اعدادا يسهل طيه ولفه ثم حفظه بحيث لا يشغل حيزا كبيرا •

ولقد كان المصريون في عصور ما قبل التاريخ يستعملون مدى من النحاس في صنع الجلود ، وكانت قصيرة وعريضة مستديرة الطرف ، حتى لا يتعرض الجلد للتمزيق عندما كان يسلخ بها •
وان قرب الماء التي كانت تظهر في الكتابة الهيروغليفية في الأسرة الخامسة ، تشبه القرب التي ظل المصريون يستعملونها في حمل الماء حتى عهد قريب •

(١) كان سنوحى قد فر من مصر خوفا من الملك سنوسرت الأول الى فلسطين ، وبعد أن قضى بضع سنين فيها هاوده الشوق والحنين الى وطنه العزيز ، فأرسل يستعطف الملك ، فعفى عنه الملك ورد عليه مرحبا لعودته الى مصر ، ومبيناً مزايا تلك العودة ، ومن بينها أنه عندما يموت سيدفن في مقبرة بعد أن يوضع جثمانه في تابوت لا في جلد معزى ، كما كانت عادة بدو فلسطين آنذاك •

ولقد كان المصريون يدبغون الجلود ويصنعون منها نعالا خفيفة ،
وأغذية للمقاعد ، كما كانوا يستعملونها كمادة من المواد التي تستخدم
فى صناعة العربات الحربية والدروع ، وفى أغراض أخرى عديدة .
وكانوا يصنعون منها حبلا بأن تقطع الى أشرطة رفيعة جدا ، ثم
تجدل فتصبح حبلا متينة . على أن أجمل تلك الصناعة كانت الجلود
المخرمة التى تشبه الشباك ، وقد كان بعضها ذا أشكال منتظمة جميلة !
ولذلك كانت تغطى بها المقاعد والأرائك ! ولقد كانت الفواصل بين
ثقوبها دقيقة الى أبعد حدود التصور ! ولقد كانت تلك الجلود المخرمة
تلبس فوق الملابس الثيلة لوقايتها وزيادة دفتها ! .

ولقد كانت المصنوعات الجلدية التى تستعملها الطبقات العاملة
الكادحة أشد صلابة وأكثر متانة من التى يلبسها الاثرياء والمترفون ،
ولقد كان جزؤها الأوسط يترك بدون ثقوب ليطول عمرها .

وتعتبر صناعة السلال أقدم من صناعة الفخار ، إذ أن الرسوم
التي وجدت على مخلفات الفخار من عصور ما قبل التاريخ كان بعضها
على هيئة سلال ! وهذا يدل على أن صناعة الفخار قد يكون منشأها
طلاء احدى السلال بطبقة من الصلصال لوقايتها من الماء أو النار ! ولم
يلبثوا أن استبدلوا أواني الفخار بالسلال ! ولقد كانت السلال فى
مبدأ نشأتها فى منتصف العصر الأول لما قبل التاريخ تصنع ولها أغذية
مخروطة الشكل تركز على حوافها البارزة ! ولقد كان الفخار فى

أول نشأته يصنع على غرارها ! ولقد ظل هذا الطراز متبعاً حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولا يزال متبعاً حتى الآن في بلاد النوبة .

وفي عهد الأسرة الأولى كانت تصنع السلال كبيرة مرنة ، ثم استبدل بها سلال صلبة لحفظ المحاصيل الزراعية ! وظلت كذلك حتى العهد الروماني ، وكانت تستعمل آنذاك لحفظ الفاكهة أو نقلها ، وكانت السلال تصنع من سعف النخيل ، وهي لا تكاد تختلف عن تلك التي يستعملها الفلاحون المصريون في الوقت الحاضر .

وكانت بعض الأوعية والأواني تصنع من لحاء نبات البردى الداكن لحفظ المأكولات المختلفة ! ولقد كانت جوانبها تقوى بعيدان « البوص » أو الغاب .

وكان يصنع من تلك المواد نفسها مقاعد كبيرة مزودة بقوائم من خشب لتصبح ثابتة متينة .

ولقد ابتدع المصريون القدماء صنع الحصر منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وكانوا يفرشون بها أرض غرف بيوتهم ولم يلبثوا أن صنعوا نوعاً منها مزخرفاً ، وكانوا يفرشون به السرر في عهد الأسرة الأولى . ثم لم يلبثوا أن زينو بهذا النوع المزخرف الحيطان الداخلية ! ولقد كانت صناعة الحصر بنوعها تشبه إلى حد كبير صناعتها في العصر الحاضر .

ولقد ابتدع المصريون صنع المكاس والمراوح والفراجين ، واستخدموها منذ العصور الأولى وكانت تصنع المكاس والمراوح

من الغاب بعد تنقه • وكانوا يستخدمون المراوح للنهوية ولاذكاء النار عند طهو الطعام في عهد الأسرة السادسة ! أما الفراجين فقد صنعوها من سيقان الغاب واستعملوها في الرسم ! •

ولقد كانوا يصنعون من نبات البردى غرقا صغيرة خفيفة على ظهور السفن ! وكانت زخارف « الحكر » التي كانوا يزينون بها جدران تلك الغرف على هيئة الأطراف العلوية لنبات البردى ، وكانوا يزينون بالحكر أيضا الحوائط الجانبية للحصر التي تزدان بها جدران الغرف في المنازل ، كما استعملت رسوم الحكر أيضا في تزيين الأجزاء العليا من غرف المقابر ، ولقد كان ورق البردى الذي كانوا يستعملونه في الكتابة يصنع بوضع طبقات من سيقان البردى الداخلية ، بعد نزع قشورها الخارجية ، بعضها فوق بعض ، وبينهما مسائل غروى ثم تضغط ، ثم تجفف (١) • ولقد كان ورق البردى أنواعا ، كان معروفا منها ثمانية في العهد الروماني •

(١) يعد الحكر ... وهي كلمة هيرغليفية معناها الزينة أو التحلية - الوحدة الزخرفية الغالبة في الفن الزخرفي في مصر القديمة ، ويرجع أصلها إلى عصور ما قبل التاريخ حين كان المصريون يسكنون الأكواخ ويميمون سقفوها على أعمدة من سيقان البردى ، وكانت أطرافها العليا غير منسقة ، ويربطونها بخيوط فتبدو حسنة المنظر ، وعندما استبدلوا المصريون الأحجار بنبات البردى في بناء بيوتهم ، نقلوا العناصر الزخرفية النباتية إليها (أى إلى الأحجار) وزينوها بها ، كما رسموا زخارف الحكر على سقف البيوت •

(٢) هذه الطريقة في صناعة المصريي لورق البردى ذكرها المؤرخ إيجني ، ولكن ثبت بعد قيام بعض العلماء بتحريتها أنها غير صحيحة ، فقاموا بإجراء تجارب معهودة فنجح العالم باسكوم جر (Batiscomb Gunn) في صنعه !

ولقد كان المصريون القدماء يلجأون الى النار أو الى فأس بدائي خاص لتجويف الكتل الخشبية في صور ما قبل التاريخ ! ولقد ظلت هذه الطريقة مستعملة في بعض العصور التاريخية ! ولقد عثر على توابيت مصنوعة بهذه الطريقة يرجع تاريخها الى عهدى الأسرتين الخامسة والثانية عشرة ! وقد اتبعت هذه الطريقة نفسها في العصر الروماني لصنع الزوارق !

وكانت صناعة الخشب تقوم في أول الأمر على استعمال مطارق صغيرة عرضها نصف بوصة وأزاميل حادة الطرفين ! ومنذ بداية عصر الأسرة الأولى ظهرت آلات أكبر حجماً ، بعد أن أصبح استخدام النحاس في صنعها أكثر ذيوفاً ، ثم بدأت صناعة نشر الخشب في الظهور تدريجياً ، بالاستعانة بسكاكين كبيرة وعريضة ،

= والطريقة التي اتبناها هي أنه قطع نبات البردى وهو أخضر ، ثم أزال لحاءه الخارجى ، ثم قطع اللب قطعاً (شرائح) ووضع على لوحة من الخشب ، ثم وضع عليه عدداً من هذه الشرائح جنباً الى جنب . وبحيث تكون موازية لبعضها بعضاً ومتماسكة ، ثم وضع فوقها شرائح أخرى بحيث تكون زوايا قائمة مع الشرائح التي تحتها ، ثم غطاها بنسيج رفيع رقيق عليها بمطرقة من الخشب دقا متواصلاً لمدة ساعتين ، ثم وسع ما نتج بعد اللدق في مكبس ، لبضع ساعات وعندما أخرجها من المكبس وجد أن الشرائح قد التصمت وكونت ورقاً رقيقاً متجانساً صالحاً للكتابة ثم صقله بعض الشيء مما جعله أكثر ملاءمة .

هذا وكان البردى يستخدم في أغراض أخرى ، فكانت تصنع من سيقانه العصر والسلال والتراويل ، وكان البردى ينبت برياً في منافع الدلتا ، ولكنه اختفى منها الآن ، وينمو الآن بكثرة في السودان ، ويتراوح طول ساقه بين سبعة وعشرة أقدام ، ذلك عدا الجذور والأزهار .

ولقد أدى ذلك الى استعمال المناشير ذات الأسنان المنتظمة ابتداء من عهد الأسرة الرابعة •

ولقد كان المصريون القدماء يزرعون الأشجار المنتجة للخشب ، ويتعهدونها مدة تتراوح بين عشر سنين وعشرين سنة ، ثم يقطعونها ويقسمونها الى مكعبات يصنع منها بعض الأثاث كالمقاعد ذات الأرجل (١) والسرر (٢) •

ولقد وجدت مقاصير في داخل مقابر الملوك مصنوعة من ألواح من الخشب يتراوح طولها بين ١٨ و ٢٠ قدما ، ويبلغ عرضها ١٠ بوصات ، يتبع في تركيبها الطريقة المستعملة في بناء القاعات الخشبية في قصور الملوك ! وتتلخص في صف الألواح متجاورة في وضع رأسى بحيث تعلو أطرافها بعضها فوق بعضها الأخرى وتثبت بأوتاد من خشب توضع في ثقب رأسية ! وهذه الطريقة تمنع الألواح عند انكماشها من ترك ثغرات في الجدران ، وبذلك لا يكون لبرودة الهواء ورطوبته في أثناء الليل ، أو لحرارة الشمس ووهجها في أثناء النهار تأثير محسوس في داخل تلك القاعات •

(١) كان القعد يصنع من كتلة خشبية واحدة ، ريشم ذلك بثقوب ثلاثة أغصان متجاورة في الاتجاهات المناسبة لتكون بمثابة أرجل القعد ، أما القاعدة فكانت تقطع من جزع الشجرة المتصل بالأقرع •

(٢) كانت هياكل الأسره تكون من عوارض من الخشب تستدف عند نهايتها ، تحفر فيها فجوات لتثبت فيها الملة من الداخل ، حتى لا تدو الملة وقد التفت حول العوارض •

ويتجلى الابداع الفنى فى طرز قطع الأثاث المصنوعه من الخشب ، فقد كانت الزوايا الخشبية المستخدمة فى ربط أجزائها تؤخذ من فروع أشجار خاصة ، تنثى فى أثناء نموها . وكانت ظهور بعض المقاعد تستند على دعائم منحرفة من الخلف ، وتقوى رجل الموائد الطويلة الدقيقة بأزراع منقطة من الخشب ! وكانت الأرائك والكراسى عريضة ومتناسقة الأجزاء ، ولا يعوزها إتقان الصنعة ودقتها !

أما الفخار فان الكتابه عنه وعن أنواعه الكثيرة ، وعن تاريخه لا يكفيها عدة مجلدات . ويحتمل أن يكون بعض اوانى فخارية قد جاء بها مصر فى عصر ما قبل الأسرات بعض المهاجرين اليها من الغرب ! ولقد كانت تصنع بعد ورودها باليد ، ثم تشكل دون أن نكور ، كما كان الشأن فى بعض الأقطار الأخرى ! وكانت الخطوه التالية تشكيل جزئها العلوى ، ومنذ عهد الأسرة الأولى استخدمت عجلة الفخار فى صنع الجرار الكبيرة ، ولكن استخدام اليد فى تشكيل الفخار ظلت قائمة عدة قرون بعد ذلك !

وفى عهد الأسرة الثالثة كانت الأوانى الخشنة تصنع بواسطة لفها داخل حفرة فى الأرض ، بينا تشكلها يد الصانع ! وفى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كان الفخارى يدير عجلة الفخار بيده اليسرى ، ويشكل الآنية بيده اليمنى ، ثم يتزعمها ، ويصقل قاعدتها وكانت الجرار الكبيرة تصنع انصافا منفصلة ، ثم تلتصق بعد ذلك ! وفى

عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الجرار الكبيرة تصنع بحيث تكون
فى وضع معكوس أو مقلوب على عجلة الفخار ، وتستخدم اليد فى
تشكيلها حتى تضيق فتحتها العليا ، فيخرج الفخارى يده منها ، ثم
تسد القاعدة بقطعة من الصلصال ، ويصقل من الخارج ، ويترك من
غير صقل من الداخل ! •

ولقد بدأت صناعة الأواني الفخارية المصقولة فى مصر ، فى
أوائل عصر الحضارة الأولى ! ولكن دهان الأواني الخزفية باللون
الأزرق أو باللون الأخضر كان يتطلب مهارة فى التسخين ! اذ يحتاج
هذا الطلاء الى حرارة عالية معينة ، لا تنقص ، ولا تزيد ، لمدة ساعات
معينة ! ولم يك ذلك ممكنا من غير تجارب طويلة سابقة •

ولقد استخدم المصريون فى عصر الحضارة الثانية الزجاج
الأزرق واللازوردى ، على الرغم من أن استخدامه فى ذلك العصر
المبكر كان نادراً اذ لم يكثر إنتاج الزجاج واستخدامه فى نتي
الاعراض الا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة •

ولقد عثرنا على نموذج واحد من الزجاج عليه أشكال من
الموزايكو الملون يرجع تاريخه الى الأسرة الثامنة عشرة •

وقد نهضت صناعة الموزايكو نهوضاً عظيماً فى العهدين
اليونانى والرومانى ، واتسمت بطابع الدقة المتناهية ! وكانت مدينة
الاسكندرية ذات شهرة عظيمة فى تلك الصناعة ! •

ولقد عرف المصريون عشرة أنواع من المعادن وثمانين نوعاً مختلفاً من الأحجار والصخور ، ولكنهم لم يستغلوا منها الا تسعة أنواع فقط ! •

ولقد استخدم المصريون الذهب في عصر ما قبل التاريخ غير أنهم كانوا يخلطونه دائماً بالفضة في عهود الأسرات الأولى ، الأمر الذى يوحى بأنهم كانوا يستوردونه من أقطار أخرى ، ومن آسيا الصغرى بخاصة ! •

ومن المعادن التى عرفها المصريون فى عصور ما قبل التاريخ معدن الفضة ، ولكنها كانت نادرة كالذهب ، وظلت كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنها كانت على الرغم من ندرتها قليلة القيمة ! وأصبحت أقل قيمة عندما توثقت صلة الحيثيين بمصر (١) • ولم يكن استعمال معدنى الذهب والفضة قاصراً على صنع الحلى ، بل كانا يستعملان فى تجميل الأواني المصنوعة من الحجر ، اذ كانت حوافها ، وقواعدها ومقابضها تكسى بالذهب ، كما كانت أعطيها تصنع من الفضة ! وكان الذهب يستخدم فى كسوة أطراف القسى ومقابض المدى ، وغيرهما ، وكانت حبات العقود المصنوعة من حجر الجير تكسى بالذهب • وكان كل ذلك يصنع فى عصور ما قبل التاريخ ! •

(١) بعد إبرام معاهدة السلام بين رمسيس الثانى والحيثيين ، وزواجه من ابنة ملكهم تمسنت العلاقات بين مصر وبلاد الحيثيين ، فتبادلا السلع التجارية ، وكان معدن الفضة كثيراً فى القطر الأخير ، فاستوردته مصر منها ، فكثرت فيها فقل ثمنه •

وفى عهد الأسرة الأولى كان الذهب يلحم بمضه ببعض بدقة عظيمة ، وقد عرف المصريون معدن النحاس بمقادير قليلة منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يصبح ذائع الاستعمال فى صنع الأواني والأدوات الأخرى الا فى أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط ببعض المعادن الأخرى الا فى أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط ببعض المعادن الأخرى لجعله أشد صلابة ، وأخف وزنا ! ومن تلك المعادن التى كان يخلط بها اليزموت والمنجنيز والزرنيخ والقصدير !

ولم يعرف المصريون البلاتين الا فى أواخر عصر الأسرات ، اذ لم يستخدم فى التطعيم الا فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين . ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد فى عصر ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يكثر استخدامه فى الصناعة الا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ! اذ كان يعلق بشباك صيد الاسماك ليزيد من ثقلها !

ولقد حصل المصريون على القصدير النقى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وعلى الاتيمون (١) فى عهد الأسرة الثانية والعشرين ! ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد فى عصر ما قبل التاريخ وكان لندرته كالذهب قيمة ! ولقد عثر على بقايا حديدية ، يرجع تاريخها الى عهود الأسرات الرابعة والسادسة والثانية عشرة ، وما بعدها ! ولكن قلتها جعلت بعض المؤرخين يظنون أنها من بقايا

(١) حجر شبه كريم أذرق !

شهب سماوية ، وليست خام حديد مستخرج من ماجم ! والذى لا ريب فيه أن الحديد كان معروفا ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة ، ولكن ارتباط ذلك المعدن بالاله ست صرف المصريين عن استعماله والانتفاع به حتى عصر البطالة •

ولم يكن الزئبق معروفا فى مصر ، حتى جاء به الرومان ! وكان المصريون ينقبون فى الصحراء الشرقية عن المعادن والأحجار القيمة ، وقد عنروا على عدد من الأحجار المتينة الجميلة المنظر ، وقد برز صناعهم فى نحتها والنقش عليها ! ومن أجمل تلك الأحجار التى عثروا عليها حجر البورفير الامبراطورى الأحمر (١) فى أوائل عهد الأسرة الأولى ، لظهوره فى آثارها ، ثم اختفى ولم يعد للظهور الا فى آثار العهد الرومانى •

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة استخرج حجر الجمشث (٢) ، ولم يظهر بعد ذلك الا فى أواخر عهد الرومان فى مصر •
وقد استعمل المصريون الامازوينت فى عهد الأسر من السادسة الى الثامنة عشرة على أن مصدره لا يزال مجهولا لنا حتى الآن ! •

(١) حجر أرجوانى اللون ذو عبات دقيقة ، يوجد فى الصحراء الشرقية عند حبل الدخان ، وهناك نوع منه استعمل فى عصر الأسرات الأولى فى صنع الأدوات ، ويتكون من بلورات بيضاء فى رقعة سوداء •
(٢) الجمشث أو الاماتيشت حجر بنفسجى اللون يركب من الكوارس الشفاف اللون بأكسيد المنجنيز •

وكان المصريون يصهرون المعادن في قوالب مفتوحة ، أو يحيلونها بالطرق الى صفائح رقيقة ! ولقد كانت الطريقة الأخيرة دقيقة جدا اد كان سمك بعض المعادن المطروقة يصل أحيانا الى أقل من ١/٥٠ من البوصة . . . وقد استخدمت هذه الطريقة أى طريقة الطرف في صناعة الأواني النحاسية الرفيعة ! وكانت رقائق النحاس تستخدم في كساء التماثيل المصنوعة من الخشب ، بشيبتها بمسامير من النحاس أيضا !

ولقد كانت صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية من الصناعات المعروفة في مصر ، وكان لحام المعادن بنفس مادتها متبعا في صناع الحلى في عهد الأسرة الأولى ، وفي صنع الأواني والادوات النحاسية في عهد الأسرة التاسعة عشرة ! أما استخدام سبائك الرصاص والقصدير في لحام المعادن ، فلم يعرف الا في المهددين اليوناني والروماني ! .

ولقد ظهرت صناعة اللين في أواخر عصر ما قبل التاريخ ، ثم عمت صناعته في العصور اللاحقة (١) وتوجد في ابيدوس قلعة

(١) كان المصريون يستخدمون الأسرى في ضرب اللين ، ويعتقد المؤرخون ان الفراعنة سخروا بنى اسرائيل في هذا العمل ! وكان حجم اللبنة الواحدة حوالى ٢٨×١٨×١٢ سم . ويلاحظ ان مصر الفرعونيه لم تعرف الطوب الاحمر المحروق . وأحسن وصف لصناعة اللين في مصر ورد منقوشا على حائط من حيطان مقبرة الوزير وخمارع . وكانت الطريقة المتبعة في صناعته لا تختلف كثيرا عن الطريقة المستخدمة الآن ! ويتلخص في عمل حفرة في الارض على مقربة من

مشيدة بالطوب اللبن يبلغ ارتفاعها ٣٥ قدما ، ويرجع تاريخ بنائها الى عهد الأسرة الثانية ، وهى لا تزال قائمة لم تتأثر بالعوامل الجوية الا قليلا ! ولقد بلغ سمك أسوار بعض المعابد ثمانين قدما فى تانيس عاصمة مصر فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين . وفى تل العمارنة كانت أسوار القصر مزدوجة بينها ممر كانت طوائف الحرس تجوس خلاله ! .

وكان المصريون يعرفون الغزل والنسيج منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وفى عهد الأسرة الأولى كان نسيج الكتان قد بلغ درجة من الاتقان يضارع أجود الأنواع المصنوعة فى كامبرى فى فرنسا من حيث جمال المظهر ومتانة الصنع ! .

ومما لا ريب فيه أن الغزل كان يؤدى باليد ! وكان نوع المغزل اليدوى يختلف من عصر الى عصر . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الرسوم الملونة على الاقمشة تتم فى أثناء نسيجها فى أشكال دقيقة بديعة يزينها حروف هيرغليفية .

• بركة ماء أو جدول ، يوضع فيها الطين ويضاف عليه بعض الرمل لوقايته من التشقق عندما يجف ، وقد يخلط بالطين ليجعله متماسكا ، ثم تؤخذ كتلة كبيرة من المربيع وتوضع على حصى مفروشة فوق أرض مستوية ، وبعد ذلك يبدأ العمال فى تعبئته فى قوالب من خشب ذات مقابض ، وتُسوية سطحه باليد ! ثم يخرج منها ويوضع فى الشمس لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم يقلب أعلى لأسفل ! أما الملاط الذى كان يستعمل فى البناء باللبن ، فكان يتكون من طين الغيل المخروط بقطع صغيرة من الفخار (أ) أرجع لكتاب مصر والحياة المصرية للمؤلف ، وكتاب مصر واسرائيل للمؤلف نفسه ص ٣٢ - ٣٣ .

وقد عرفت الصباغة في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وربما قبل ذلك ! وقد وجدت مصبغة كاملة في عهد الرومان بها أحواض تحتوى على أصباغ مختلفة في بلدة اتريب بالقرب من مدينة سوهاج (١) وقد استعملت آنذاك مواد لتثبيت الألوان وفقا لما ذكره بليني ! وقد استطاع المصريون تثبيت ألوان الزخارف على المنسوجات بغمسها في محلول الشب .

وكانت المواد المستعملة في تثبيت الألوان هي كما يأتي :

١ - اللون الأحمر : وكان يركب من مخلوط الهيماتيت (٢) والمغرة الصفراء المحروقة .

٢ - اللون الأصفر : وكان يصنع من عدة أنواع من المغرة ، وللحصول على نوع جيد منه كان الرهج الأصفر أو أصفر الملك يستخدم لذلك .

٣ - اللون الأخضر : وكان يصنع من المالاخيت (٣) حتى تنصر

(١) المعروف أن اتريب هي بنها الحالية عاصمه القليوبية !
(٢) الهيماتيت أو حجر الدم نوع من أكاسيد الحديد ، يوجد طبيعيا بألوان مختلفة - اسود ، أحمر اسمر .
(٣) المالاخيت أو حجر الوهج أو التوتية هو النحاس القفل ، لونه أخضر ، وكان المصريون يستعملونه كحلا لفضة ، ويستخدمون في طحنه الواح من الوردواز بيضاوية الشكل ، وأشهر مثال لهذه الأنواع لوح الملك ميناء أو نارمر الموجود بالمتحف المصرى بالقاهرة !

الأسرة السادسة ، ثم استعملت سلسلات الجير الخضراء والنحاس في ذلك .

٤ - اللون الأزرق : كان يصنع في عهد الأسرة الرابعة من كربونات النحاس الزرقاء .

٥ - اللون البنى : كان يصنع من أنواع عدة مختلفه من المغرة ، بعضها يحرق خصيصا لذلك !

٦ - اللون الاسود : كان يصنع من أنواع السناج .

٧ - اللون الرمادى : كان يصنع بخلط اللونين الأبيض والأسود .

٨ - اللون الأبيض : كان يصنع من سلفات الجير .

وفى العصر الرومانى استخدم أكسيد الرصاص الأحمر لانتاج اللون الأحمر الفاتح . ولقد كانت الرسوم الملونة تدهن بزالال البيض لوقايتها من تأثير الماء حين يصيبها ! وكانت هذه الطريقة مستخدمة فى ذلك منذ أقدم عصور التاريخ المصرى حتى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث !

صناعة نحت الاحجار

بدأ استخدام الأحجار فى البناء فى منتصف عهد الأسرة الأولى ، عندما استخدم حجر الجرانيت فى تبليط أرضية مقبرة مبنية بالبن خاصة بملك من ملوك هذه الأسرة !

وقد استبدل الحجر باللبن في بناء المعابد الملحقه بالاهرامات
في أواخر عهد الأسرة الثالثة ! ومع ذلك فقد استمر استخدام اللبن
في بناء معابد الآلهة في أبيدوس الى أن ظهرت الأبواب المصنوعة من
الحجر في عهد الأسرة السادسة ! ولم تلبث أن ظهرت مباني شيدت
كها بالحجر في عهد الاسرة الحادية عشرة !.

وان طريقة نحت الحجر التي كان المصريون القدماء يتبعونها
تشبه الى حد كبير الطريقة التي يتبعها النحاتون في العصر الحديث !
فقد كانت تستخدم المناشير المرصعة بالأحجار الكريمة وتسويته .
والمثاقب المصنوعة من أنابيب النحاس (١) في قطع الجرانيت وتسويته .
وكانت طريقة صنع التماثيل هي أن تحدد على قطع الصخر ، ثم
تستعمل المناشير في تشكيلها ، يلي ذلك استعمال المثاقب في عمل
التجاويف العميقة ، وإزالة التواءات بالمطارق (٢) !

وكانت المثاقب تستخدم أيضا في صنع الأواني الحجرية بعمل
فجوة في حجم قوطة الآنية ، ثم يوسع التجويف بمثاقب من الحجر
الصلد ، ويرش بمسحوق الصنفرة بين وقت وآخر ، وتتحرك في
التجويف في اتجاه مائل ! وبهذه الطريقة كانت سمك جدار الأناء

(١) كانت المثاقب تدار اما باليدين ، أو بمقبض متحرك !
(٢) تترتب المطارق من كرات من حجر الدولوريت (Dolerite) الشديد
الصلابة بها تجاويف تتركب فيها عصى أو قضبان ! وكان المصريون يحصلون عليها
بحالة طبيعية من الصحراء الشرقية .
ارجع الى Engelbach : Problems of the Obelisks, p. 42.

المنحوت من البورفير الامبراطورى ، والذي يبلغ قطره قدمين و ١/٤ بوصة ! وكان سطحه الخارجى يصقل بالصنفرة (١) .

ولم يستعمل المخارط فى صنع الأوانى حتى العهد الرومانى !
ولقد كانت الحلقات المحفورة على أرجل المقاعد تنحت باليد . .

ولقد كان الترقيع يسود صناعة الأوانى فى عهود التدهور الفنى الذى منيت به الصناعة فى مصر بوجه عام ! فقد كانت الأوانى المصنوعة من الحجر آنذاك لا تنحت من قطعة واحدة من الحجر ، ولكن كانت تنحت قطعاً ، ثم تلتصق كل قطعتين منها ببعضها ببعض ، كما كانت تجوف الأوانى من ناحيتين ، ثم يركب لها قواعد ! أو تخلط شظايا الحجر الجيرى بالطين لتبدو وكأنها من حجر البورفير الامبراطورى ! .

ولقد كانت مظاهر الترف واضحة فى العصور التى اتسمت بالثراء والغنى مثل عصور الأسرات الأولى والخامسة والثانية عشرة والسادسة والعشرين . وكذلك فى عصر البطالة ، ولقد صاحب ذلك انتشار التهلك والفساد ! .

(١) لقد استعمل المصريون الرمل والماء لصنفرة الأوانى فى عهد الدولة القديمة ، يدلنا على ذلك نقش على أحد جدران مقبرة « وب أم نفرت » فى الحيزة (ارجع الى مصر القديمة جزء ٢ ص ١٦٧ للاستاذ الكبير سليم حسن) .
ويبدو أنهم عرفوا حجر الصنفرة بعد ذلك (ارجع الى كتاب Problems of the Obelisks, p. 81. (Engelbach للاستاذ

ولقد ادهش الاغريق وفرة الأزهار في مصر في جميع فصول السنة ، وكثرة منتجات البساتين ، والاكتار من استعمال العطور ، ومظاهر البذخ الأخرى ! •

وأكبر دليل على كثرة استعمال الزهور للزينة في الاعياد والحفلات تلك الوثيقة المدونة على ورق البردي الجنائزى ، والتي تشيد بأعمال رمسيس الثالث الحيرية وتعدد هباته للمستحقين (١) •

المقايضة :

لقد كانت المنتجات على اختلاف أنواعها تتداول بادیء ذى بدء عن طريق المقايضة ! ولقد عثرنا على مناظر عدة لأحد الأسسواق على جدران مقبرة من المقابر التي يرجع عهدها الى الأسرة الخامسة ، ومنها يتبين أن المقايضة كانت القاعدة المتبعة آنذاك • وليس هناك ما يشير الى وجود معايير ثابتة لتقييم السلع !•

ولقد كان مبدأ مقايضة الحيز بالجمعة ، يستند على تساوى مقدار الحنطة الذى فى كل منهما !•

ولقد عاد الرومان فى أواخر عهدهم الى طريقة المقايضة بسبب

(١) بردية تعرف باسم ورق هاريس ، يبلغ طولها أربعين مترا ، وبها مائة وسبعة عشر سطرا من الكتابة ، وهى لذلك تعد أطول بردية وصلت اليها حتى الآن ! وقد قام بتدوينها الملك رمسيس الرابع ، وسرد فيها أعمال أبيه رمسيس الثالث الحيرية ، وهباته للمعابد ، ومنها عرفنا مقدار ما كانت تملكه هذه المعابد من الأراضى ذات المساحات الكبيرة !

انتشار العملة الزائفة حيثذ ! .ولقد كانت حكومتهم آنذاك تتقاضى
عينا لا نقدا ! •
الموازين والمقاييس :

ويبدأ وجود معيار مشترك في عصر الدولة الوسطى ، حين
كانت السلع التموينية والمائية تقدر بقدر معين من النحاس ! ولقد
عثر على خلاخيل من النحاس ترجع الى عهد الأسرة الثامنة ، تكاد
تكون متساوية في الوزن ، الأمر الذي يوحي بأنها كانت أثقالا توزن
بها بعض الأشياء ! وكان المصريون آنذاك يتداولون الذهب في
هيئة حلقات ، وربما كانوا يتداولون الفضة في هيئة حلقات
أيضا !•

ويظهر من فوائم الضرائب التي ترجع الى عهد الأسرة الثامنة
أن كل واحدة من تلك الحلقات الذهبية كانت تساوى في وزنها
دبنا واحدا (١) (١٤٠٠ حبة) وفي عهد الأسرة العشرين كانت
المسروقات من المقابر لا تذكر أنواعها ، ولكنها كانت تذكر مقادير
قيمتها بالنحاس ! •

وأول عملة استعملت في مصر كانت العملة الفضية الاغريقية
الواردة من منطقة بحر ايجة ، ولم يكن هناك أية محاولة لاصدار
عملة مصرية مستقلة قبل العهد الفارسي ! ففي أثنائه سكّت عملة
فضية تحمل على أحد وجهيها صورة البومة المصرية ، وعلى وجهيها
الآخر مدقة الحنطة •

وفي عهد البطالمة أصبحت العملة المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس أساساً ثابتاً للنقد في مصر ! غير أنها لم تسلم من التزييف ، وفي أواخر العهد البطلمي بخاصة ! •

ولم تلبث أن هبطت قيمتها في العهد الروماني بسبب سوء الحكم وتفشى الفساد آنذاك ، فارتفعت أسعار السلع والبضائع ارتفاعاً كبيراً ! •

ولعل أقدم وحدة للمقاييس كانت عرض الاصبع ، وكان طول عشرين أصبعا يساوي ما كان يطلق عليه لفظ رمن (Remen) أي ما يساوي ١٤ر٦ بوصة ! وهو أساس المقاييس العقارية ! وقد ذاع استعمال الزراع في المباني ، وكان يساوي ٢٠ر٦ بوصة ! وكانت وحدة مقاييس المساحة هي الأستاد أو الأرورة الاغريقية ، وتساوي ١٠ر٠٠٠ ذراع مربع ، وهذه المساحة تساوي ضعف عشرة آلاف رمن مربع ! •

وكانت وحدة مقاييس الطرق هي الرحلة الملاحية النيلية ، وكان طولها ٢٠ر٠٠٠ ذراع ووحدة الطرق البرية هي السخيتوس ؛ وطولها ١٢ر٠٠٠ ذراع • وكانت هذه الوحدات تقسم الى وحدات أقل ، طولها ١٠٠٠ ذراع !

أما وحدة الوزن فقد كانت في الحقبة الأولى لما قبل التاريخ هي النوب (Nub) أو الوحدة الذهبية ، وكانت زنتها ٢١٠ حبة أو قمحة ، وفي الحقبة الثانية لما قبل التاريخ كانت الشيكل

(Shekel) ووزنها ١٢٨ حبة ، أما في عصور الأسرات فقد كانت القدت (Quedet) وزنها ١٤٥ حبة ، وكانت الدين يساوي عشر قدات •

وكان المصريون القدماء يقسمون السنة الى أشهر عدتها اثنا عشر شهرا ، والأشهر الى أيام ، وعدد أيام الشهر ثلاثون ، وكانوا يصيغون خمسة أيام في آخر كل عام ! كما قسموا السنة الى ثلاثة فصول عدة كل منها أربعة أشهر ، وكانوا يسمونها ، فصل النماء ، وفصل الركود ، وفصل الفضان ! وكانوا يقسمون كلا من النهار والليل الى ساعات عدتها لكل منهما ١٢ ساعة • ولقد أدى نقص ٤/١ يوم كل عام الى تراجع الشهور ، بحيث تتم دورتها مرة كل ١٤٦٠ عاما ! فطابقت دورة نجم الشعرى اليمانية ! فقد كان هذا النجم يرصده المصريون عندما تشرق الشمس كل يوم لتحديد بدء السنة (١) •

(١) يظهر نجم الشعرى اليمانية في الامى الشرقى في مستوى طلوع الشمس فوق الأفق على خط عرض مدينة منف في صباح ١٩ يولية حسب التقويم اليولياني (الانرنجى) وقد ربط المصريون بين شروق الشعرى اليمانية وبداية فيضان النيل ، واعتبروا هذا التاريخ أول السنة ، وقسموا الفصول على أساسه !

ولكن اتفاق شروق الشعرى مع الشمس لا يحدث كل سنة في يوم ١٩ يولية ، لأن السنة ٣٦٥ ¼ يوم لا ٣٦٥ يوما فقط • وبذلك تتأخر السنة المصرية المديدة التى هى المدة ما بين فرقتين شمسيين لنجم الشعرى عن السنة الحقيقية كل عام بمقدار ربع يوم أو بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات ، وتكون النتيجة الحتمية لذلك تأخر الفصول •

ولقد كان في مصر القديمة وزانون عامون تخصصهم الحكومة
للتحقق من أن الباعة لا يطففون في الميزان .

وكانت السلع والبضائع التي تصدر الى خارج مصر ترسل
الى بلاد النوبة والشام والمغرب ! وعبر البحر الأحمر الى البلاد
المطلّة عليه ! والى بلاد بونت (الصومال) .

ولقد كثرت البعثات الى بلاد النوبة لكشف ما وراها من
أقطار تمهيدا لتبادل السلع والمنتجات ! ولقد كان من أهم عوامل
تسهيل الوصول اليها القناة التي تم حفرها في عهد الملك سنوسرت
الثالث عبر شلال أسوان ! وقد بلغ اتساعها ٣٤ قدما وعمقها ٢٤
قدما وكان اتساعها وعمقها يسمحان للسفن المحملة بالبضائع
بالمرور فيها !

= ولم يكن ذلك محسوسا للمصريين في مدة قصيرة ! ولكنه أصبح واضحا
على مر القرون ! فوضح لهم أن أصول التقويم غير مطابقة للأصول الحقيقية !
ولدينا شاهد على ذلك الا وهو تمرين انشائي ورد في كراسه تلميذ مصري عاش
في عهد الأسرة التاسعة عشرة ، محمله فيما يلي :

تعالى الى يا آمون خلصنى من السنة المصطريه ، لم تعد الشمس
تسطع ، ويحل الشتاء محل الصيف والشهور تسير القهقري .
ونلى الرغم من أن هذا التايين كان مريكا ومضايقا للناس لحلول الأمياد
الدينية والمدنية في غير مواعيقتها التي كانت تأتي في ايان طفولتهم وصباهم الا أنه
لم يؤثر على مواعيت الزرع والحصاد ! اد كانت متعة للطواهر الطيمية .
ولقد تمكن علماء التاريخ والعلم من تحديد معرفه المصريين لهذا التقويم
بدراستهم للدورة الشعرية ! وقد توصلوا الى أنه تم لهم معرفته في سنة
٤٢٤١ ق . م .

ولقد كان الاتصال ببلاد النوبة وثيقا في عهد الأسرة الثانية عشرة بخاصة ، ولم تلبث مصر أن سيطرت عليها سيطرة تامة في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وامتد سلطانها جنوبا حتى بلدة نباتا الواقعة على خط عرض ٣٠° ١٨' .

وكانت الجزية التي فرضتها مصر على كل من بلاد النوبة والسودان تشتمل على معدن الذهب والرقيق من الذكور والاناث والجوز والصمغ والحنطة والعاج والابنوس وجلود الفهد والماشية ! وكان الجانب الأكبر من تجارة منطقة البحر الأحمر يتبع طريق الصحراء الشرقية التي كانت تبثىء من قفط ! ولقد اختيرت هذه الطريق تجنبا للشعاب المرجانية التي كانت تكثر في شمالي البحر الأحمر ! وفي عصر الدولة الوسطى أصلح هذا الطريق ، وسمى وادى الحمامات ، وذلك بحفر الأبار ، واعداد صهاريج الماء وانشاء مراكز حراسة لها على جانبيه ! وفي عهد سيتي الأول زادت مرافق المياه في هذا الطريق وفويت وسائل الأمن فيه ! .

والقد كان البحر الأحمر الطريق الطبيعي من مصر إلى بنت (١) ، ففي عهد الملك أسيسى أحد فراعنة الأسرة الخامسة ، أرسلت بعثة تجارية إلى تلك البلاد ! كما أرسلت بعثة تجارية أخرى في عهد سفنح كارع (متوحتب الخامس) أحد ملوك

(١) هي بلاد الصومال ، كما يرى ذلك معظم المؤرخين

بالأسرة الحادية عشرة ، وأرسلت معه قالة فى عهد أمنمحات الثانى
احد فرائنة الأسرة الثانية عشرة ، ولكن أهم هذه البعثات جميعا
هى البعثة العظيمة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت (١) .

ولم تقتصر تجارة مصر عبر البحر الأحمر فيما تلا ذلك من
المهود على بلاد بنت ، بل شملت سواحل شبه الجزيرة العربية
والهند .

ويقول استرابون - المؤرخ المشهور - لقد كانت الأساطيل
المصرية العظيمة تبحر الى الهند ، وإلى ما وراء أثيوبيا قاصدا بعض
الأقطار الأفريقية المطلة على المحيط الهندى جنوبى بنت وزنبار
بخاصة .

(١) كان العرض الأساسى من إرسال هذه البعثات هو احصاد البخور
اللازم للشعائر الدينية والحضارية وقد بلغ حرص المصريين على الحصول عليه
أن الملكة حتشبسوت أوصت باحضار أشجاره فى اقصى ، وزرعها فى
حدائقه معدها بالدير البحرى . . وهذا ولم يكن مستجاب بنت فاصرة على
السحور ، ولكنها كانت تشمل التمر والعاج والابوس وجلود الحيوانات . ولقد
أطلق المصريون على بنت « الرسى بالاله » وكانوا يعلنون أنفسهم محددين من
احدى سلالات سكانها ؛ فقد رسموا سكانها على الآثار المصرية . يلحن كلحنى ألله
المصريين ، كما لو ثوا أجسامهم باللون الأحمر الذى كانوا يلونون به أجسامهم
والذى كانوا يميزون به أنفسهم من بين أفراد الشعوب الأخرى الذين كانوا
يرسمونهم على آثارهم ؛ كما كانوا يرسمون شعورهم مرجلة على الطريقة التى
كانوا يرسمون بها أنفسهم ؛ كما كانوا يفخون على أجسامهم القميص الممرى ؛
والى جانب هذه السلالة مثل المصريون فى رسوماتهم سلالات أخرى ينتميان
الى الجنس الزنحى الأسود .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن هناك أدلة علمية على حدوث محرات من
بلاد مصر الى مصر فى عصر ما قبل التاريخ ؛

ولقد كان التبادل التجارى بين مصر والشام مستمرا منذ
عصور التاريخ الأولى ! وكانت أهم سلعة تحرص مصر على استيرادها
من الشام حجر اللازورد ! •

ولقد هبط مصر فى الحقبة الثانية لما قبل التاريخ اقوام ،
ويرجع المؤرخون أنهم جاءوا من الشام ، وقد أحضروا معهم أقدم
قطعة من الزجاج عرفها المصريون ، ومنذ ذلك العصر استمر
استيراد مصر للزجاج من الشام ! ولقد استقدمت مصر نفرا من
الماهرين فى صنعه من الشام فى عهد الأسرة الثامنة عشرة لتعليم
المصريين صناعته ! وبذلك نشأت صناعة الزجاج فى مصر ! •

ويبدو أن احتلال الهكسوس لمصر قد ساعد على اتساع
مجال التجارة المصرية فى الأقطار المجاورة ! ولا أدل على ذلك من
العثور على بعض المنتجات المصرية فى عهد الملك خيان (١) فى كل
من كريت والعراق ! ولقد كان ملوك الأسرة الهكسوسية الثانية
يلقبون أنفسهم « سادة الشمال وملوك البحر » كما هو منقوش
على الجدارين الخاصة بهم ! وعلى الرغم من أن الهكسوس قد طردوا
من مصر ، فإن تجارة مصر مع الشام لم تتأثر ولم يعتورها نقص
بل زادت ! ولعل سبب تلك الزيادة كان استيلاء مصر على بلاد
الشام حتى نهر الفرات ! وكانت لذلك البضائع والسلع الشامية

(١) أشهر ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر .

تورد الى مصر عن طريق البحر وعن طريق البر ! ولقد كان الجانب الأكبر من الأخشاب المستعملة في كافة أنواع الأثاث الجيد الذي كان يصنع في مصر كان يؤخذ من أشجار الأرز والصنوبر المستوردة من بلاد الشام . ومن البضائع المصرية التي كانت تصدر الى بابل والشام المنسوجات الكتانية والأشربة المزركشة بخاصة ، والتي اشتهرت وتميزت بها السفن والزوارق المصرية (سفر الملوك الأول ، اصحاح ١٠ آيات ٢٨ ، ٢٩ ، وسفر حزقيال اصحاح ٢٧ آية ٧) . وفي عهد الأسرة السادسة والعشرين كان الفينيقيون يضطلعون بدور الوساطة في تصريف المنتجات المصرية ، واستيراد السلع التي تحتاجها مصر من الأقطار المجاورة ! وكانت الحكومة تتقاضى منهم ضرائب كانت من أهم موارد الإيرادات العامة للدولة ! .

ولقد أدى تأسيس الاسكندرية واضطلاع بعض سكانها بتصريف المنتجات المصرية ، واستيراد ما تحتاجه مصر من سلع أجنبية ، واضمحلال صور أهم موانئ الفينيقيين الى القضاء على دور الفينيقيين في التجارة المصرية ! .

ولقد كانت مصر في أوج عظمتها واتساع رقعة سيطرتها في ابان عهد تحوتمس الثالث قائدها العظيم تستورد الحنطة من الخارج على الرغم من زراعتها في مساحات كبيرة في مصر ، وهذا يدل على كثرة عدد سكان مصر ! وكانت مصر لذلك تعتمد على الجزية التي كانت تفرضها على الأقطار التي انضوت تحت لوائها ، وعلى تجارتها

الخارجية لسد ضرورات حياة سكانها الذين كانوا يتزايدون باستمرار !

وان هذه الزيادة في عدد سكان مصر لا ترجع الى جلب الرقيق لأن تجارة الرقيق فيها لم تبلغ قط ما بلغت في بلاد الاغريق ! ولهذا لا يعزى الى وجود الرقيق في مصر الاخلال بميزان الاحوال الاقتصادية فيها كما هو الحال في بلاد الاغريق في بعض عصور تاريخها ! ولهذا فان المؤرخين يعزون استيراد مصر للمواد الغذائية الى الزيادة الطبيعية السريعة في عدد سكانها !

ولقد كانت منطقة البحر المتوسط آخر المناطق التي كانت تتبادل منتجاتها مع مصر ! ولقد كانت مصر في الحلقة الأولى لما قبل التاريخ ذات علاقة تجارية مع بلاد الاغريق ، وكانت تستورد منها الصنفرة لاستخدامها في صقل وعوس الصولجانات المصنوعة من الأحجار الرملية ! كما كانت تستورد في الحلقة الثانية من هذا العصر العتيق الانسديان (١) من ساموس (٢) ، ومخلوط الذهب والفضة من باكتولس (٣) ! كما يبدو وأنها كانت تستورد الذهب

(١) هو الحجر الزجاجي الاسود ، وهو زجاج طبيعي بركاني الاصل ، وعندما يكسر الى قطع يكون شفافا ، وكان يستخدم في مصر لصناعة الآلات وروءوس الحراة ، وعيون التماثيل ، والجماير وبعض الاواني الصغيرة الحجم .
(٢) ساموس إحدى جزائر بحر ايجه .

(٣) منطقة تركية يمر بها نهر باكتولس (Pactulos) جنوب غرب مدينه انقره .

فى عهد الأسرة الثانية من ترانسلفانا (١) •

وكانت هذه أهم السلع التى كانت تنقل الى مصر عبر البحر المتوسط •

ومن الأدلة على وجود تبادل تجارى بين مصر وكريت فى عهد الأسرة الأولى تلك الأقداح الفخارية السوداء ، التى كان يستخدمها المصريون فى تعبئة الأصباغ الحمراء لتصديرها ، وكذلك أوانى الأمفورا السوداء (٢) التى تشبه تمام الشبه مئيلاتها فى كنوسوس (٣) •

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون على أوصاف السفن التى كانت تحمل البضائع والسلع من أقطار البحر المتوسط الى مصر ، ومنها اليها من الرسوم المنقوشة على الأوانى التى عثر عليها ، ويرجع

(١) اعتمد المؤلف فى ذلك على أن الذهب الذى كان يجلب الى مصر فى ذلك العصر كان يحتوى على مقدار من الألبد ، ولما كانت ترانسلفانيا هى موطن الألبد ، فرجع استيراده منها (انظر Petrie : Descriptive Sociology of Egypt, p. 57.

ولكن الدكتور سليم حسن يعارض ذلك ، ويقول أن الوثائق المصرية تدل على أن الذهب كان يجلب الى مصر من الأقاليم الجنوبية ، ولا توجد لدينا وثائق تاريخية تشير الى أنه كان يستورد من الشمال قبل عصر الأسرة التاسعة عشرة (انظر : سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١) •

(٢) أوانى الحرقية الطراز ذات عريقتين ، كانت تستخدم فى حفظ النبيذ والزيت وبعض الأطعمة والعسل . ولها فتحات تسمح بإدخال مفرقة ، وكثيرا ماكانت تحلى برسوم ملونة !

(٣) العاصمة القديمة لجزيرة كريت •

تاريخها الى عهود ما قبل التاريخ ! فقد كانت مختلفة الأحجام يصل طول أكبرها حجماً الى نحو مائة قدم ، وتسير بمجازيف ! وكان على ظهر كل سفينة منها غرفتان صغيرتان متصلان بمعبر (كوبرى) يمتد بين سطحيها ، كما كان يوجد على سطحها مظلان لتقى البحارة والمسافرين عليها حرارة الشمس ! وكانت تحمل شعار القطر التابعة له فوق ساريه منبثة فى أعلى الغرفة الخلفية ! وكان يوجد فى مؤخرتها مجداف طويل يستخدم لتوجيهها بمثابة الدفة ! أما المرشد الذى كان يجلس فى مقدم السفينة فكان يحتسى من وهج أشعة الشمس بنصن موزق من أغصان بعض الأشجار •

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون من تقاليد أهل كريت لطرز الأواني المصرية ، فى عهد الدولة القديمة ، على قدم الصلة بين البلدين فى ذلك العصر !

أما فى عهد الدولة الوسطى فقد كانت مصر تستورد الأواني الكريتية المصنوعة من الفخار ذات الرسوم الملونة ، والتي كان يطلق عليها سلع كاماريس (١) •

ولقد استنبط المؤرخون من انشاء الميناء الكبير شمال

(١) أواني كبيرة على هيئة نصف كرة عليها رخارف هندسية حمراء وصفراء وبيضاء على أرضية سوداء •

الإسكندرية (١) ، والمغمور تحت مياه البحر الآن أن التجارة بين مصر وكريت كانت نشيطة .

ولقد اتسع نطاق التجارة الخارجية لمصر في عهد الملك أمنحتب الثالث ، ولا أدل على ذلك من وجود أواني فخارية مصقولة ، وجعارين خاصة به ويزوجته الملك تى فى ميكيئا (٢) . ولقد أُنقش الاغريق تقليد المصنوعات المعدنية المطعمة التى كانت تصنع فى عهد أحمس الأول اتقاناً يصعب معه التفريق بين المقلدة والأصيلة اولقد وجد ضمن مخلفات قصر أختاتون بقايا لما يقرب من ٨٠٠ آنية من صنع اقليم بحرايجه ! غير أن تلك التجارة النشيطة بين مصر واليونان وجزائر البحر الأبيض لم تلبث أن اضمحلت نتيجة لغزو الدوريين لبلاد الاغريق ، وانتهاء دولة الرعامسة ، ولكنها عادت

(١) كان. يقع هذا الميناء شمال غرب جزيرة فاروس القديمة (راس التين الحالية) وكان مدخله فى النقرة المحصورة بين الراس التى يقوم عليها الآن قنار راس التين وبداية حاجز الامواج ، ويتناثر الآن فى هذه الفجوة صخور تعرف بالرملة البيضاء . ولقد ذكر هذا الميناء هرميوس فى اليازته ، اذ يقول : «وهناك جزيرة فى البحر الخضم يسمونها فاروس ، خارج حدود مصر لها ميناء ذو مراس جيدة» .

ويقول جوندته الذى كشف عنه : ان بحارة نريت بنوه فى العصر المتوائى، ولكن يرجح بعض العلماء انه من عمل رمسيس الثانى على حين يقول آخرون ان هذه الاطلال ليست الا ابنية الفرس منها حماية جزيرة فاروس من طغيان البحر انظر : (Jondet : Mémoires de l'Institut Français, tome LX).

(٢) منطقته اثريه شرمى اليونان فاست بها حصاره مزدهرة بين القرنين السادس عشر والثانى عشر قبل الميلاد . وقد قضى الدوريون عليها عند هروهم لبلاد اليونان عام ١١٠٤ ق م .

فنشطت مرة أخرى ، اذ جاء التجار الاغريق فى القرن السابع قبل الميلاد الى مصر ، وأنشأوا صلات تجارية مع المصريين ومع سكان الدلتا بخاصة !

ولما اعتلى اسمياتيك عرش مصر بمساعدة جنود مرتزقة من الاغريق فى عام ٦٤٤ ق.م أسكنهم على جانبي الدلتا فى حصون قراطيس فى غربها ، ودفنى فى شرقها !

وبعد غزو الاسكندر الاكبر لمصر وبنائه مدينة الاسكندرية أصبحت مصر من الناحية العلمية جزءاً من العالم التجارى الاغريقى آنذاك ! وما جاء عام ٢٥٠ ق.م حتى أصبحت الاسكندرية أغنى مدن العالم بفضل تجارتها الواسعة .

وكان النيل هو الطريق الرئيسى للنقل الداخلى ، ولم تكن هناك حاجة الى وسائل أخرى للمسافات الطويلة ! وقد أنشأ المصريون طرقاً طويلة ممهدة كلما دعت الحاجة الى نقل الأحمال الثقيلة الى النيل والترع ، ومنهما الى جهات مصر المختلفة وكان ينتهى الى كل هرم من أهرامات مصر طريق تنقل عليها قطع الأحجار اللازمة لبنائه . ولقد بلغ طول الطريق الذى انشأه خوفو عندما بدأ فى بناء هرمه الأكبر (١) أعجوبة الدهر ومعجزة الأيام ألف ياردة ، وعرضه ستين قدماً !

(١) ذكر هيرودوت أن هذا الطريق استلزم اتمامه عشر سنوات ، وأنه بنى بحجارة مصفولة ، منقوش عليها ، وور بعض الحيوانات .

ولقد بالغ هيرودوت فزعم أنه يضارع الهرم الأكبر في عظمتة .

ولقد كان نقل التماثيل الضخمة بعد نحتها ، الى الأماكن المخصصة لاقامتها فيها ، يتطلب طرفا ممهدة تمهيدا جيدا ، وكانت الطريقة التي اتبعها المصريون في نصب التماثيل الضخمة هي سحبها فوق منحدر طويل ، وبعد وصولها الى قمة المنحدر يهبط بها في الجانب الآخر في اتجاه قواعدا التي تقام عليها ! .

وكانت المسلات تنقل في النيل بعد نحتها في سفن عدة مربوطه بعضها ببعضها الآخر بحبال ! ولقد أثارَت السفينة المصرية التي استخدمت في نقل المسلة المقامة حتى الآن في روما دهشة الرومان واعتبروها أعجوبة من أعاجيب الزمان ! (١) .

(١) في عهد الملك تحوتمس الاول كانت تستخدم سفينة واحدة لنقل المسلات ، طولها ١٢٠ دراما (حوالي ٦٠ مترا) وعرضها ٤٠ ذراعا (حوالي ٢٠ مترا) وكذلك الحال في عهد الملكة حتشبسوت ، وكان يجرها ٢٧ قارب من ذوات المجاديف مربيه في ثلاثة صفوف .

الفصل السادس

التشييد والدفاع

الحياة الاجتماعية

التشييد والدفاع

لقد كانت المساكن البدائية للقبائل المصرية في الصحراء (١) تكون في بدء نشأتها من أكوام من الأحجار الحسنة غير المصقولة تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء ، ومن العير التي تذروه الرياح ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بهذه الأكواخ البدائية خياما لها فتحات في الجهة المضادة لاتجاه هبوب الرياح السائدة آنذاك ! ثم زوردت تلك الخيام بعد ذلك سياج من الغاب في الجهة المواجهة لهبوب الرياح ليضعف من حدتها ويمنع بعضا من الرمال التي تحملها ، ثم لم يلبث السياج أن أحاط بالخيمة من جميع جهاتها لمنع أطفال الأسرة وما كانت تملك من معزى وأغنام من التسرب الى الخارج فتضل ،

(١) كان سكان مصر الالفسون يبنون اكواخهم في الصحراوين الشرقية والغربية اثناء لميضان النيل الذي كان يضم جميع اراضي الوادي مده تعرب من ثلاثة شهور كل سنة .

الأطفال الطريق عندما تهم بالرجوع ، وتضيع المعزى والأغنام !

وعلى مر السنين وتقدم حضارة المصريين استبدلوا بسياج الغاب حائطاً من اللبن حول الخيمة التي كانت تشد حبالها الى أوتاد تدف في الحائط ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بسقف الخيمة الذي كان من القماش سقفاً من الغاب أو عيدان الذرة ، يرتكز على أعمده ويضعون فوقه قليلاً من أوراق الأشجار وأغصانها !

ويستطع الذي يجوب أنحاء مصر المختلفة أن يرى أكواخاً تمثل المراحل المختلفة التي مرت بها على كر الدهور ومر العصور . ولا يزال الغاب وعيدان الذرة « البوص » يلعبان دوراً هاماً في حياة سكان وادي النيل في مصر الى الآن ! ولا تزال نرى أنواعاً من أكواخ الغاب أو من عيدان الذرة وسط المراعى والحقول يقيمها فلاحي مصر في زمن الربيع يقضى فيها رعاة الماشية وحراس الحقول الليل !

ويقول دبودورس : لقد كان الرعاة المصريون القدماء يصنعون أكواخهم التي كانوا يأوون اليها آناً الليل من الغاب والبوص (١) كما يفعل أحفادهم في الوقت الحاضر (٢) .

ولقد كانوا عند إقامة أكواخهم من سيقان الغاب يسدون

(١) تطلق هذه الكلمة على عيدان الذرة .

(٢) يقصد بالوقت الحاضر الزمن الذي عاش فيه دبودورس .

فى كثير من الأحيان الثغرات بينها بعيدان الذرة ! ولقد ظل طراز
مبانى الأضرحة والمعابد باعتبارها مخلفات دينية لها قداستها ، محتفظاً
بطابعه البدائى حتى عصر الدولة القديمة • ثم لم تلبث هندسة
المبانى على اختلاف أنواعها أن تطورت ، فأصبحت الأكواخ مربعة
الشكل مثبتاً أمام كل كوخ منها عمودان يرتكز عليهما سقفه المكون
من سيقان الغاب ، والممتد أمام باب الكوخ للاستظلال به ، وهذا
الطراز لا تزال تراه اليوم فى حقول صعيد مصر ، يستخدمه بعض
سكانه فى اتقاء حرارة الشمس •

وان الاكواخ المصنوعة من سيقان الغاب يطليها أصحابها بالطين
لسد منافذها ، ومن سيقان الغاب يصنع الزراع أعمدة يطلون بها بالطين ،
ويضعون على كل عمودين منها عارضة قوية من الخشب يعلقون بها
شادوقاً تتراوح زنته بين قنطارين وثلاثة قناطير ، يستخدمونه فى
رى أراضيهم !

ويرى بعض المؤرخين أن طلاء سيقان الغاب بالفرين بداية لبناء
الحيطان ، وعلى أحد جدران أثر من الآثار المصرية القديمة نموذج
لحائط يطل منه عدد من الرجال ، ويرجع تاريخه الى العصر الأول
من عصور ما قبل التاريخ ! كما يوجد نموذج آخر لمنزل مثبت
بحائط واجهته ألواح من الخشب فوق بابه ، وأخرى مثبتة فى أعلى
نافذته وأسفلها •

ولقد أوحى طبيعة أرض مصر لسكانها بفكرة صناعة اللبن ،

اذ أن تشقق تربة أرضها بعد انسلاح ماء فيضان النيل عنها ، أتاحت
لهم أخذ ككل منها بعد جفافها ونقلها الى حيث يريدون إقامة
مساكنهم ، ويضعون بعضها فوق بعضها الآخر ليصنعوا منها حيطاناً
غير منتظمة الشكل لحظائر الماشية ، كما كانوا يستخدمون الطين
للتصق الكتل بعضها ببعض كما يستخدم البنامون المونة فى ذلك !
وقد بدأوا صنع قوالب اللبن المنتظمة الشكل خلال الفترة الأخيرة
من عصر ما قبل الأسرات ! وأستخدموها فى رصف أرض المقابر ،
وفى عهد الأسرة الأولى استخدموها فى إقامة المنازل والمباني الكبيرة
الأخرى !

ولقد كان سرات المصريين يسكنون فى بيوت من الخشب ،
وكانوا يصنعونها من ألواح يتراوح عرض كل لوح منها بين ١٢ و ١٤
بوصة ، وطوله يتراوح بين ٦ و ٧ أقدام وكانوا يقيمون تلك الألواح
بعضها الى جوار بعضها الآخر بحيث تكون جوانبها متداخلة فى بعضها
بعضاً ، ثم تربط بطريقة تجعل أطرافها لا يصدها صاد ، حتى اذا
تمددت أو انكمشت بسبب رطوبة الهواء ليلاً أو جفافه نهاراً ،
لا تترك ثغرات بينها مفتوحة ، وقد كانت لتلك البيوت الخشبية أبواب
كثيرة لكى تسمح عند فتحها بمرور هواء كافٍ الى داخلها عندما
تكون الريح ساكنة والطقس حاراً !

وكان لكل بيت من تلك البيوت مدخل ينتهى بالبواب الذى يؤدى الى بهوه ! وكان فى ذلك المدخل ينام أتباع صاحب البيت وخدمه لحراسته !

وكانت تلك البيوت تنقل من أماكنها اذا كانت فى مستوى ماء الفيضان وتقام على حافة الصحراء المطلة على الوادى فى وقت قصير قد لا يمدو يوماً واحداً ! كما كان ينقلها أصحابها الى جوار أكواخ الرعاة المصنوعة من الغاب أو عيدان الذرة والمقامة فى الحقول أو المروج الخضراء عندما يريدون !

هذا وقد حفظت لنا أشكال بيوت الفلاحين فى مصر الفرعونية فى حال تدعو الى الدهشة والاعجاب على بعض الأواني الفخارية التى كانت توضع فى العبور أو الى جوارها لتأوى اليها أرواح الأموات كما كانوا يعتقدون ! وهى عقيدة لاتزال راسخة فى اذهان بعض القبائل الافريقية الى اليوم •

وتدلنا هذه النماذج على أن أبسط أنواع تلك البيوت المصرية القديمة كان مجرد مأوى مفتوح من أحد جوانبه ، وأن ببعضها الآخر ملحقة به غرفة من الخلف ! ويبدو أنها كانت الأصل فى نشأة البهو كما كان بها سلم يوصل الى أعلى المنزل ، وكانت تقام حواجز حول أسطح بعضها ! كما كان فى بعضها أدوار علوية كاملة يعلوها صوامع للغلال يوصل اليها بسلم ! ولم تلبث أمقف الطوابق العليا

للمنارل أن بقوست فاصبح بقيات ! ثم نفس الباعون فأقاموا أعمده
على هيئة أشجار النخيل ، وسرفات ملية الشكل ببرر من الطوابق
العليا نزينها وتجميلها ! كما فتحوا فى السقف فحات ليدخل منها
الهواء عليلاً ! وهذه وغيرها من التفاصيل الدففة اللى ابتدعها البناؤون
المصريون لانزال محفوفة بفضل ملك السامح المخارية !

ولقد عثرنا على نسادج لأثاث مسارل المصريين القدماء ، منها
كرسى عال وأربكه وحامل لعدور الماء وجرايه ورخاً لطحن القلال
مرتكة على قاعدة موضوعة نحت سلم اليب وسجوارها امرأة
تديرها !

وكان المصريون القدماء اذا أرادوا انشاء مدينة جديدة ،
وضع لها المهندسون رسومات نيين شوارعها ومسارلها المختلفة !
وكانت الشوارع مسقيمة لا عوج وبها ومتوازية ! كما براها فى مدينه
اللاهون ، التى يرجع تاريخ انشائها الى عصر الأسره الثانية عشرة ،
وكانت منازل المدينه تختلف فى عدد حجراتها وسعة كل حجرة ،
اذ كانت تتراوح بين أربع حجرات وستين حجرة ! كما كانت المنازل
التى تحيط بكل شارع تختلف باختلاف الشوارع ، اذ كانت منازل
كل شارع ذات حجم واحد ، كما كانت الشوارع تختلف فى طولها ،
فكان فى مدينة اللاهون شارع طوله ٦٢ قدماً يشرف عليه منزلان من
كل جانب ، وآخر طوله ٢٣٠ قدماً يشرف عليه ثمانه منازل من
جانب وتسعة من الجانب الآخر ، وكان طول الشارع الرئيسى الذى

تشرف عليه القصور الكبيرة ٩٠٠ قدماً ، وكان يشرف على كل جانب من جوانبه ثمانية قصور فخمة ! وكان يتراوح عرض الشوارع بين ١١ و ١٢ قدماً ! وكان في وسط كل شارع قناة أشبه بالقناة التي كانت تشق في الشوارع الانجليزية ، وكان مبنية بالاحجار ومخصصة لتصريف المياه • ولم يكن في الشوارع أفاريز مخصصة للمشاة ، اذ لم يكن آنذاك عربات تسير في الشوارع !

ولقد كان أبسط المنازل يتكون من فناء مكشوف مواجهها لدخله ، وحجرة عامة واحدة في جانب ، وفي الجانب الآخر المواجه حجرتان للتخزين ، وسلم موصل الى السطح •

ولقد كانت البيوت المخصصة للفنيين من الصنائع والمشهورين منهم بخاصة ، أكثر اتساعاً ، ويشتمل كل بيت منها على فناء مكشوف وأربع حجرات مفتحة أبوابها عليه ، وتتصل بخمس حجرات أخرى ! وكانت الحجرات جميعها مسقوفة بقوائم (عروق) من الخشب من فوقها عيدان الذرة وسيقان الغاب ، وكان لبعض تلك الحجرات سقوف مقيمة من اللبن ! وكانت مداخل جميع الأبواب معقودة ! أما سلمها فكان يتكون من مجموعتين من الدرجات عدد كل مجموعة منها اثنتا عشرة درجة ، وبينهما بسطة ، وكان عرض كل درجة ٢٧ بوصة • وكانت إحدى حجرات البيت تخصص لطهي الطعام • وكانت الأبواب وعتباتها تصنع من الخشب •

وكانت فى البيوت الكبيرة صوامع مخروطية الشكل لحفظ
الغلال يبلغ قطرها نحو ستة أقدام وسماك حائطها سمك قالب من
اللبن ! وكانت تبنى تلك الصوامع بحيث تكون قريبة من بعضها
بعضاً قرباً لا يسمح لأى إنسان أن ينفذ من بين اثنتين منها إلا بشق
النفس !

ولقد كانت الدور الكبيرة تختلف اختلافاً بيناً عن البيوت
الصغيرة التى وصفناها ، وكان يتبع فى بنائها طراز خاص ، يشبه الى
حد كبير طراز القصور التى أنشئت بعد ذلك بنحو ثلاثة آلاف سنة .
ففى كل منها كانت حجرة للبواب تواجه الباب الخارج للدار ، فإذا
ما اجتزت الباب وجدت ثلاثة معرات ، أحدها الى يسارك يوصل
الى المطبخ وإلى الجناح المخصص للرجال ، وتفتح عليه أفخم حجرات
الدار ، ترى بعد ذلك أمامك ممرين متوازيين ، أحدهما يوصل الى
الحجرات المفضلة عند الأسرة (١) ، والآخر يوصل الى جناح
الحريم . وكانت المطابخ والمخازن تتألف من نحو أربع عشرة غرفة ،
وقاعة كبيرة للخدم ! أما عدد غرف الأسرة فكانت ست عشرة تفتح
على ثلاث أبهاء متسعة ذات أعمدة ، وكان جناح السيدات يحتوى
على ثلاث عشرة حجرة وعلى بهو ذى أعمدة ! وكان خلف
القصر أو الدار فناء متسع مكشوف أى غير ذى سقف تحيط به

(١) لعل المقصود بحجرات الأسرة هى تلك التى يجتمع فيها جميع أفراد
الأسرة من رجال ونساء وأطفال فى المناسبات المختلفة !

بواكى مسقوفة ، وملحق به ستة مخازن أخرى ! وهذه الغرف والقاعات والأبها ، التى يزيد عددها على ستين كان يوصل إليها بمدخل واحد ضيق ! *

وكان بكل قاعه من قاعات الحريم والخدم حوض يملأ بالماء ! وكان يخصص بهو للشىء ذو أربعة أعمدة ، وكان مسقوفاً ، كما كان يخصص بهو للصيف وكان غير مسقوف وبه اثنا عشرة عموداً تحيط بحوض للماء مصنوع من الحجر !

وعلى آثار تل العمارنه يوجد نموذج لساكن الطبقة الوسطى من الموظفين الذين كثر عددهم فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ! وكانت المسافة التى تفصل بين كل مسكنين متجاورين تتراوح بين أربعين وخمسين قدماً ، وكان يحيط بكل مسكن سور يشبه سور الحدائق ! وعندما كان يجرى الأسرة المصرية زائر ويرقى درجات منزلها الأماميه ، يجد حجرة مخصصة للبواب ، وممرًا ينتهى الى حجرة مخصصة لاستقبال الزائرين والضيوف ، ومن الممر يتفرع ممر آخر ينتهى الى بهو بأحد جوانبه أريكة قليلة الارتفاع أمامها مدفأة ، وفى جانبه الغربى محراب للعبادة أحمر اللون ! كما كان يحيط به أربع مجموعات من الغرف ، تتألف المجموعة الأولى من حجرة مخصصة لرب البيت ، بها سرير له يوضع فى جنوبيهما حيث تضيق بعض الضيق ، ومن يفتح غرف للسيدات ، ومن المطبخ *

وتحتوى المجموعة الثانية على عدة غرف مخصصة لرجال الأسرة (١)، وبهذه المجموعة بهو صغير ! ويغلب أن يكون بها باب خلى ! وتحتوى المجموعة الثالثة على حجرات صغيرة تستعمل مخازن ! وتحتوى المجموعة الرابعة على حجرات بها صوابين عدة ، ومن بينها سلم يرقى الى سطح المنزل !

ولقد كانت تلك القصور والدور الكبيرة أنواعا مختلفة ، وكان يضاف عليها على مر السنين مباني يختلف طابعها ونظامها باختلاف الغرض الذى كانت تخصص له ! وضرب المؤلف لذلك مثلا بقصر تل الصارنة . ولم يكن لهذه القصور والدور الكبيرة نمط واحد يمكن أن يتخذ نموذجا لها ، ولكن يمكن القول بأنه كان كل منها - برجه عام - يشتمل على حديقة مسورة وعلى عدة أجنحة ، بعضها لاستقبال الضيوف والوافدين ، وبعضها لأفراد الأسرة ، وبعضها للمخدم والمطابخ والمخازن ! وكانت كلها متصلة بعضها ببعض لا يفصلها فاصل . وكان بها طبقات عليا ، تعلوها حجر مكشوفة حيطانها غير مميكة ، أو ستائر جميلة من القماش !

أما بيوت الطبقة الفقيرة فكانت تتكون من دور واحدة صغير
وقال أن يعلوه دور آخر !

(١) لمن المقصود بالرجال أبناء رب البيت وأخوته .

ولقد كانت تبني الدور المصرية في العهد الروماني بالدين !
وقد أدى استخدام الآجر (١) والجص الى رفع مستوى البناء في مصر
في ذلك العهد بحيث أصبحت الدور في مدنها المختلفة لا يقل عنه
في مدن الامبراطورية الرومانية ، ويبدو أن المصريين في هذا العصر
لم ينسوا نصيبهم من الدنيا ، ومتع الحياة وترفها ! على أن كثرة
نشوء كثير من الضواحي في المدن ، ومن المساكن التي عمرت بها بعض
المناطق الصحراوية ، وانتشار الفخار المتين الجميل ، والزجاج الملون
ليدل على أن سكان مصر في هذا العصر كانوا أكثر عدداً وأوسع
ثراء من أي عهد مضى ! وهكذا كان شأن سكان أقطار شمالي أفريقية
وحوران حيث بلغت مظاهر الحضارة أوجها في العصر الروماني !
وان الحركة الجديدة للنسك التي نشأت في هذا العهد عن
اضطهاد والحكام الرومانيين في بادئ الأمر ، ثم استمرائهم لها ورغبتهم
في الرهبانية آخر الأمر ، والتي حدث بهم الى سكنى كهوف الجبال
في حافة الصحراويين الشرقية والغربية ، لم تكن مظهراً من مظاهر
الرغبة الخالصة في التقشف والزهد والرجوع الى الحياة البدائية
الأولى التي كان يحياها أجدادهم الأولون ! ولا أدل على ذلك من أن
نساك العمارنة والعرابة المدفونة قد شيّدوا أديرة فاخرة ، رصفت
بالبلاط رصفاً جميلاً منسقاً ! وطلبت جدرانها بطلاء أبيض ناصع
جميل ، وزودت بأنواع الأثاث والرياش والفرش ، كما زينت جدرانها

(١) الآجر هو الطوب الأحمر .

ينالصور الجميلة ، وأوصلوها الى الطرق العامة بمسالك مرصوفة
والحقت بها مرافق جيدة لطهي الطعام ولتخزين المؤن والماء .
وان في تفصيل فن العمارة في مصر القديمة أشياء كثيرة تثير
أعجابك ! منها أن وصول ضوء الشمس الى داخل المنازل في مصر
يختلف جد الاختلاف عنه في الأقطار التي يقل ضوء الشمس فيها !
اذ يكفي لوصول الضوء الى حجرات المنازل في مصر وجود كوة
صغيرة في سقفها أو نافذة أو أكثر في جدرانها الخارجية ، وكثيرا
ما يكفي بوصوله متسللا من الأبواب الخارجية ! أما في المعابد فكان
يكفي بوجود كوة في سقفها لا تزيد مساحتها على تسع بوصات
مربعة ليدخل منها الضوء الى داخلها ! ولهذا كانت جدران المنازل
في القرى المصرية في العصور القديمة والحديثة لا يوجد بها الا نوافذ
صغيرة يسميها الفلاحون المعاصرون طاقات في أجزائها العليا ! منها
يدخل الضوء الى حجراته فوق الضوء الذي يأتيها من أفيتها
المكشوفة !

ولقد كانت نوافذ الأدوار العليا تغلق بشبابيك ذات أشكال
مختلفة ، وفي متحف اللوفر بفرانسا نموذج من العاج لشباك منها
مكون من قضبان صغيرة أطرافها العليا على هيئة أزهار نبات اللوتس !
وفي المباني الحجرية كانت الشبابيك تصنع من الحجر أيضا ،
وأحسن ما عرف منها حتى الآن يوجد في البهو الكبير في معبد
الكرنك ، وفي معبد مدينة هابو . وقد وجد منها في قفط أشكال
مختلفة ، بعضها مكون من قضبان رأسية تعلوها كوة مستطيلة مقوسة ،

ومنها ما هو على هيئة شبكه مكونة من قضبان متقاطعه ، بعضها مصمت ، وبعضها مفراغ ، ومنها ما كان على هيئة وردة ذات ست ورقات ، وقد استخدمت أنواع متعددة من الأعمدة فى بناء المنازل ، منها الأعمدة المتعددة الأضلاع ، وكانت تصنع اما من الحجر أو من الخشب ، ومنها الأعمدة المخططة ، ومنها أعمدة على هيئة ساريات الخيام ! وهذا النوع الأخير ، يرمز فى الكتابة الهيروغليفية الى المباني الصغيرة ! ولقد كانت تيجان الأعمدة التى تحاكي سقف النخل تصنع من الخشب بعد نقشه ! وكانت تيجان بعضها تنحت على هيئة براعم زهرات اللوتس ، أو على هيئة الجزء العلوى من نبات البردى . ولقد وجدت نقوش على مصراع أحد الأبواب تمثل أعمدة على هيئة قاعدة المصباح .

ولقد كان المصريون يعنون برصف أرض الحجرات ، فكانوا ينطونها بأسطوانات من الفخار ، ذات أطراف مسنوية السطح ، ثم ينطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة اللبن صرف المياه التى قد تنفذ الى باطن أرض الحجرات ! كما كانوا ينطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة يضعون أنابيب من الفخار ملتصقة بأحد الجدران ، ومتدلية من سطح فوقه .

وكان فى حدائق القصور والدور الكبيرة أكشاك من الخشب سقوفها من الخصر ، ولقد استخدم المصريون الخصر منذ العصور

الاولى لعمل الستائر ، وكساء الجدران الداخلية ، وفرش أرض
الغرف ! •

وكانوا ينشئون مخازن للمحاصيل المختلفة بجوار المنازل
والدور ، ذات سقوف مقيمة كما كانوا ينشئون في حدائق الدور
أحواضا لتربية الأسماك فيها لاستفادهم أنها تفضى على البعوض (١)
الذى يتسبب في مرض الملاريا •

وان أقدم ما عرف من الطرق في الصحراء الغربية طريفان
أحدهما يصل الوادى بالفيوم ، والآخر يصله بالواحات (٢) • وكان
عرض كل منهما خمسين ذراعا (٨٥ قدما) •

أما الطرق التى كانت تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر
الأحمر عبر شمالى الصحراء الشرقية فكانت كما وصفها بليني ،
تمتد من القرما ، ومن منطقة شرقى جيرون (٣) وعلى مقربة منها :
ومن جبل كاسيوس (٤) الى السويس (٥) ، وكانت تلتقى جميعاً
في منتصف الطريق •

(١) من المعروف ان هناك انواعا من السمك تتغذى على يرقات البعوض •

(٢) لانعلم علم اليقين أى واحد يقصدها المؤلف •

(٣) بلدة صغيرة مكانها الآن قرية المعمدية ، وتقع عند الطرف الغربى لبحيرة
البردويل •

(٤) يقع جبل كاسيوس شرقى جيرون •

(٥) كانت تسمى برنيس آنذاك •

أما الطرق التي كانت تخترق الأراضي الزراعية ، فقد كانت دروبا بين الحقول تكفى لسير السابلة والحمير ، ثم فيما بعد لسير الجمال عند ما جىء بها من بلاد العرب ! وكانت تمتد على بحسوان الترع دروب أكثر اتساعا ، وكانت أهم الطرق التي تعبر الأراضي الزراعية هي التي كانت تمتد فوق الجسور التي كانت تقسم الأراضي الى أحواض تمتلئ في زمن الفيضان بماء النيل الذي كان يحمل الغرين المخصب ، والذي كان ينصرف الى النيل عندما ينخفض ماؤه !

ولقد قام الملك أمنمحات الثالث ببناء السد القائم عند بياهو ، وقد كان على وشك الانهيار (١) ! وبهذا السد تكون خزان عظيم لحزن الفائض من ماء النيل عند ارتفاع منسوبه في زمن الفيضان ، وتصريفه عند انخفاضه .

(١) ويرى بعض المؤرخين أن أمنمحات الثالث لم ين هذا السد ، وإنما قام بتجديده ، وأن الذي قام ببنائه هو أمنمحات الاول ! على حين يرى سري أنه كان قائما منذ عهد الأسرة الثالثة ، وأن أمنمحات لم يعم إلا بتجديده كما اثرتا . والذي لا ريب فيه أن الملك أمنمحات الثالث بنى سدين في اليوم أحدهما عند نسخة اللاهون ، بحجز الماء المتجمعه في البحيرة ، ومنعها من انصرافها الى النيل عندما تبدأ مياهه في الانخفاض ، وتصريفها عند الحاجة اليها في فصل التحاريف ، أما السد الآخر فقد شيده عند بلدة بياهو الواقعة في منتصف المسافة بين سنورس ومدينة الفيوم . . ولقد كان هذا السد على هيئة نصف دائرة ، وكان يقصد ببنائه تخفيف الأراضي الواقعة بينه وبين سد اللاهون وبذلك أمكن استرداد مساحة قدرها عشرون ألف فدان ، ومن بينها الأرض المقامة عليها مدينة الفيوم التي يشر اسمها القديم وهو شدت ومعناه بالهروغليفية «المستردة» الى هذا المشروع واقتصد من القيام به !

وقد بلغت مساحة هذا الخزان (البحيرة) آنذاك نحو ٧٠٠ ميل مربع ، ولقد ظل هذا الخزان يستخدم فى الغرض الذى أنشئ له الى عهد بطليموس الأول الذى كان جل جيشه من الاغريق ، وقد رأى ان يهيئهم أرضا زراعية يستقرون فيها ، فعمل على تصغير حجم الخزان أو البحيرة تدريجيا بالحد من مقدار مياه الفيضان التى كانت تنساب فيها ، فلما انحصر الماء عن حافاتها أقطعهم اياها ! •

ويرى معظم المؤرخين أن نظام الري توطد فى مصر بحيث شمل القطر كله منذ عهد الأسرة الأولى مستدلين على ذلك بالنقوش التى وجدت على رأس صولجان للملك العقرب (١) يمثله حاملا فأسا ويهم بالحفر ، بينما كان العمال وهم خائضون فى الماء يعملون لاقامة سد •

ولقد عرف المصريون منذ ذلك العهد البعيد فائدة المصارف فى التخلص من المياه الزائدة عن حاجة الأرض الزراعية والمحملة برواسب الأملاح ، التى من شأنها أن تضر بالزراع اذا بقيت عليها ! أما نظام الري والصرف الذى اتبع فى مصر الحديثة فإنه يعتمد على وجود قنوات يختلف مستواها ، فما كان منها ذا مستو مرتفع يستعمل للري ، وما كان ذا مستو منخفض يستخدم للصرف •

(١) هو الملك السابق لنا مباشرة ، ولا يعرف نطق اسمه بالهروغليفية الذى كتب على هيئة عقرب •

ولقد كانت أولى الخطوات التي اتخذها ولاة الأمور المصريون الذين عنوا بتنظيم ماء الفيضان تقسيم الأراضي الصالحة للزراعة الى أقسام واسعة (أطلق عليها لفظ أحواض) تفصل بينها جسور يبعد كل منها عن الآخر مسافة بضعة أميال ! ويفصل هذه الأحواض عن النيل جسر عظيم يسير محاذيا لمجرأه وبذلك تمكنوا من التحكم فى ماء الفيضان وفقا للحاجة اليه ! ولقد كانت مياه الفيضان تغمر أرض الحياض لفترة معينة يرسب فى اثنائها معظم الطمي التي تحمله فيجدد خصوبتها ، ثم تصرف عندما ينخفض منسوب ماء النيل محملة ببعض أملاح تربة الأرض والتي اذا لم يتخلص منها أضرت بالزروع ! .

ولقد استمرت طريقة رى الحياض حتى العصر الحديث (١) .

ولم يبطل اتباعها الا بعد أن استبدل بها نظام الرى الدائم أن الصيفى ! (٢) .

وعلى الرغم من فائدة طريقة الرى الدائم فانها حرمت الأرض

- (١) لقد كان من مزايا رى الحياض تجديد خصوبة الأرض بما يرسب عليها من الطمي كل عام ، وترك الأرض بدون زراعة فترة تستريح فى اثنائها ، وتنتعش لتعرض شقوقها لأشعة الشمس التي كانت تقتل ما قد يوجد بها من ديدان وحشرات تضر بالنبات ، وكان من مساوئها زراعة الأرض مره واحدة فى السنة .
 - (٢) من مزاياه زراعة الأرض مرتين أو ثلاث مرات فى السنة ، وقد تطلب استخدام هذه الطريقة انشاء عدد من الفناطر على النيل ، وحفر كثير من الشرع والمصارف ، واقامة السدود !
- ومن عيوب الرى الدائم اضعاف الأرض لزراعتها مرات فى السنة وحرمانها من الطمي ، وعدم تعرضها للشمس والهواء فترة طويلة كما كان الشأن فى نظام رى الحياض ، الأمر الذي تكثرت معه الآفات الزراعية .

من الطمى المخصب لها الذى كانت تحمله مياه الفيضان اليها ! الأمر الذى اضطر المزارعون الى استبدال المخصبات الحيوانية والكيمياوية به

ولقد كان منسوب ماء النيل يسجله المصريون على مدار السنة منذ عهد الأسرة الأولى ، وقد استخدموا لذلك مقاييس أقاموها فى أماكن عدة ، ولقد كانوا يحجزون مياه النيل بسدود من تراب تزال عند عدم الحاجة اليها ! •

ويروى ديودورس أن فتح سد الفيوم واغلاقه كان يتكلف خمسين وزنة من الذهب فى المرة الواحدة •

ولقد كان المصريون حتى عهد قريب يحتفلون بفتح سد الخليج الذى كان يخترق مدينة القاهرة احتفالا كبيرا يبلغ مرتبة الأعياد •

ولقد كانت المحافظة على سلامة السدود وقت الفيضان من شئون الدولة الهامة ! فقد كان الحفراء يسهرون على حراستها ، وفكانوا يرون صفوفًا متراسة ، وقد وقف كل منهم على مدى سمع الآخر ، كما كانوا يتناوبون الحراسة ليلا نهارا ، وكانوا يزودون بقدر كاف من العروق الخشبية والجمال لسد أية ثغرة تحدثها المياه فى السدود •

ولقد كان فى العصر الرومانى يعاقب الذى يتسبب فى احداث تلف فى سد من السدود بالاشغال الشاقة أو النفى الى الواحات !

ولقد حدثت فى السدود ثغرات عدة فى العصور السابقة
ولما كان من الضرورى ترميمها من أمام السد لوقايتها وتقويتها ، أصبح
من اليسير تمييز مواضع تلك الثغرات المرممة بوجود انحناء فى جدار
السد ! ولهذا السبب نجد عددا كبيرا من السدود تنحني جدرانها
حتى لتكاد تشبه الأقمى فى تلويها ! وذلك لأن الذين قاموا بالترميم
لم يراعوا المحافظة على استقامتها عند قيامهم بترميمها .

لا نعلم علم اليقين تاريخ حفر القناة التى كانت تصل بين النيل
والبحر الأحمر ، اذ لا يزال المؤرخون غير واثقين من أن أسطول
الملكة حتشبسوت الذى زاد بلاد بنت وعاد منها سلكها . ولكن الذى
يعلمونه علم اليقين أنه كانت هناك قناة تخرج من النيل ، وتمتد
مسافة كبيرة جهة الشرق ! ولقد عثروا على آثار تمثل الملك
سبتى الأول ، وهو يعبر قناة تموج بالتماسيح وتعلوها قنطرة ذات أبراج
حصينة فى طريقه الى الشام ! فاذا فرضنا وجود قناة تمتد بين النيل
وهيروبوليس (١) غربى بحيرة التماسيح الحالية ، عند قل المسخوطة ،
لم بعد ما يدعو الى وجود قناة ملاحية تمتد الى أبعد من ذلك لأن
خليج السويس كان - حتى العصر الرومانى - يمتد شمالا حتى

(١) هيروبوليس Heropolis ومعناها بلفه الاغريق مدينة الابطال ومكانها الآن
قل المسخوطة والتى سميت كذلك لوجود تماثيل كثيرة بها .

• تلك المدينة (١) ! •

ويقول استرابو : ان سيزوستريس ، ويقصد رمسيس الثاني (٢) هو أول من حفر تلك القناة ! ولقد حاول دارا اكمالها ولكن أثناء عن ذلك اعتقاده أن مستوى ماء البحر الأحمر أعلى من مستوى أرض مصر ، وهو نفس الخطأ الحسابي في تقدير مستوى ماء البحرين الأبيض والأحمر الذي وقع فيه مهنوسو الحملة الفرنسية •

أما هيرودوت فيزعم أن نخاو هو الذي بدأ بحفرها (٣) ، أو على الأقل زاد في امتدادها ، وأن دارا هو الذي أتمها ، وجعلها من السعة بحيث تسمح بمرور سفينتين فيها في وقت واحد وذلك في جزئها الواقع بين بوبسطة والبحر الأحمر •

ويقول ديودورس أن القناة كانت تصل الفرع البلوزي

(١) كان خليج السويس يصل اليها آنذاك !

(٢) كان مؤرخو اليونان يطلقون اسم سيزوستريس على سنوسرت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشر ، ولكن المؤلف يرى أن استرابون يقصد بسيزوستريس الملك رمسيس الثاني لاسنوسرت الثالث • والواقع أن أسماء غرائنة مصر اشتلطت على هؤلاء المؤرخين ، فحسبوا كثيرا من أعمال بعضهم الى بعضهم الآخر •

(٣) يكاد يجمع المؤرخون على أن أول من قام بحفر قناة وصلت البحر الأحمر بأحد فراع النيل وهو الثاني هو الملك سنوسرت الثالث (١٨٨٧ ق.م. - ١٨٤٩ ق.م) وكان البحر الأحمر ممثدا آنذاك الى البحيرات المرة : مصر الخالدة للمترجم ص ٦٨ •

بالخليج العربى والبحر الأحمر ، وان المحاولة الأخيرة بعد محاولة
نخاو ودارا هى التى قام بها بطليموس الثانى الذى قام بحفر قناة
عبر برزخ السويس واقامة هويس عليها فى أصلح موضع يفتحه
كلما أراد عبورها ، ثم يغلقه مباشرة ! وكان يسمى فرع النهر الذى
كان ينساب فى تلك القناة باسم بطليموس ! •

وعند ملتقى القناة بالبحر أسست مدينة « ارسينو » ومكانها
شمال مدينة السويس الحالية بقليل ! ولقد عثر على بعض آثار دارا
على مقربة من تل المسخوطة ، وفى « أرسينو » •

ويرى بعض المؤرخين أنه كان هناك اتصال مائى بين النيل
والبحر الأحمر فى عهد الأسرة التاسعة عشرة •

ومصدر الماء فى الصحراء الغربية منخفضات فى بعض جهاتها
تغطى سطحها طبقتان ، احدهما وهى السفلى مسامية من الحجر
الرملى مشبعة بالماء ، والثانية طفلية وغير مسامية ، وهى العليا ،
ولا ينفذ اليها الماء خلالها الا اذا حفر بشر ارتواذى عبرها ! فاذا ما حفر
انبثق الماء وملاً المنخفض وأصبح معين ماء يمكن استخدامه للشرب
ورى الأراضى المجاورة ! •

ولقد نجح الرومان فى الحصول على مقادير وفيرة من الماء
الباطنى فى الواحات ، وذلك بحفر أنفاق يتراوح طولها بين ميلين
وثلاثة أميال تتصل بالانكسارات والشقوق الطبيعية فى القشرة
الأرضية ! •

ولقد عفا الزمن على كثير من تلك الآبار الرومانية بسبب
إهمالها ، على أن هناك عددا قليلا منها لا يزال يتفجر منه الماء بصورة
مستمرة وبمعدل يبلغ مئات من الجالونات في الدقيقة ! •

وإن أقامه ذلك العدد الكبير من المباني والمنشآت الأخرى بالحجر
في عهد الأسرة الرابعة ، وفي العهود التي تلتها فقد تطلب استغلال
المحاجر على نطاق واسع ، وبخاصة تلك التي كان يستخرج منها
الأحجار المثينة •

ولقد كانت الطريقة التي كان المصريون القدماء يتبعونها
للحصول على الأحجار اللازمة للبناء هي حفر فجوات حول كتل
الصخر يسمح اتساعها بمرور ذراع الحجر ويده معول (أزميل)
إلى عمق يتراوح بين قدمين وثلاثة أقدام في داخل الصخر ••
وكان قطع الكتل الكبيرة يتم عن طريق أعداد خنادق تسع لنزول
الحجارين فيها ! وكان الخندق يحدد برسمه على الصخر ، ثم ينحت
إلى أسفل •

ولقد عثر في تلك المحاجر على نقوش وكتابات قام بنقشها
وكتابتها العمال الذين كانوا يشتغلون فيها أو أولئك الذين لجأوا
إليها فيما بعد هربا من الاضطهاد الديني !

ولقد سار المصريون بعد ذلك على نهج هذه الطريقة في قطع

الأحجار من المحاجر ، كما ساروا على هديها فى تحت الأبهاء العظيمة
فى جوف الجبال المطلّة على الوادى لعمل المقابر •

ويغلب على الظن أن الأحجار التى كانت تنزع لعمل المقابر
كان يستخدمها النبلاء فى بناء منازلهم التى يقيمونها فى أرض الوادى
المجاورة !



ولم يكن التعدين فى مصر يجرى على نطاق واسع ، لأن
مناجم المعادن ، ومناجم الذهب بخاصة كانت فى جهات الصحراء
الشرقية النائية •

ولقد كانت الصخور التى كانت تحتوى على الذهب تتكون من
الكوارتز الأبيض ، الذى كان يكسر قطعاً ثم يسحق حتى يصير
وفى شبه جزيرة سيناء كان الفيروز وكذلك الملائيت والنحاس
والمواد اللازمة لصنع الزجاج تستخرج كلها من بين طبقات الحجر
الرملى ! ولم تكن المناجم فى سيناء عميقة ، وكان الضوء لذلك يصل
من الخارج ، وكان المتقّبون يتبعون الطبقات التى تحتوى على
المعادن ! •

وفى الواحات الخارجة مناجم كبيرة لاستخراج الشب ! •
أما الملح فكان يستخرج من الواحات ومن برزخ السويس ! •

ولقد كان المصريون القدماء يقيمون القلاع والاستحكامات اتقاء غارات الأعداء ! ففي عهد الأسيرة الأولى كانت الأسوار متينة على الحدود ، وكان أول واجب يقوم به كل ملك جديد بعد اعتلائه عرش مصر الذهاب إليها والطواف بها للتأكد من سلامتها (١) ويشير سنوحى الى تلك الأسوار فيقول : وصلت الى أسوار الملك (٢) الكائنة على مقربة من بليس ، والتي شيدت لصد غارات قبائل الساتى ، (٣)

ويزعم المؤلف أنه لا يزال أحد الأسوار فى منطقة الشلال فى حال لا بأس بها ، ولكننا لا نعلم علم اليقين تاريخ بنائه ! ويغلب أنه بنى لصد القبائل الضاربة فى الصحراء الشرقية .

على أن أقدم الحصون الباقية الى الآن هو حصن ابيدوس الذى يرجع تاريخه الى عهد الأسرة الثانية ، ويعرف الآن بالشونة - أو شونة الزيب - ويبلغ سمك جداره الرئيسى سبعة عشر قدما ، وارتفاعه أربعة وثلاثون قدما ! ويبدو أنه شيد بادية ذى بدء الى ارتفاع واحد وعشرين قدما ! ثم زيد ست مرات ! وكل زيادة كانت تتم فى خلال عام ! ويبلغ طول الحصن اربعمائة قدم وسبعة أقدام وعرضه

-
- (١) أن ماوصل اليه الاثريون من الكشف الحديثة لايتفق مع هذا الراى .
(٢) سور أنشاء المصريون القدماء على الحدود الشرقية لصر لصد ابدو ، يرجع فى الغالب الى زمن الملك منعرو .
(٣) الاسم المصرى الذى كان يطلق على القبائل البدوية الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الشرقية .

مائتا قدم وعشرة أقدام ، ويحيط به ممر عرضه عشرة أقدام ونصف القدم ، يليه حائط مرتفع سمكه تسعة أقدام ونصف القدم ! ولذلك كان الجدار الرئيسى للحصن فى مأمن من الاصابة بقذائف المغيرين بطريقة مباشرة ، وعلى أن العدو المهاجم كان اذا تمكن من الوصول الى الممر بعد افتتاحه للسور الخارجى ، يتعدر عليه التقهقر فى سهوله ويسر ، لتعرضه لانهار الأحجار الثقيلة عليه من أعلى السور الرئيسى . وفى الحصن أبواب أشبه بالحجرات . . ومن الغريب حقا أننا لم نجد أثرا لسلم يوصل الى أعلى الحصن ، أو حتى لمكان لتثبيت سلم خشبى يؤدى اليه ، مع أن الوصول اليه أى الى أعلى الحصن - كان أمرا ضروريا للدفاع اذا ما هاجمه الأعداء المغيرون ! ويوجد بالقرب من هذا الحصن قلعتان من طرازه . احدهما لم يبق منها الا أساسها ، والأخرى مستخدمة كدير للأقباط ! .

ولقد شيد المصريون فى عهد الأسرة الخامسة بعض الحصون فى جنوبى بلاد الشام . (١) وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان المصريون يبنون الحصون متبعين طرازا جديدا ، وأبرز مثل له حصن سمته (٢) العظيم ، تلخص فى بناء مجموعة من الابراج المنيعة حول أسوار

(١) بعد عثر الاثريون على رسم لحدى القلاع المصرية فى جنوبى بلاد الشام يحاصرها الأعداء الذين يبدون وقد تسلقوا سورها الخارجى بسلالم من خشب ! بينما يقوم بعضهم بهدم بعض أجزائه !

(٢) بلدة منيرة على شاطئ النيل الغربى جنوب وادى حلفا .

الحصن ، وبذلك يمكن للمدافعين صد هجوم المفيرين عليه قبل الوصول الى أسواره المتينة ! •

ولقد كانت أسوار الحصن ترتفع اثنتين وثمانين قدما ويحيط بها خندق يحميه جدار متين من الحجر منحدر الى الخارج ! وكان العدو المهاجم يتعرض لرماح المدافعين التي يرمونه بها وهو يحاول اجتياز منحدرين عسيرين وهما منحدر الجدار الخارجى ومنحدر الخندق قبل وصوله الى أسوار الحصن نفسه ! •

وكانت عروق الخشب تستخدم فى تدعيم جدران الحصن المبنية باللبن ، لتزيدها متانة وقوة حتى اذا استطاع العدو المهاجم احداث ثغرة واسعة فى الجزء الأسفل من الجدار لا تعرض أجزاءه العليا للانهار ، ويرجع استعمال عروق الخشب لتقوية الجدران المبنية باللبن الى عهد الملك سنقرو •

وقد استبدل بهذا الطراز طراز آخر فى العصر الرومانى ، فقد كانت الحصون فى هذا العصر تشيد من الآجر ، يتخلل جدرانها أبراج قوية مجوفة على هيئة أنصاف دوائر كما هو الحال فى حصن بابلون فى القاهرة ، الذى يشبه الحصون الرمانية فى بعض أقطار أوروبا ! •

أما وقد عرفنا وسائل الدفاع المادية ، فقد حق علينا أن نسعرض طريقة تكوين القوات المدافعة عنها !

لقد تعرضت مصر لغزوات الشعوب المحيطة بها ، لا بل والبعيدة عنها ، فقد تعرضت لغزو الليبيين من الغرب ، ولغزو بعض الشعوب الآسيوية من الشرق (١) ! وكان المصريون يصدونهم لا بل ويهاجمون بعضهم في بلادهم ! ومن ذلك أن مينا (نارمر) استولى بعد انتصاره على بعض أولئك الغزاة على ١٢٠٠.٠٠٠ أسير وعلى ٤٠٠.٠٠٠ ثور ، وعلى ١٠٤٢٢.٠٠٠ من المعزى ! ولاريب في أن ذلك كان يتطلب جيشاً كبيراً منظماً ! كما هزم أحد ملوك الأسرة الثانية بعض أولئك الغزاة وقتل ٤٧٢.٠٩ من جنودهم !

ومن ذلك يتبين شغف المصريين بالاحصاءات الدقيقة •

وفي أواخر عهد الأسرة الثالثة قام سنفرؤ بمحاربة النوبيين ، وعاد بعد انتصاره عليهم ومعه ٧٠٠٠ من الأسرى و ٢٠٠.٠٠٠ من الماشية !

ولقد انتهت الحرب ضد الليبيين في عهد أحد ملوك الأسرة الخامسة باستيلاء جيشه على ٨٣٢.٩٤١ رأساً من الماشية •

وكانت بعض تلك الحروب تستغرق وقتاً طويلاً ، يرسل المصريون في أثناء البعثات المختلفة للكشف والاستطلاع ! كما كان يتطلب تقديم الغذاء لعشرات الألوف من الجند في أوقاته ! وكل ذلك يدل على تنظيم دقيق محكم •

ويبدو أن تلك الحروب قد استدعت فرض الخدمة العسكرية على ثلث عدد البالغين من الرجال ، ممن هم في سن التجنيد !

وفي عصر الدولة الوسطى كانت أسماء الذكور ممن هم في سن الخدمة العسكرية تسجل ، لاما كان دعوتهم للانضواء تحت لواء الجيش متى احتاج الأمر الى ذلك ! كما كانت هناك كنيه تابعه للملك ، منظمة تنظيميا دقيقا ، تقوم بما يقوم به الحرس الملكى أو الجمهورى الآن ! ولقد كان الجانب الأكبر من القوات المصرية يدرّب محليا في الأقاليم المختلفة ! فكان في عهد الأسرة التاسعة عشرة فيلق آمون من مصر العليا ، وفيلق بتاح من مصر الوسطى ، وفيلق رع من هليوبوليس وجنوبى الدلتا ، وفيلق سوتخ (١) من تانيس ... وكان حكام الأقاليم والمقاطعات هم المسؤولون عن تجنيد تلك الفياق وتدريبها !

ولقد سبق أن ذكرنا أن المجتمع المصرى كان يتألف من ثلاث طبقات وهم المزارعون والكهنة والجند . على أن تاريخ هذا التقسيم غير معروف .

(١) هو الإله ست وكانت عبادته سائدة في شمالى شرق الدلتا منذ عصر ما قبل الاسرات ، وعندما غزا الهكسوس مصر واستفروا في هذه المنطقة عبده وكانوا يطلقون عليه ذلك الاسم (سوتخ) وظلت عبادته قائمة بعد طردهم من مصر وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة بخاصة التى كان ملوكها ينحتون أسماءهم من اسمه مثل سبتى !

ولقد كان الجيش النظامى فى عهد الملك سيتى مزودا أحسن تزويد بكل ما يحتاج اليه من زاد وعتاد ، وكان يصرف لكل جندى ما يكفيه من لحم وسمك وخضر وخيز (١) ، كما كان يصرف له رداءان من الكتان كل شهر ! أما تابع الملك أى احد أفراد حرسه الخاص فقد كان يصرف له عدا ذلك مقادير من النيذ والزيت وعسل النحل والتين •

وكان الجيش اذا ما سار يسير فى صفوف منتظمة ، وكان لكل فرقة من فرق علم خاص بها !

واقعد كانت الجيوش المصرية منذ العصور الاولى تضم بعض الفرق الأجنبية ! وآية ذلك أن حملة الاعلام فى جيش مينسا أوتارمر كانوا ينتمون الى جنسين مختلفين ! فقد كان أحدهما حليق الذقن ، وكان آخى طويلها ! كما نجد فى عهد الأسرة الخامسة أقواما من البدو يحاربون فى صفوف الجيش المصرى ! وكان فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى صفوف الجيش المصرى جنود لیبیون يحملون أقواساً وسهاماً ! ولقد كان لرمسيس الثانى حرس من سكان جزيرة سردينيا ! أما فى عهد الأسرة السادسة والعشرين فقد حدث تغير عظیم ! اذ لم يقتصر الأمر على ضم فرق من الانغريق الى الجيش المصرى ، بل كان فى سلكه عدد قليل من الكاريين (٢)

(١) كان يصرف لكل جندى أربعة أرتال من الخبز •

(٢) الكاريون نسبة الى كارييا ، وتقع فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة

الاناضول ، ولقد ازدهرت حضارتها فى العصر الاقربى •

وغيرهم من الشعوب الآسيوية ! •

ولقد كانت القوات الحربية المصرية آنذاك تتألف من قسمين كبيرين أحدهما خاص بمصر العليا وشرقي الدلتا ، ويسمى أفرادها الكالاسيري ، والقسم الآخر خاص بغربي الدلتا ، ويعرف أفرادها بالهرموتيبيز (١) (Hermotybies) ، وكان عدد جنود القسم الأول ٢٥٠٠٠٠ ، وعدد جنود الثاني ١٦٠٠٠٠ ، وكان أولئك الجنود مقصورين على الخدمة العسكرية لا يسمح لهم بمزواله عمل سواها ! ، وكان يصرف لكل منهم بالإضافة الى محاصيل ما يملك من أرض مقرر يومي مقداره خمسة أرتال من الخبز ورطلان من اللحم ، وأربعة أكواب من النبيذ •

وفي عهد البطالة كان ينخرط في الجيش عدد كبير من الاغريق ومن أهل مقدونيا بخاصة ؟ وفي عهد بطليموس الثاني كان الجيش يضم بين فرقة فرقة من الكلت يبلغ عددها أربعة آلاف . وفي سنة ٢١٣ ق.م كان يضم فرقة من تراقيا وغلاطية (٢) عددها أربعة آلاف جندي ! ذلك غير ألفى جندي جئ بهم من خارج مصر . وفي العصر الروماني أبعد أجد البراطرة (٣) بعض الجنود المصريين

(١) القسم الاول كان يطلق على المجندين الجدد ، والقسم الثاني كان يطلق على الفرسان •

(٢) منطقة حول مدينة أنقرة •

(٣) أسبه هالنس وهو أحد براطرة روما ، وقد حكم من ٣٦٤ م الى

٣٧٨ م •

لأمر لا نعلم عنه علم اليقين شيئاً ، واستبدل بهم جنوداً من القوطيين ،
جاء بهم من بلادهم التي كانت جزءاً من امبراطوريته .
وفي القرن الثالث جند العرب في الفرق الاحتياطية ، كما
يجند بعض رماة السهام التدمريين (١) .

ولقد كان من أهم أسلحة الجند في فجر التاريخ هو المضرب
الذي كان على هيئة القرص ، ثم لم يلبث أن تغير شكله فأصبح في
هيئة الكمثرى ! .. ثم استعمل الخنجر والحرية المصنوعان من
الصوان كسلاحين بعد ذلك ! وكان في أثناء ذلك العصر البعيد
يستخدم أهل صعيد مصر الحرية ذات الحدين كسلاح من الأسلحة
التي كانوا يعتمدون عليها في الحروب ! .

وكان أقدم سلاح مصنوع من المعدن عرف في مصر ذلك
النصل العريض المثلث الشكل ، ثم ظهر بعد ذلك نصل رفيع
في وسطه خط غائر ! وقد استعمل هذا النوعان قبل انتهاء
العصر الثاني لما قبل التاريخ ! ثم ظهرت الحرية المصنوعة من
النحاس ، ثم الدبوس المدبب الطرفين والقوس والسهم وعصا
الرمية (٢) في مستهل عهد الأسرة الأولى ! وفي عهد الأسرة
الرابعة ظهرت الفأس ، واستخدمها الجنود كسلاح في حروبهم

(١) أي سكان مدينة تدمر .

(٢) عصا مسطحة ومقوسة من أحد طرفيها كانت تستخدم لصيد الطيور ،
ويسمى البومرائج ولا يزال سكان استراليا الاصليون يستعملونها الى اليوم !

ولكنها كانت أخف وزنا من القأس الى كان يستعملها المفلّاحون
فى شئون الزراعة ! •

وكانت العصا الغليظة التى تسمى الآن البوت سلاح الأهالى
العادى ! ما لبث أن أضيف اليه نصل مدبب حاد من معدن •
ولقد كان المقلاع من الأسلحة التى استوردها المصريون من
الأفطار المجاورة (١) •

وكان الجنود المصريون يتقون أسلحة الأعداء بدروع مصنوعة
من الجلود السميكه !

ولم تكن الخيول تستخدم فى الركوب الا نادرا ، وانما
كانت تستخدم فى جر العربات الحربية ! التى كانت تعد بالآلاف ،
فقد روى أنه كان فى مدينة طيبة وحدها عشرون ألف عربية حربية •
ولقد كانت العربات الحربية التى كان يستخدمها الجيش المصرى فى
المعارك الحربية فى بلاد الشام بجرجر كل منها فرسان ، ولعل السبب
فى ذلك وعورة الارض التى كانت مسرحا لتلك المعارك !

ولقد كان الطبل يستخدم ايذاناً للجيش بالمتقدم ، كما كان
يستخدم قادة الجيش النفير (البوق) لاصدار الأوامر ، وتوجيه
سرب القتال !

ولقد ابتدع المصريون أنواطاً وشارات من الذهب لتمنح

(١) لقد كان لسبي الأصل •

للمضباط أو الجنود الذين يقومون بأعمال بطولية • كما كانت
توهب للأبطال بلط صغيرة من الذهب ، وهي تقابل سيف الشرف
في العصر الحديث !

والآن وقد اسعرضنا في ايجاز حصائص الحضارة المصرية
ومفوماتها العامة ، ومنها يتضح أنها وليدة الظروف الطبيعية الخاصة
بتلك البلاد الفريدة • فيض عظيم من الحصب والنماء والوفرة وسط
صحراء قاحله جرداء ، وحرارة لافحه تلطفها رياح عليه منعشة
في الصيف ، وحرارة معتدلة تميل الى البرودة أحيانا في الشتاء ،
وشعب نشيط زكى مجد قوى ، يعتوره الضعف كل بضع مئات
من السنين سنة الله في خلقه ، فتعرض بلاده الى غزاة من الجنوب
ومن الغرب ومن الشرق ، فيتعرض لمؤثرات مختلفة ، ولكنه على
الرغم منها ظل يحتفظ بطابعه وصفاته القومية ، وشخصيته الواضحة
المعالم !

وخلاصة القول أن المناقب العالية والصفات الحميدة التي وهبها الله
لهذا الشعب المجيد ، وكذلك ثبات دعائم حياته ، واستمرارها ،
ووفرة الكنوز التي تدل على أمجاده التاريخية كل ذلك حليق بان
يجعل منه أهم وأعظم مجتمع انساني جدير بالبحث والدراسة سواء
أكان ذلك من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو من ناحية
الاختراعات والابتداعات التي قام بها ، فاقبسها العالم المعاصر ،
وعبرت اشراقاتها البحار والمحطات الى العالم الجديد !

فهرس

الموضوع	صفحة
تقديم	٣
تمهيد	٧
مقدمة المؤلف	١٩
مراجع الكتاب	٢١
الفصل الاول (نشأه المجتمع المصري) ..	٢٣
الفصل الثاني (ادارة البلاد) ..	٨١
الفصل الثالث (الحسنات والسيئات) ..	١٤١
الفصل الرابع (الحياة الخاصة)	١٨٧
الفصل الخامس (وارد البلاد المحلفة وبجارتها الخارجية)	٢٣٧
الفصل السادس (التسبيد والدفاع)	٢٨٩

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٧٢/١٩٧٥